بسم الله الرحمن الرحيم

الجامعة الأردنية
كلية الدراسات العليا

٩٧/١٤
٢٠
١٦

ابن نباتة الفارقي خطيباً

عميد كلية الدراسات العليا
٦١٣

إعداد
عمر محمود محمد دعسان

إشراف
الأستاذ الدكتور عبدالجليل عبدالمهدي

قُدِّمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير
في اللغة العربية وآدابها بكلية الدراسات العليا في الجامعة الأردنية

ربيع الأول ١٤١٨ هـ
تمـــوز ١٩٩٧ م

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإهداء

﴿ ربِّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ
وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحتمك في عبادك الصالحين ﴾

- إلى والديّ الفاضلين اللذين أعانا وصبرا وحملا معي العناء .
- إلى العزيزة زوجتي الغالية .
- إلى أخويّ محمد وخالد اعترافاً بفضلهما وشكراً لجميلهما .
- إلى الشقيقات الغاليات أم محمد وأم باسل وأم ينال وأم بلال وأم مالك وأم أحمد .
- إلى طارق ومحمود ثمرات زكية لغرس طيب .
- إلى أقرباء وأنسباء يُمثّلون نقاء الرّحم وطهارة الصداقة ونبل المصاهرة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شكر وتقدير

بعد أن أعان الله على إنهاء هذا العمل ، أجد من واجب ذكر الفضل لأهله ، والوفاء لمن له حق ودين في العنق ، أن أزجي عميق شكري وخالص تقديري ، إلى أستاذي الدكتور عبدالجليل عبدالمهدي على رعايته لي ، وصبره الجميل ، وما وهب لي من رأي صائب ، وعلم غزير ، ووقت عزيز ، فقد أحاطني بإشراف المخلص وتوجيهاته السديدة ، يزيّنه فوق ذلك كله حسن معشر ، وجميل صحبة ، وتفرّد خلق.

كما يسعدني أن أتقدم بالشكر الموصول ، والدعاء إلى الله أن يحفظ العلماء الأجلاّء : الأستاذ الدكتور نصرت عبدالرحمن ، والأستاذ الدكتور محمد حوّر ، والدكتورة عصمة غوشة ، منارات العلم ، لتفضلهم بقبول مناقشة الرسالة وتصويب هناتها .

وأتوجه بالشكر الجزيل إلى كل أساتذتي الكرام ، وإخواني الذين كان لجهدهم أكبر الأثر في إتمام البحث ، وإلى كل من مدّ يد العون بالنصح أو الجهد أو تذليل العقبات ، وأخصّ بالذكر والدي ، وأخويّ ، والدكتور محمد الدروبي ، والسادة عماد الشيوخي ، وعمر صابر ، وخليل البشيش ، وأحمد خليفة ، وأكرم البشير ، والآنسة منال نوفل .

والشكر كل الشكر للعم علي دعسان على صدق نصحه ، والأخ بسام دعسان على اهتمامه ودعمه .

ولا يفوتني أن أتوجه بالشكر الجزيل إلى أسرة مركز القمة للطباعة والكمبيوتر على ما بذلته من جهد وتعاون في طباعة هذه الرسالة وإخراجها .

والحمد لله رب العالمين .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرس المحتويـات

الموضـــوع	الصفحة
- قرار لجنة المناقشة	ب
- الإهـداء	ج
- شكر وتقدير	د
- فهرس المحتويات	هـ
- الملخص باللغة العربية	ز
الفصل الأول :	١
- مقدمة	٢
حياة الخطيب :	٥
- اسم الخطيب	٦
- مولده	٩
- نسبه	١٤
- ألقابه	١٧
- موطنه وعصره	١٧
- نشأته	٢٦
- أخلاقه وصفاته	٢٩
- علاقاته	٣٢
- ثقافته	٣٤
- مذهبه	٤٤
- وفاته	٥٤
- مكانته	٥٨
- أبناؤه وحفدته	٦٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني: الدراسة التوثيقية للديوان ٧١

- مخطوطات الديوان ٧٢
- خطب ابن نباتة في المصادر الأخرى ٨٠
- نشرات الديوان وطبعاته ٨٢
- ديوان خطب مطبوع يُنسب إليه خطأ ٨٣
- نِسْبة خطبه إلى غيره أو التصرف فيها ٨٧
- الترجمة إلى لغات أخرى ٨٨
- شروح الديوان ٨٩

الفصل الثالث: دراسة موضوعات الديوان ١٠١

- أولاً: الاتجاه السياسي ١٠٢
  - الجهاد ١٠٣
- ثانياً: الاتجاه الديني ١٢٣
  - الوعظ والاعتبار ١٢٣
  - المواقيت ١٣٦
  - موضوعات دينية أخرى ١٤١
- ثالثاً: الاتجاه الاجتماعي ١٥٠
  - النقد الاجتماعي ١٥٠
  - المناسبات الاجتماعية ١٥٣

الفصل الرابع: الدراسة الفنية ١٥٨

- التجربة الأدبية ١٥٩
- أ البناء الفني للخطب ١٦٢
- ب اللغة والأسلوب ١٧٤
- الفنون البديعية ١٨٦
- الصورة الأدبية ١٩٧

الخاتمة ٢٠٨

قائمة المصادر والمراجع ٢١١

الملخص باللغة الانجليزية ٢٣١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الملخـص

ابن نباتة الفارقي خطيباً

إعـداد

عمر محمود محمد دعسان

إشراف

الأستاذ الدكتور عبدالجليل عبدالمهدي

تهدف هذه الرسالة إلى تحقيق عدد من الأهداف يمكن إبرازها فيما يلي :

دراسة حياة الخطيب والفترة التي عاشها ومدى تأثره بأحداثها ، منذ ولادته أوائل العقد الثالث من القرن الرابع الهجري وحتى وفاته سنة ٣٧٤هـ ، ثم دراسة نتاجه الأدبي المتمثل بديوان خطبه من ناحية أخرى ، وذلك عن طريق القيام بتوثيق ما يتصل به من معلومات بيليوغرافية توثيقاً علمياً ، ثم تبيّن أبرز الموضوعات التي طرحها الخطيب كالجهاد ، والوعظ ، والمواقيت ، والمناسبات ، والنقد الاجتماعي ، ودراستها دراسة تحليلية نقدية .

وقام هذا البحث على دراسة ديوان الخطيب من داخله دراسة استقصائية تحليلية مع الرجوع إلى كتب التراجم والتاريخ والأدب التي تحدثت عن الخطيب وعصره ، وذلك لرسم صورة واضحة لحياته ، وتبيّن أثر أحداث عصره في موضوعاته وأساليبه الفنية .

وتتكون الدراسة من أربعة فصول ، تحدثت في الأول منها عن حياة الخطيب متناولاً اسمه ونشأته ومذهبه وثقافته ، ثم ختمته بالحديث عن مكانته ووفاته ونسله .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي الفصل الثاني جاءت الدراسة التوثيقية ، التي قامت على توثيق ما يتصل بالديوان من مخطوطات ، وشروح ، وطبعات ، وترجمات ، وغير ذلك توثيقاً علمياً ، وذكرت ما يُنسب إلى الخطيب خطأً ، وما يُنسب من خطبه إلى غيره ، أو تمّ التصرف فيه .

وأما في الفصل الثالث فقد تناولت موضوعات خطب ابن نباتة ، وتحدثت عن الاتجاهات التي انتظمت فيها هذه الموضوعات ، وهي الاتجاه السياسي ، والديني ، والاجتماعي .

وكان الفصل الرابع محاولة لدراسة خطبه دراسة فنية ، تحدثت فيه عن التجربة الأدبية ، والبناء الفني لخطب الديوان ، ولغة الخطيب وأسلوبه ، وطرائق استعمالاته للأساليب التعبيرية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مقدمة :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله الأمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين وبعد ،

فقد عاش خطيبنا ابن نباتة الفارقي في القرن الرابع الهجري ، في فترة شهدت صراعاً بين الأمة الإسلامية والروم على امتداد الثغور الشامية ، وكان ممن تصدّى لهذا الخطر المحدق بالمسلمين وديارهم سيف الدولة الحمداني الذي عاش الخطيب في ظل دولته ، وكان سيف الدولة كريماً شجاعاً مكثراً من الغزو والجهاد ، وأديباً له مجالسه التي يحضرها أهل العلم والفنون والأدب .

وقد حظي ابن نباتة بالخطابة لديه ، وكان التوجه الديني الذي غلّف حياة ابن نباتة سبباً في إكثاره من خطب الجهاد التي يحث فيها سيف الدولة على حرب الروم ، ويدعو الناس إلى تأييده ونصره .

ولعل مزايا الخطيب وديوانه هي التي دفعتني إلى الكتابة عنه ، إذ لم يحظ من العناية والدراسة بمثل ما حظي به معاصروه من الأدباء على جلالة قدره وسعة علمه ، وقد ساهمت قلّة الكتابات عن ابن نباتة في تشجيعي على عمل هذا البحث، ومما له أثر كبير في اختياري لهذا البحث أنني لم أجد فيما وصل إليه علمي دراسة متخصصة تناولت هذا الأديب ، لذلك فإنني رأيت سد تلك الثغرة ، والنهوض بتلك المهمة ، وعقدت العزم على الكتابة بعد أن ألفيت الأمر قد لاقى قبولاً واستحساناً وتشجيعاً من شيخي وأستاذي الدكتور عبدالجليل عبدالمهدي الذي رعى البحث منذ أن كان فكرة حتى غدا واقعاً .

ومن الأهداف التي وضعتها نُصب عينيّ وأنا بصدد هذ الدراسة ما يلي :

- دراسة حياة الخطيب منذ ولادته أوائل العقد الثالث من القرن الرابع الهجري وحتى وفاته سنة ٣٧٤هـ ، ومدى تأثره بالفترة التي عاشها في حياته وخطبه .
- تبيّن أبرز الأغراض التي تحدث عنها ابن نباتة في خطبه ودراستها دراسة تحليلية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقامت خطة هذه الدراسة على تمحّص النصوص من داخلها مع الاستفادة من الإشارات التي أوردتها مصادر التراجم والأدب والتاريخ في حديثها عن الخطيب وعصره .

وقامت خطة هذه الدراسة على تمحّص النصوص من داخلها بعد استقرائها ، لتبيّن الموضوعات والأساليب الفنية التي قامت عليها خطبه ، ومحاولة دراسة حياته من ديوانه ، ومن المصادر الأدبية والتاريخية المختلفة التي أشارت في حديثها إلى الخطيب وعصره .

وجاء هذا البحث في أربعة فصول ، تحدثت في الفصل الأول عن حياة الخطيب ، فتناولت اسمه ومولده ، ونسبه ، وألقابه ، وموطنه ، وعصره ونشأته ، إضافة إلى أخلاقه ، وصفاته ، وعلاقاته ، وثقافته ، وتلاميذه ، ومؤلفاته ، ومذهبه ، وختمتها بالحديث عن وفاته ، ومكانته ، ونسْله .

وفي الفصل الثاني جاءت الدراسة التوثيقية للديوان وقمت فيها برصد المعلومات الببليوغرافية التي تتعلق بديوان الخطيب من مخطوطات ، وشروح ، ونشرات ، وترجمات ، ثم وثّقتها توثيقاً علمياً مستجلياً ما ورد من خطبه في المصادر المختلفة ، أو ما تمّ من التصرف بها ، أو نسبتها إلى غيره ، أو نسب إليه خطأ .

وتناولت في الفصل الثالث موضوعات خطب ابن نباتة ، فتحدثت عن الأغراض التي عرضها الخطيب وصنّفتها إلى اتجاهات عامة سياسية ودينية واجتماعية تشتمل موضوعاتالجهاد والوعظ والمواقيت والمناسبات والنقد الاجتماعي وغير ذلك .

وكان الفصل الرابع محاولة لدراسة خصائص خطب ابن نباتة الفنية ، تحدثت فيها عن تجربته الأدبية ، وكيف أثرت في إثراء خطبه ، تحدثت عن بناء الخطبة ، ولغة الخطيب وأساليبه الأدبية التعبيرية وطرائق استعمالاته لها .

وقد اعترضتني في أثناء البحث مشكلات لعلّ أهمها صعوبة الحصول على بعض المصادر لا سيما المخطوطة بسبب انخفاض مستوى التعاون لدى بعض مراكز

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المخطوطات ، ومنها قلّة المراجع الحديثة التي تحدّثت عن ابن نباتة .

أما المصادر والمراجع التي اعتمدت هذه الدراسة عليها فقد تنوعت بين قديمة وحديثة مخطوطة ومطبوعة ، على أنني اعتمدت في المقام الأول على ديوان الخطيب المطبوع بشرح طاهر الجزائري ، وجاءت هذه الطبعة عن نسخة مقابلة على عدة نسخ ومحررة في سنة ٥٨٩هـ ، وكانت هذه الطبعة واضحة مضبوطة مما حدا بالباحث إلى اعتمادها أساساً ينطلق منه في دراسته للديوان .

ومن المصادر القديمة المخطوطة التي اتكأت عليها نسخ الديوان وشروحه في كل من باريس وبرلين ، وتوجد منهما صور ميكروفيلمية في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية ، وأما المصادر المطبوعة فمنها وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان ، وتكمن أهمية هذا المصدر في محاولة مصنفه تحرّي صحة المعلومات التي يوردها وتوثيقها ، ومنها الوافي بالوفيات للصفدي ، وتكمن أهمية هذا المصدر في اهتمام المصنّف بالخطيب وقراءته خطبه ، وإشاراته إلى بعض القضايا الخلافية المتعلقة به .

ويضاف إلى هذه المصادر عدد من المصادر التي تجمع بين التاريخ والأدب ، وأهمها المختصر في أخبار البشر لأبي الفداء الأيوبي ، والبداية والنهاية لابن كثير الدمشقي ، وصبح الأعشى للقلقشندي ، والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي .

ومن المراجع الحديثة التي أفدت منها :

كتاب النثر في القرن الرابع الهجري للدكتور زكي مبارك ، وكتاب بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية للدكتور عبدالجليل عبدالمهدي ، وكتاب أمير شعراء المشرق ابن نباتة المصري للدكتور عمر باشا .

وأسأل الله تعالى أن أكون قد وفّقت في قصدي ، وأن ينفعني بما علمني ، ويعلمني ما ينفعني ، فما أصبت فمن توفيقه لي ، وما أخطأت فمن نفسي ، والحمد لله أولاً وآخراً .

عمر محمود محمد دعسان

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حياة الخطيب

- اسمه
- موطنه وعصره
- نشاته
- أخلاقه وصفاته
- ثقافته
- مذهبه
- وفاته
- مكانته
- أبناؤه وحفدته

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اسمُ الخطيب :

اتفق أغلب من ذكره من القدماء والمحدثين أنه عبد الرحيم بن محمد بن إسماعيل بن نُباتة [١] ، وجاء عند ضياء الدين بن الأثير مرّة أنّه عبد الرحمن [٢] ، ثم عاد فقال : عبد الرحيم [٣] ، مّما يُوضح أنه كان سهواً ، وفيما أغفل ابن فضل الله العمري ذكر والده محمدٍ ، فقد أثبت المرتضى الزبيدي له جداً آخر اسمه محمد [٤] .

وقد اختُلِفَ في ضبط حركة النون في نباتة -جد الخطيب- بين الضمّ والفتح، وهذا الاسم اشتهر بحمله جماعة من مشاهير الأدباء ، منهم :

١ - ابن نباتة الفارقي ، الخطيب ، أبو يحيى ، عبد الرحيم بن محمد - صاحب الترجمة - وقد عاش في القرن الرابع الهجري .

٢ - ابن نباتة السعدي ، الشاعر ، أبو نصر ، عبد العزيز بن عمر التميمي ، المولود سنة ٣٢٧هـ ، والمتوفى ببغداد سنة ٤٠٥هـ ، وله غُر القصائد في مدح

---

(١) عز الدين بن الأثير : اللباب في تهذيب الأنساب ٢١١/٣ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ١٥٦/٣ ، أبو الفداء الأيوبي : المختصر في أخبار البشر ، المجلد الأول ١٢٤/٢ ، ابن الوردي : تتمة المختصر ٤٦٠/١ ، الذهبي : العبر في خبز من غبر ١٤٣/٢-سير أعلام النبلاء ٣٢١/١٦، تاريخ الإسلام٥٥٩/٢٦ ، دول الإسلام ١٧٩/١، المشتبه في الرجال اسمائهم وأنسابهم ٩٣/١ ، الصفدي : الوافي بالوفيات ٣٨٨/١٨ ، اليافعي : مرآة الجنان ٤٠٣/٢ ، الفيروزابادي : القاموس المحيط مادة نبت ٢٠٧ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ١٤٦/٤، ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ٣٩٧/٤ ، ابن الغزي : ديوان الإسلام ٣٤٠/٤ ، القنوجي : أبجد العلوم ٧٩/٣ ، إسماعيل البغدادي : هدية العارفين ٥٥٩/٢ ، الزركلي : الأعلام ٣٤٧/٣ ، عمر كحالة : معجم المؤلفين ٢١٠/٥ ، بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ١٠٨/٢ ، عباس القمي : الكنى والألقاب ٤٣٦/١ ، سفينة البحار ٥٦٦/٢ ، عمر فروخ : تاريخ الأدب العربي في الأعصر العباسية ٥٢٧ ، ماريوس كانار : نخبة تاريخية وأدبية جامعة لأخبار الأمير سيف الدولة ٢٨٣ .

دائرة المعارف الإسلامية ٢٨٨/١ ، دائرة المعارف (مقتبس الأثر ومجد مادثر) ١١٤/٢١ ، دائرة المعارف بطرس البستاني ٧١٧/١ ، دائرة المعارف ، فؤاد أفرام البستاني ١٠٠/٤ ، وانظر مخطوط الديوان برلين ٦ ، ١٦ ، ١٠٢وباريس ٤ ، ٢٢٥ ، مخطوط شرح الديوان للعكبري ٢ ، نسخة المدينة المنورة .

(٢) المثل السائر ٢٤٠/٣ .

(٣) نفسه ٣٩٩/١ ، وانظر الجامع الكبير ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٦٤ .

(٤) ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار ٢٦٥/١٣ ، وانظر مخطوط الديوان برلين في موضعين ، الورقة١٠٢ ، المرتضى الزبيدي : تاج العروس ١١٦/٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سيف الدولة وغيره من الملوك والوزراء والرؤساء [١] .

٣ - ابن نباتة المصري ، الأديب الشاعر، جمال الدين ، محمد بن محمد ، المولود سنة ٦٨٦هـ ، والمتوفى بالقاهرة سنة ٧٦٨هـ ، وهو من نسل الخطيب ابن نباتة الفارقي [٢] .

ولاعتماد رأي في ضبط حركة النون ، قمت بتتبع الإشارات الواردة في هذا الشأن ، وعندها استقر لي أن نون الخطيب بالضمّ ، إذ وجدتُ في مجموعها ما يلي :

١ - نفي الفتح على إطلاقه كما عند العكبري المتوفي سنة ٦١٦هـ [٣] .

٢ - الجزم بالضمّ كما هو عند العكبري المتوفى سنة ٦١٦هـ ، وابن الأثيرالمتوفى سنة ٦٣٠هـ ، وابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١هـ [٤] .

٣ - ترجيح الضم وأنه أكثر وأثبت ، كما عند الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨هـ ، والفيروز أبادي المتوفى سنة ٨١٢هـ [٥] .

٤ - ذكر الضم والفتح دون ترجيح كما عند الخفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩هـ [٦] .

٥ - اختيار الفتح كما هو عند المرتضى الزبيدي المتأخر المتوفى سنة ١٢٠٥هـ ، إذ نقل أن الشاعر الجمال - جمال الدين بن نباتة المصري - النباتي بالفتح ، نُسب إلى جده ، وهو من ذرية الخطيب عبد الرحيم [٧] .

---

(١) تاريخ بغداد ٤٦٦/١٠ ، الأنساب (السمعاني) ٤٥٢/٥ ، مرآة الزمان (سبط بن الجوزي) ٢٩٨ ، وفيات الأعيان ١٩٢/٣ ، سير أعلام النبلاء ٥٢/١١ . الوافي بالوفيات ٥٣٢/١٨ .

(٢) الوافي بالوفيات ٣١١/١-٣٣١ ، بدائع الزهور (ابن إياس) ٦٢/١ ، الذيل على العبر (ابن العراقي) ٢١٩/١، المقفى الكبير ١٠٣/٧ ، خزانة الأدب وغاية الأرب ٢٩٣ ، معجم المؤلفين ٢٧٣/١١ ، وانظر أمير شعراء المشرق ابن نباتة المصري د. عمر موسى باشا .

(٣) مخطوط شرح العكبري نسخة المدينة المنورة للديوان : ٢ .

(٤) اللباب ٢١١/٣ ، وفيات الأعيان ١٥٨/٣ ، وانظر نفسه ١٩٢/٣ . مرآة الجنان ٤٠٣/٢ ، تبصير المنتبه بتحرير المشتبه ١٤٠٦/٤ .

(٥) المشتبه في الرجال أسمائهم وأنسابهم ٩٣/١ ، القاموس المحيط ٢٠٧ .

(٦) شفاء الغليل ٢٦٣ .

(٧) تاج العروس ١١٦/٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذا الاختيار مردود لتعارضه مع كلام ابن الأثير في استدراكه على السمعاني تحت نسب النباتي بضم النون عندما قال : « فاته النسبة إلى نباتة جد بني نباتة الخطباء المشهورين ، ويكفيهم شرفاً أنّ مثل أبي يحيى عبد الرحيم بن محمد بن إسماعيل بن نباتة النُّباتي منهم ، صاحب الخطب المشهورة »[١] .

كما أن العكبري أكد ذلك من قبل في حديثه عن الخطيب بقوله : ونباتة بضم النون ، وكذلك نباتة أبو الشاعر ، وليس لهم نباتة بفتح النون[٢] .

والملاحظ أن هذه الإشارات كلما اقتربت من عهد الخطيب ازداد التأكيد فيها على أن حركة النون بالضم .

وقد اختار هذا الرأي قبلي من المحدثين : عباس القمّي ، و د. عمر موسى باشا ، إلا أن الأول اكتفى بالحديث عن أن نباتة بضم النون يُطلق على جماعة ، ثم ذكر بينهم الخطيب دون تعليل أو نقل لأي رواية[٣] ، وأما الآخر فإنه لم يُشر إلى عدد من الإشارات التي ذكرت[٤] .

ولقد أدّى اشتراك هؤلاء الأدباء في حمل الاسم نفسه إلى حدوث خلط واضطراب عند بعض من ذكرهم من القدماء والمحدثين ، ليس في اختلاف حركة النون فحسب ، ولكن في غير ذلك ، كما في الحديث عن مكان الوفاة ، والشهرة ، والنَّسَبِ ، والأعمال الأدبية .

كنيته :

أجمعت المصادر أنّ للخطيب كنيةً واحدةً هي « أبو يحيى »[٥] ، ولما لم أعثر على ابن له يُسمّى يحيى ، تساءلت عن السبب في لزوم هذه الكنية له ، إذ لم أجد

(١) اللباب ٢١١/٣ .

(٢) مخطوط شرح الديوان ، باريس ، ورقة ٢ .

(٣) الكنى والألقاب : ٤٣٦/١-٤٣٧ ، سفينة البحار : ٥٦٦/٢ .

(٤) أمير شعراء المشرق : ١٠٠ -١٠٢ .

(٥) ذكر هذه الكنية أغلب من ترجم للخطيب . انظر مثلاً وفيات الأعيان ١٥٦/٣ . سير أعلام النبلاء ٣٢١/١٦ . الوافي بالوفيات ٣٨٨/١٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

له من الأبناء الذكور غير الخطيب أبي طاهر محمد، الذي روى خطب أبيه ، وعللت ذلك بأن يحيى - الابن الأول - ربما يكون قد مات صغيراً ، أو كان مغموراً غير ذي شأن فيُعرف كأخيه .

ولا أدري لعلّ هذه الكنية لصقت بالخطيب لكثرة تذكيره الناس بالموت ، وحثه لهم على العمل من أجل الحياة الحقيقية في الآخرة * .

مولده :

ذكر ابن خلكان المتوفى٦٨١هـ أنّ المؤرخ ابن الأزرق الفارقي المتوفى بعد سنة ٥٧٢هـ صاحب تاريخ ميافارقين ، قد انفرد بتحديد تاريخ مولد الخطيب وموته ومكانهما ، فقال : «لم أرَ أحداً من المؤخين ذكر تاريخه في المولد والوفاة سوى ابن الأزرق الفارقي في تاريخه ، فإنه قال : ولد في سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة ، وتوفى في سنة أربع وسبعين وثلاثمائة بميافارقين »[١] .

وكان أغلب من ترجم للخطيب بعد ابن خلكان قد اتخذوا من سنة ٣٣٥هـ تاريخاً لمولده ، كأبي الفداء الأيوبي المتوفى ٧٣٢هـ ، وابن الوردي المتوفى ٧٤٩هـ ، وابن كثير المتوفى ٧٧٤هـ ، وابن تغري بردي المتوفى ٨٧٤هـ ، وابن العماد الحنبلي المتوفى ١٠٨٩هـ ، وابن الغزي المتوفى ١١٦٧هـ [٢] ، وتبعهم على ذلك المعاصرون [٣] .

٤٨١٤١٧

---

* في الكناية والتعريض للثعالبي ، ص ٥٣ : ويُكنى عن ملك الموت بابي يحيى .

(١) وفيات الأعيان : ١٥٧/٣ .

(٢) المختصر : المجلد الأول ١٢٤/٢ ، تتمة المختصر : ٤٦٠/١ ، البداية والنهاية : ٢٠٣/١١ ، النجوم الزاهرة : ١٤٦/٤ ، شذرات الذهب : ٣٩٧/٤ ، ديوان الإسلام : ٣٤٠/٤ .

(٣) أبجد العلوم : ٨٠/٣ ، هدية العارفين : ٥٥٩/٥ ، معجم المؤلفين : ٢١٠/٥ ، الأعلام : ٣٤٧/٣ ، الكنى والألقاب ٤٣٦/١ ، النثر الفني في القرن الرابع الهجري ١٩٢/٢ ، ضبط الأعلام ١٥٧ ، سيف الدولة وعصر الحمدانيين ١٧٤ ، نخبة تاريخية وأدبية (كانار) ٢٨٣ ، تاريخ الأدب العربي في الأعصر العباسية ٥٢٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفيما حصل الاتفاق على أنّ مولده كان بميافارقين * ، أخطأ اليافعي وابن العماد الحنبلي إذ جعلاه عسقلاني المولد [١] ، ثم لم يلبث ابن العماد أن ناقض نفسه قائلاً : ومولده وموته بميافارقين [٢] .

ونقل الصفدي المتوفي ٧٦٤ هـ عن كتاب - لم يُحدّده - لسبط بن الجوزي المتوفى ٦٥٤هـ ، أن مولد الخطيب كان سنة ٣٣٥ هـ [٣] ، وبما أن ابن خلكان صرح أنه لم ير أحداً من المؤرخين ذكر مولد الخطيب وموته إلا ابن الأزرق الفارقي ، مع أنه اطلع على تاريخ سبط بن الجوزي المشهور «مرآة الزمان» بخط مؤلفه [٤] ، إضافة إلى أنني لم أجد شيئاً له علاقة بمولد الخطيب ضمن النسخ التي تسنّى لي الاطلاع عليها من هذا التاريخ ، فإنني أرى أن الصفدي ربما يكون قد نقل هذه المعلومة من تأليف آخر لسبط بن الجوزي غير مرآة الزمان [٥] .

والذي يعني الباحث أننا في ضوء معرفتنا بسعة اطلاع ابن خلكان ودقته ، نتوصل إلى أن سبط ابن الجوزي - إن ذكر ذلك - يكون قد اعتمد على تاريخ ابن الأزرق ، لا سيما أنه صرح بالإطلاع عليه والنقل عنه [٦] .

وشذت رواية نقلها اليافعي المتوفى ٧٦٨ هـ جاء فيها «وذكر بعضهم أنه ولد سنة خمسين وثلثمائة» [٧] وهي رواية يكفي لنقضها الاعتماد على خطب ابن نباتة،

---

* ميافارقين : أشهر مدينة بديار بكر ، فتحها عياض بن غنم في عهد عمر بن الخطاب ، وهي مدينة حصينة عامرة تقع في حضيض جبل شرقي دجلة من جهة الشمال ، صورة الأرض : ٢٠٢ ، معجم البلدان ٢٣٥/٥ ، نزهة المشتاق ٦٦٣/٢ ، ٨٢٠ ، فتوح البلدان ١٧٩ .

(١) مرآة الجنان ٤٠٣/٢ ، شذرات الذهب : ٣٩٧/٤ .

(٢) شذرات الذهب ٣٩٨/٤ .

(٣) الوافي بالوفيات ٣٨٨/١٨ .

(٤) وفيات الأعيان ١٤٢/٣ .

(٥) انظر هدية العارفين ٥٥٤/٢-٥٥٥ مثل «معادن الإبريز في التاريخ» أو ربما أي كتاب آخر من مؤلفاته الكثيرة التي تعددت موضوعاتها .

(٦) مرآة الزمان ٣٨٨ ، تحقيق جنان الهموندي ، بغداد .

(٧) مرآة الجنان : ٤٠٤/٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التي تضمنت ذكراً لأحداث جرت في السنوات الواقعة سنة ٣٥١هـ وما بعدها [١] .

وقد انفرد الذهبي المتوفي ٧٤٨هـ جازماً بتخطئة من قال إن ولادة الخطيب كانت سنة ٣٣٥هـ ، ورجح أن تكون قبل ذلك ، فقال بعد أن ذكر كلام ابن الأزرق الفارقي وغيره :« وقد غلطوا في مولده ، نعم غلطوا في مولده ، فإنه ابتدأ سالف خطبه في سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة ، وهو خطيب » [٢] .

وأكّد على ذلك بقوله : «ولم يصحّ ذلك ، فإنه ابتدأ بتصنيف خطبه في سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة ، وهو إذ ذاك خطيب مميِّز ، وجالس المتبني ، فلعله عاش خمسين سنة أو أكثر » [٣] .

فيما اكتفى الصفدي بالتشكيك في صحة هذا التاريخ بقوله «وكأنهم غلطوا في مولده » [٤] .

وقد أكد المؤرخون - ومنهم الذهبي - أنّ ابن نباتة عمل خطبه الجهادية * يُحرض المسلمين على الروم سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة [٥] .

إن الذهبي الحافظ المحدث الذي امتلك العلم والتجربة والجرأة ، والمؤرخ الذي صنف عدة تواريخ جامعة ، واطلع على جُلّ ما صُنف قبله ، لم يُعلل رفضه تأريخ ابن الأزرق مولد الخطيب سنة ٣٣٥هـ لانفراد الأخير بتحديد هذا التأريخ دون إسناده أو ذكر مصدره ، ولا لإنكاره أن يكون الخطيب متفوقاً منذ الصغر ، وإنما بين أن حجته تتلخص في أن تولّي ابن نباتة منصب الخطابة ، وضرورة كونه مميزاً عند عمله الخطب الجهادية التي صنفها في المدة الواقعة بين سنة ٣٤٨هـ وما بعدها،

---

(١) انظر ديوان خطب ابن نباتة : مثلاً ص (١٩١) واقعة حلب سنة ٣٥١هـ ، وص ١٩٩ حفر الخندق حول سور ميافارقين سنة ٣٥٢هـ وغيرها .

(٢) تاريخ الإسلام : ٥٥٩/٢٦ .

(٣) سير أعلام النبلاء : ٣٢٢/١٦ .

(٤) الوافي بالوفيات ٣٨٨/١٨ .

* الخطب الجهادية ، انظر الديوان (١٧٧-٢٤٠) .

(٥) مرآة الزمان ١٠٤ . الأعلاق الخطيرة ٣٠٦ . العبر ٧٨/٢ . تاريخ الإسلام ٢٢٩/٢٥ . النجوم الزاهرة ٣٢٢/٣. شذرات الذهب ٢٥١/٤ . نخبة تاريخية وادبية (كانار) ٢٨٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إضافة إلى أنّ مجالسته المتنبي في خدمة سيف الدولة ، يتعارض مع صِغَر سِنِّه آنذاك ، إذا عددنا أنّ مولده كان سنة ٣٣٥هـ ، إذ يكون عندها ابن ثلاث عشرة سنة فحسب .

إن نظرة ناقدة في ديوان الخطيب تجد بعد التدقيق والمقارنة صدق ما ذكره الذهبي ، إذ إنّ الخطب الجهادية التي صنفها الخطيب سنة ٣٤٨هـ وما بعدها ، لا تقل قوة وجزالة عن بقية الخطب التي في الديوان ، بل إنها تتسنّم منزلة مرموقة فيه ، مما يوحي أنه كان خطيباً قبل أن يصنفها ، إذ يستحيل أن يصبح المرء خطيباً ويأتي بمثل هذا المستوى بين عشية وضحاها .

ثم كيف نستند إلى أن مولد الخطيب كان سنة ٣٣٥هـ في قبول ما ذكره الصفدي ، من أن المتنبي وغيره كانوا تحت منبر الخطيب وهو يقول : أيها الناس تجهّزوا فقد ضُرب فيكم بوق الرحيل ، فقالوا : أفحَمَ الخطيب ، ما بقي يأتي بعد هذه السجعة بمثلها ، فقال : وبرّزوا فقد قُدمت لكم نوق التحويل ، فزادهم الاستعارة والترصيع [١] .

إنه لو اتفق للمتنبي مثل هذا المجلس ، ولو في آخر سنة من عهده بسيف الدولة سنة ٣٤٥هـ *، مع اتفاقنا أن ابن نباتة كان خطيب سيف الدولة ، وأنه اجتمع بالمتنبي في خدمته وسمع عليه بعض ديوانه [٢] ، لكان الخطيب عندها في العاشرة من عمره فحسب .

أفيَجُوزُ أن يتولى صبيٌّ في هذه السن منصباً دينياً وسياسياً كالخطابة ، في ظل دولة أميرها سيف الدولة ، ليحث الناس على نصرته والجهاد في سبيل الله ،

---

(١) الوافي بالوفيات ٣٩٠/١٨ ، والفقرة من الديوان ، ص ٦٣ .

* في معجز أحمد ٥٤٣/٣ قال أبو الطيب يمدح سيف الدولة بحلب سنة ٣٤٥هـ وهي آخر قصيدة قالها عند سيف الدولة :

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم ماذا يزيدك في إقدامك القسم ؟

(٢) انظر وفيات الأعيان ١٥٦/٣ . المختصر ، المجلد الأول ١٢٤/٢ . تاريخ الإسلام ٥٥٩/٢٦ . سير أعلام النبلاء ٣٢٢/١٦ . تتمة المختصر ٤٦٠/١ . الوافي بالوفيات ٣٨٨/١٨ . مرآة الجنان ٤٠٣/٢ . شذرات الذهب ٣٩٨/٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مع أن بلاط سيف الدولة قد حوى صفوة المبدعين من أهل العلم والفنون في ذلك العصر ؟ ناهيك عن أن يأتي بهذا المستوى الذي أدهش المتنبي وغيره ممن كانوا تحت منبره في مثل هذه السن أيضاً .

هذا ما رفضه الذهبي ، ويرفضه الباحث ، لأن هذا المنصب - الخطابة - الذي هو من أجلّ الوظائف الدينية وأعلاها رتبة ، لا يُرتاد له من الفضلاء في مثل بلاط سيف الدولة وعصره ، إلا من تمتّع بعدد من الميزات الذهنية والجسمية والأخلاقية الضرورية لإقناع الناس الذين يستمعون إليه والتأثير فيهم ، ومن أبسطِ ما تقتضيه هذه الميزات في صاحبها أن يكون بالغاً مميِّزاً ، وهذا أبعد ما يكون عن ابن نباتة إذا قلنا إن مولده سنة ٣٣٥هـ .

ومن هنا نعلم دقة الذهبي وصواب رأيه في تخطئته تأريخ مولد الخطيب سنة ٣٣٥هـ بعلة أنه كان عند تصنيف خطبه سنة ٣٥١هـ خطيباً مميِّزاً .

ولأن الذهبي قد انفرد برفضه تأريخ ابن الأزرق مولد الخطيب سنة ٣٣٥هـ ، فإن من الظلم وعدم الإنصاف اتهام الشيخ طاهر الجزائري إياه أنه غير مجرب ، وذلك عندما قال في الرد على من أنكر صحة ذلك : «وتفوُّق بعض الأفراد منذ أوائل العمر ، أمرٌ لا ينكره إلا كل غُمْر» [1] .

ولعمري إن كان مثل الذهبي الحافظ المحدث المؤرخ غير مجرب، فمن عساه يكون مجرباً ؟

ولئن أنكر الذهبي مولد الخطيب سنة ٣٣٥هـ حتى يتولى منصب الخطابة سنة ٣٥١هـ أو ما قبلها ، وهي حُجة يراها الباحث منطقيّة ، حتى إن أحداً لم يفندها ، فإنه لم يُنكر تفوق الخطيب منذ الصغر ، بل إنه لم يتعرض لذلك . فلماذا يكتفي الشيخ طاهر الجزائري - على فضله وعلمه- بتوجيه الاتهام إلى الذهبي بدل أن يُفند رأيه ؟ ولم يعكف عن عرض أدلته بدل القول : إن بيان أسباب ذلك

---

(١) ديوان خطب ابن نباتة بشرح طاهر الجزائري : المقدمة صفحة ١١ . وفي لسان العرب ٣١/٥ ، ٣٢ : صبيٌّ غُمرٌ وغَمرٌ وغَمَرٌ وغَمِرٌ ومُغَمَّر : لم يُجرب الأمور . وانظر مادة غمر في المعاجم التالية : مقاييس اللغة ٣٩٣/٤ . مجمل اللغة ٩٨٥/٣ . المحكم ٣٠٦/٥ . أساس البلاغة ٤٥٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يحتاج إلى بسط يضيق عنه المقام [١] ؟

إن المدقق في ترجمة الخطيب عند أغلبية المؤرخين الذين أجمعوا على أن مولده سنة ٣٣٥هـ ممن تقدموا الذهبي أو تأخروا عنه يجد أنهم نقلوا عبارات ابن خلكان وسلّموا بها .

وإذا كان ابن خلكان قد نقل عن ابن الأزرق كما عرفنا ، فإن مناقشة صحة رأي الأغلبية لا تعدو أن تكون مناقشة لصحة ما أورده ابن الأزرق نفسه ، لأنه قد انفرد بتحديد هذا التاريخ دون غيره ، فكيف نجزم بصحة ما ذكره ابن الأزرق في ضوء الحجة المنطقية التي قدمها الذهبي ، لا سيما أن أحداً لم يُفندها ؟

ثم إن الدقة في تحديد ولادة شخص ما لا تكون بالقدر الذي تكون عليه في تحديد وفاته مثلاً ، إذ إن الشخص لا يكون عند ولادته مشهوراً ، وربما لا يعرف المرء نفسه متى كان مولده .

وأرى - بعد كل هذا - أن الحق فيما رآه الذهبي مِن أنّ مولد الخطيب كان قبل سنة ٣٣٥هـ ، واستناداً إلى التقدير الذي ذكره الذهبي عند تعرضه لهذه القضية ، فإنني أُرجح أن يكون مولد الخطيب في أوائل العقد الثالث من القرن الرابع الهجري .

نسبُه :

تعددت نِسبُ الخطيب إلى أصله وقبيلته فقيل : الحُذاقِيُّ [٢] ، والجُذاميُّ [٣] ، واللخميُّ [٤] ، والتميميّ [٥] . فأما النسبة الصحيحة منها فهي الحذاقِيُّ بضمّ الحاء

---

(١) ديوان خطب ابن نباتة بشرح طاهر الجزائري : المقدمة صفة ١١ .

(٢) وفيات الأعيان ١٥٦/٣ . الوافي بالوفيات ٣٨٨/١٨ وعلى ذلك أغلب المراجع الحديثة .

(٣) النجوم الزاهرة ٩٥/١١ . حسن المحاضرة ٢٤٥/١ . تاج العروس ١١٦/٥ . معجم المؤلفين ٢٧٣/١١ . وانظر أمير شعراء المشرق ٩٨-١٠٠ .

(٤) مرآة الجنان ٤٠٣/٢ . شذرات الذهب ٣٩٧/٤ .

(٥) مسالك الأبصار ٢٦٥/١٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المهملة وفتح الذال المعجمة بعدهما الألف وفي آخرها القاف * وهي نسبة إلى حذاقة بطن من إياد ، وهو حذاقة بن زُهر بن إياد بن نزار بن معدّ كما ذكر النسابون وأصحاب المعاجم اللغوية [١] .

واختلط الأمر على السمعاني حين عدّ حذاقة من قضاعة [٢] ، وعليه علق ابن الأثير تحت نسب الحذاقي بالقول : «لم يأت السمعاني بشيء لأنه نسَبَهُمْ إلى أمّهم، ولم يذكر أحداً ممن يُنسب إلى حذاقة ، وهو حذاقة بن زهر بن إياد بن نزار بن معدّ يُنسبُ إليه خلق كثير ..... وقد جعل السمعاني حذاقة من قضاعة ، وليس كذلك ، وإنما حذاقة من إياد وإياد من معد ، وجعل أيضاً حذاقة أبا إياد وإنما هو ابن زهر ابن إياد . والله أعلم» [٣] ، وفيما عدّ الصفدي حذاقة من قضاعة ، فقد ذكر ابن خلكان وابن كثير في ذلك قولين ؛ الأول : إنها من قضاعة والثاني إنها من إياد [٤] .

وأما الجذامي نسبة إلى جُذام ، فقد وردت عند بعض المتأخرين كابن تغري بردي المتوفي ٨٧٤هـ والسيوطي المتوفى ٩١١هـ والمرتضى الزبيدي المتوفى ١٢٠٥هـ في حديثهم عن الشاعر ابن نباتة المصري المتوفى ٧٦٨هـ الذي هو من نسل الخطيب [٥] .

وقد ارتضى د. عمر باشا هذه النسبة للشاعر وجده الخطيب ، بغلة أن جبال حَسْمى التي وقع الاختلاف في تحديد موقعها بين الشمال والجنوب من بلاد الشام ، والتي سكنتها قبيلة جذام ، ذكرها كُتاب السيرة النبوية في أخبار نوح بقولهم : إنها جبل مشرف على حران قرب الجودي ، وعدّ أنّ في قولهم هذا إن صح -على حدّ

---

* الأنساب ١٩٢/٢ ، اللباب ٢٨٦/١ . وفيات الأعيان ١٥٨/٣ .

(١) جمهرة النسب ٦٠٥ . نسب معدّ ١٢٢/١ . الإيناس ١٢٧ . مختلف القبائل ومؤتلفها ٣٦١ . جمهرة انساب العرب ٣٢٧ . الشعر والشعراء ٢٤٣١ . وانظر مادة حذق في المعاجم اللغوية ديوان الأدب ٤٤٤/١ . الاشتقاق ١٦٩ . لسان العرب ٤١/١٠ . القاموس المحيط ١١٢٧ .

(٢) الأنساب ١٩٢/٢ .

(٣) اللباب ٢٨٦/١ ، ٢٨٧ .

(٤) وفيات الأعيان ١٥٨/٣ ، البداية والنهاية ٣٠٣/١١ .

(٥) انظر تاج العروس ١١٦/٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تعبيره- خير دليلٍ على أنّ قبيلة جذام أقامت في المنطقة المجاورة لميافارقين بلد الخطيب [١] . ومع أن د. عمر باشا أقرّ بصحة ما أورده النسابون من أن الحذاقي نسبة إلى حذاقة وهي بطن من إياد إلا أنه استبعد أن يكون الخطيب من بني حذاقة، ورأى أنّ هذه النسبة إن صحت فليست في حقيقة الأمر إلا صفة للخطيب معناها الفصيح اللسان البين اللهجة كما في لسان العرب [٢] .

ويرى الباحث أن نسبه الجذامي إلى ابن نباتة الشاعر وبالتالي جده الخطيب نسبة خاطئة ، نتجت عن التصحيف في كلمة الحُذاقي ، ومن هنا وقعت عند بعض المتأخرين دون غيرهم ، فمعاصري الشاعر وهما : الصفدي المتوفى ٧٦٨هـ وابن رافع السلامي المتوفى ٧٧٤هـ ، ومن كان أقرب إلى العهد به كابن العراقي المتوفى ٨٢٦هـ وابن حجة الحموي المتوفى ٨٣٧هـ ، قد أكدوا في ترجمتهم له أنه حُذاقي [٣] .

كما أنّ ابن الفوطي المتوفى ٧٢٣هـ قد نسب القاضي أبا القاسم يحيى بن طاهر بن نباتة وهو أحد أحفاد الخطيب إلى حذاقة [٤] ، وفي هذا كلّه تأكيد وإقرار لما أورده ابن خلكان من قبلُ أن الخطيب حُذاقيّ ، نسبة إلى قبيلة حذاقة .

وإذا علمنا أنّ الجزيرة الفراتية وأطراف الشام وبلاد الروم كانت منازل إياد التي من بطونها حذاقة [٥] ، وأنّ مصر وبادية الشام كانت منازل جُذام [٦] ، مع إدراكنا أن ميافارقين أقرب إلى الجزيرة الفراتية وبلاد الروم منها إلى بادية الشام ، فعندها يترجح أن نسبة الخطيب وحفيده الشاعر ينبغي أن تكون إلى حذاقة لا إلى جذام ، دون الاعتماد على احتمال صحة ما ورد في بعض كتب السيرة

---

(١) أمير شعراء المشرق ابن نباتة المصري ٩٩ .

(٢) نفسه ٩٨-١٠٠ .

(٣) الوافي بالوفيات ٣١١/١ ، ١٨/ ٣٨٨ . الوفيات ٣١١/٢ . ذيل العبر ٢٢٠/١. خزانة الأدب وغاية الأرب ٢٩٣. وانظر وفيات الأعيان ١٥٦/٣ ، ١٥٨ . وجاء في بدائع الزهور لابن إياس الحنفي المتوفى سنة ٩٣٠هـ في ترجمته للشاعر ٦٢/١ هكذا «الخُمداقي» وهي أقرب إلى الحُذاقي منها إلى الجذامي .

(٤) تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب ٢٨٢/٣ .

(٥) دائرة المعارف الإسلامية . مادة إياد ٢٥٣/٥، ٢٥٦ . معجم قبائل العرب ٥٢/١-٥٥ .

(٦) معجم قبائل العرب ١٧٤/١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النبوية في أخبار سيدنا نوح -عليه السلام- فيما يتعلق بجبال حسمى التي وقع الاختلاف في تحديد موقعها .

وأمّا أنّ الحُذاقيّ صفة للخطيب - مع أنها تصدق عليه تماماً - فهي مما انفرد به د. عمر باشا دون غيره من المتقدمين الذين ذكروا أنها نسبة إلى قبيلة حذاقة .

وأما اللخمي نسبة إلى لخم ، والتميمي نسبة إلى تميم ، فهما نسبتان خاطئتان ، وربما جاءت الثانية عن خلط بين الشاعر ابن نباتة السعدي التميمي والخطيب الفارقي ، فهما متعاصران ، وكلاهما خدم سيف الدولة .

يظهر مما سبق أنّ الخطيب عربيٌّ من قبيلة حذاقة ، وهي بطن من إياد من العدنانيين الذين هاجروا وسكنوا ميافارقين ، وما حولها من الجزيرة الفراتية وأطراف الشام وبلاد الروم ، واستقروا بها .

القابه:

وجدت أن ألقاب الخطيب قد تنوعت وتعددت ، ولذلك جعلتها في مجموعات على النحو التالي :

المجموعة الأولى : ما يتعلق من الألقاب باسم الخطيب ونسبه وموطنه ، وهي :

١ - النُّبَاتيّ[١] : بضم النون وفتح الباء المنقوطة بواحدة وفي آخرها التاء المنقوطة باثنتين من فوقها ، وهذه النسبة إلى نُباتة جدّه الأكبر ، وأخطأ من قال النُّباتيُّ[٢] بفتح النون .

٢ - الحُذَاقِيّ ، والجُذاميُّ ، واللخميُّ ، والتميميّ ، وهي نسب إلى أصله وقبيلته ، وقد بيّنت أنّ الصحيح منها هو الحُذاقِيُّ ، نسبة إلى قبيلة حُذاقة العدنانية .

٣ - الفارقيُّ[٣] : نسبة إلى الموطن الذي كان فيه مولده وموته وهو ميافارقين ،

---

(١) اللباب ٢١١/٣ .

(٢) تاج العروس ١١٦/٥ .

(٣) ذكر هذه النسبة أغلب المصادر والمراجع التي ترجمت له ، انظر ص في حاشية رقم (١) ، وقد ذكر السمعاني في الأنساب ٤٢٤/٥ أنه قد يُنسب إلى ميافارقين هكذا : الميافارقي ، والمافرقي ، والميافارقيني .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولذلك أخطأ من نسبه إليها بالقول «الفاروقي» [١] أو نسبه إلى غيرها بقوله «العسقلاني المولد» [٢] أو «المصريّ الدار» [٣] .

المجموعة الثانية : ما يتعلق منها بشهرته وعمله وديوانه ، وهي :

١ - نُسِب إلى طبيعة عمله ، فقيل : الخطيب [٤] ، وخطيب الخطباء [٥] ، ويلحق بذلك قولهم : سيد الخطباء ، وخطيب زمانه ، والخطيب المشهور [٦] .

٢ - نُسب إلى مكان عمله ، فقيل : خطيب حلب [٧] ، والتبس على بعضهم فقال الخطيب المصري [٨] ، وهو خلط بين الخطيب وحفيده الشاعر المصري الذي كان له ديوان خطب أيضاً [٩] .

٣ - نُسب إلى خطبه والديوان الذي جمعت فيه ، فقيل : صاحب الخطب ، وصاحب ديوان الخطب ، وصاحب الديوان الفائق في الحمد والوعظ ، وصاحب الخطب المشهورة ، ومُصنف الخطب المشهورة ، وصاحب الديوان المشهور ، وصاحب الخطب المنبرية [١٠] .

---

(١) ديوان الإسلام ٣٤٠/٤ ، معجم المؤلفين ٢١١/٥ ، ولم ترد النسبة إلى ميافارقين هكذا ولا تصح .

(٢) مرآة الجنان ٤٠٣/٢ . شذرات الذهب ٣٩٧/٤ .

(٣) نفسيهما .

(٤) وفيات الأعيان ١٥٦/٣ . سير أعلام النبلاء ٣٢١/١٦ . الوافي بالوفيات ٣٨٨/١٨ .

(٥) الأعلاق الخطيرة ٣٠٢ . المختصر ، المجلد الأول ١٢٤/٢ . تتمة المختصر ٤٦٠/١ . العبر ١٤٣ . دول الإسلام١٧٩/١ . مرآة الجنان ٤٠٣/٢ . مسالك الأبصار ٢٦٥/١٣ . خزانة الأدب وغاية الأرب ٢٠ . شذرات الذهب ٣٩٧/٤ . أخبار الدول وآثار الأول ٤٣٦/٢ .

(٦) سير أعلام النبلاء ٣٢١/١٦ ، ١٧٦/٢٠ . تاريخ الإسلام ٥٥٩/٢٦ .

(٧) وفيات الأعيان ١٥٦/٣ . البداية والنهاية ٣٠٣/١١ . دول الإسلام ١٧٩/١ .

(٨) الكنى والألقاب ٤٣٦/١ . سفينة البحار ٥٦٦/٢ . دائرة المعارف (بطرس البستاني) ٧١٧/١ .

(٩) طبع ديوانه في الخطب الجمعية مرتين سنة ١٣٠٢هـ و١٣٠٤هـ . انظر معجم المطبوعات العربية والمعربة ٢٦٣ .

(١٠) انظر مثلاً سير أعلام النبلاء ٣٢١/١٦ . تاريخ الإسلام ٥٥٩/٢٦ . ديوان الإسلام ٣٤٠/٤ . أبجد العلوم ٧٩/٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المجموعة الثالثة : ما يتعلق منها بمذهبه :

١ - الشافعي [١] .

٢ - الشيعي [٢] .

المجموعة الرابعة : وتضم ألقاباً أخر مثل :

١ - الشيخ : ذكره ضياء الدين ابن الأثير عدة مرات منها قوله في باب الترصيع: وقد ورد هذا القسم كثيراً في الخطب التي أنشأها الشيخ الخطيب عبد الرحيم بن نباتة [٣] .

وهو لقب من ألقاب العلماء والصلحاء يُطلق عليهم توقيراً لهم كما يوقر الشيخ الكبير [٤] .

٢ - الحَذّاء : أورده ابن كثير في ترجمته للخطيب [٥] ، وقد جاء في المعاجم اللغوية أن القصيدة الحذّاء هي السائرة التي لا عيب فيها ، ولا يتعلق بها شيء من القصائد لجودتها [٦]، فلعلّ هذا اللقب قيس على ما سبق ، فقيل : الخطبة الحذّاء ، والخطيب الحذّاء .

٣ - المفنّن : ذكره ابن الغزّي في ترجمته للخطيب [٧] ، ويقصد منه أن الخطيب صاحب فنون يأتي فيها بالعجائب .

---

(١) ديوان الإسلام ٣٤٠/٤ .

(٢) مقتبس الأثر ١١٤/٢١ ، وانظر الكنى والألقاب ٤٣٦/١ .

(٣) الجامع الكبير ٢٦٤ . وانظر ٢٣٤ . وكذلك المثل السائر ٢٧٣/١ ، ٣٩٩ .

(٤) صبح الأعشى ١٧/٦ . كما يأتي في الدرجة الخامسة من ألقاب مشايخ الصوفية وأهل الصلاح . نفسه ١٥٧/٦ .

(٥) البداية والنهاية ٣٠٣/١١ .

(٦) انظر المعاجم اللغوية:مجمل اللغة المجلد الأول ٢١١/١ . أساس البلاغة ١١٧ . المحكم ٣٥٩/٢ ، القاموس المحيط ٤٢٤ . لسان العرب ٤٨٤/٣ .

(٧) ديوان الإسلام ٣٤٠/٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤ - وهناك عدة ألقاب ذكرها الذهبي وآخرون مثل : الأستاذ ، والإمام ، والأوحد ، والبارع ، والبليغ [١] ، وهي مما يدلُّ على تقدُّم الخطيب ونهوضه بفن الخطابة ، ومكانته بوصفه واحداً من أكابر العلماء الذين يُقتدى بهم [٢] .

٥ - الإمام [٣] : وهو من ألقاب أكابر العلماء والمراد منه أنه يُقتدى به [٤] ، وكان أكثر المترجمين للخطيب قد وصفوه بالإمامة في علوم الأدب .

موطنه وعصرُه :

لن يقتصر الحديث عن موطن الخطيب على التعريف به من حيث موقعه وبيئته المحيطة به ، إذ سأحاول الربط بينه وما جرى عليه من أحداث وتغيرات أثرت في تشكيل الواقع الذي عاشه الناس فيه . وبما أنّ الخطيب ابن ميافارقين مولداً ووفاة ، فقد تطلب ذلك الحديث عن موقعها ، وبيئتها ومكانتها وأهلها وولاتها وتاريخها ، ولأنّ أغلب حياة الخطيب امتدت في ظل الحمدانيين ، فإنني سأذكر أهم الأحداث والتغيرات التي جرت في مناطق نفوذهم ، بهدف تلمس أثر الواقع الذي عاشه الخطيب بوصفه فرداً من أفراد ذلك المجتمع ، لا سيما أن ميافارقين ظلت جزءاً غالياً عند أمراء الحمدانيين ونوابهم بدءاً بسيف الدولة سنة ٣٢٣هـ وانتهاءً بأبي تغلب بن ناصر الدولة سنة ٣٦٩هـ ، لما لقيته من عناية واهتمام .

وميافارقين مدينة كبيرة حسنة خصيبة عامرة كثيرة الخير ، تحفّها الفواكه

---

(١) تاريخ الإسلام ٤٦٩/٢٦ . سير أعلام النبلاء ٣٢١/١٦ . وانظر الوافي بالوفيات ٣٨٨/١٨ . وديوان الإسلام ٣٤٠/٤ .

(٢) صبح الأعشى ٨/٦ ، ٩ .

(٣) تاريخ إربل : ٨٦/١ ، وفيه ذكر محمد بن علي الحلي العراقي الواعظ هذا اللقب في سلسلة سماعه لديوان الخطيب من نسخة مؤرخة سنة ٥٥٩هـ فيها إجازته لأبي علي عتيق بن علوي المتوفى سنة ٥٧٥هـ بروايتها عنه .

(٤) صبح الأعشى : ٨/٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والأشجار والأنهار ، وعليها سور من حجارة وفصيل [١] وخندق عظيم ، مصطكة العمارة ، ضيقة الأسواق ، وفي هوائها وخامة ، وتقع في حضيض جبل شرقي دجلة من جهة الشمال [٢] .

ولما كان نهر دجلة يُشكل حدّ الجزيرة الفراتية عدّها جماعة من أرمينية ، فيما عدها آخرون من الجزيرة الفراتية [٣] . وكان شربُ أهلها من الآبار من ماء المطر أو من النهر عند وصوله السور حتى عمل سيف الدولة أول قناة للماء ساقة فيها من العين التي بالربض إلى داخل المدينة [٤] .

وفي سورها عدّة أبرجة وله ثمانية أبواب ، وفصيلها فيه عدة أبواب صغار ، وأما خندقها فجميعه برك فُصِل بينها بمقاطع [٥] .

وبها بيعة من عهد المسيح ، وكنيسة لليهود في المحلة المعروفة بزقاق اليهود ، وعدة مساجد منها المسجد الجامع [٦] ، وبالقرب منها على قمم الجبال أديرة عامرة يؤمها الناس كدير توما ودير عباد ، يجتمعون إليها في أعيادهم حاملين نذورهم ، وهي أديرة معمورة بالرهبان تُسمى الحصون لمنعتها [٧] .

ويدلّ موقع المدينة وارتفاعها [٨] على أنها كانت تشهد نشاطاً تجارياً جيداً

(١) الفصيل : حائط قصير دون سور المدينة مادة (فصل) في المعاجم اللغوية . مجمل اللغة ٧٢٢/٢ . ديوان الأدب ٤٢٠/١ . لسان العرب ٥٢٣/١١ . القاموس المحيط ١٣٤٧ .

(٢) صورة الأرض ٢٠٢ . نزهة المشتاق ٦٦٣/٢ ، ٨٢٠ . تقويم البلدان ٢٧٦ .

(٣) ذكرها ضمن أرمينية : المسالك والممالك ١١١ ، نزهة المشتاق ٦٦٣/٢ ، ٨٢٠ . وعدها من الجزيرة : فتوح البلدان ١٧٩ ، كتاب البلدان ١٣٥ ، كتاب الخراج ١٧٦ ، ٣١٣ ، الأعلاق الخطيرة ٢٤٦ ، الأعلاق النفيسة ١٠٦، صورة الأرض ٢٠٢ ، تقويم البلدان ٢٧٨ ، معجم البلدان ٢٣٥/٥ ، آثار البلاد وأخبار العباد ٥٦٥ .

(٤) الأعلاق الخطيرة ٢٧٠ ، ٣١٠ ، نخبة تاريخية وأدبية (كانار) ٢١٠ من ابن الأزرق .

(٥) الأعلاق الخطيرة ٢٧٦ .

(٦) قال ابن شداد بعد أن ذكر زيارته لها : وبها ما ينهز على مائتي مسجد ، وكان أحمد بن عيسى قد بنى منارة المسجد الجامع سنة ٢٧٣هـ . انظر الأعلاق الخطيرة ٢٦٠ ، ٢٧٧.

(٧) معجم البلدان ٥٣٤/٢ . الأعلاق الخطيرة ٢٧٦ . آثار البلاد ٣٧٢ .

(٨) الارتفاع يعني معدل الريع وفق الأسعار السائدة ، انظر مفاتيح العلوم ، الخوارزمي ٤٠ . وذكر قدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣٣٧هـ وقيل سنة ٣٢٨هـ أن ارتفاع أرزن وميافارقين وحدهما كان أربعة آلاف ألف ومائتا ألف درهم . كتاب الخراج : ١٧٦ ، ١٨٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مصالحها ليحصنها ، فَرَمَّ ما تشعَّث من سورها ، وعَمَّرَ بها مواطن كثيرة ، وأمر بكسر المشط الذي على الباب الوسطاني والزيادة فيه ، وكان على الفصيل باب واهن ضعيف فأمر بكسره والزيادة فيه ثم رُكب مكانه [١] .

واشتغل بغزو الروم ، فكان له معهم وقعات تملك بعدها أرمينية وما جاور ديار بكر [٢] ، وظلت ميافارقين في أمان حتى انشغل سيف الدولة بفتنة البريدي في بغداد سنة ٣٣٠هـ ، فداهمتها الروم سنة ٣٣١هـ فقتلوا وسبوا [٣] .

ثم تملك سيف الدولة حلب في سنة ٣٣٣هـ ، وأخذ بتثبيت ملكه ، وغزو الروم ، وقمْع ثورات الأعراب والقرامطة وألحق بالروم ضربات شديدة حتى طلبوا الهدنة سنة ٣٤٤هـ [٤] ، ثم ما لبثوا سنة ٣٤٥هـ أن هاجموا ميافارقين وما حولها انتقاماً لما كان قد فعله بهم فأحرقوا سوادها، وقتلوا أهل الضياع ، وخربوا ، ونهبوا [٥] .

وفي سنتي ٣٤٧هـ و ٣٤٨هـ خرجت الروم إلى آمد وميافارقين ففتحوا حصوناً كثيرة، وقتلوا، وهدموا سميساط ، ثم كروا إلى ديار بكر ووصلوا ميافارقين بعد أن فتحوا حصن الهارونية وخربوا وقتلوا من أهل طرسوس [٦] .

وفي سنة ٣٥٠هـ دخل نجا -غلام سيف الدولة ومقدم جيشه- بلاد الروم من ناحية ميافارقين ، فغنم وسبى وأسَرَ ، ورجع سالماً [٧] .

---

(١) الأعلاق الخطيرة ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٠١ . نخبة تاريخية وأدبية (كانار) ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

(٢) الأعلاق الخطيرة ٢٤ .

(٣) تاريخ ٤١ ، ٤٤ . المنتظم ٢٦/١٤ ، تاريخ الإسلام ٥/٢٥ . البداية والنهاية ٢٠٥/١١ .

(٤) أخبار الدولة الحمدانية ٣٥ . وفي ذلك قال المتنبي يمدح سيف الدولة :
أراعَ كذا كُلُّ الأنامِ هِمامُ وسحَّ له رُسلُ الملوكِ غمامُ !! معجز أحمد ٤٣٦/٣ .

(٥) مرآة الزمان ٩٥ ، المنتظم ١٠٢/١٤ ، الكامل ٢٥٧/٧ البداية والنهاية ٢٣٠/١١ .

(٦) تاريخ الأنطاكي ٨٨ ، ٩١ ، ٩٢ . مرآة الزمان ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٠٤ . الأعلاق الخطيرة ٣٠٥ ، تاريخ الإسلام ٢٢٩/٢٥ ، ٢٢٥ . النجوم الزاهرة ٣٢٢/٣ .

(٧) المنتظم ١٣٩/١٤ . الكامل ٢٧٠/٧ . تاريخ الإسلام ٢٣٥/٢٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي سنة ٣٥١هـ فتح الروم حلب عاصمة ملك سيف الدولة بعد هجوم مفاجيء ، فقتلوا أهلها إلا من اعتصم منهم بالقلعة ، وحرقوا ، ونهبوا ، وسبوا ، وفعلوا الأفاعيل الشنيعة [١] ، ومنذ ذلك الحين ازداد اهتمام سيف الدولة بميافارقين ، حيث شرع سنة ٣٥٢هـ بحفر الخندق حول سورها [٢] ، وفيها ولى ابنه أبا المكارم نيابتها ثم من بعده لابنه أبي المعالي سنة ٣٥٤هـ [٣] ، وساق الماء إلى داخل البلد بعد أن كان شرب أهلها من الآبار ، وبنى القصر العتيق داخل البلد وأحسن عمارته وسكن فيه ، واجتمع عنده من أهله خلق كثير حتى قيل إن امرأة من بني حمدان اطّلعت يوماً من القصر العتيق على الميدان ، فرأت من أهلها عشرين ألف فارس ، هذا سوى من كان منهم عند ناصر الدولة بالموصل ومن أقام منهم بالشام [٤] .

وصارت ميافارقين مقبرة آل حمدان وأتباعهم ، إذ نقل إليها سيفُ الدولة تابوت أخته ست الناس خولة سنة ٣٥٢ هـ من حلب [٥] ، ودَفَن بها مقدم جيشه غلامه نجا سنة ٣٥٤هـ [٦] ، وفيها قبر والدته وابنه أبي الهيجاء عبد الله [٧] ،

---

(١) الديوان ١٩١.١٩٨ . تاريخ الأنطاكي ٩٧-٩٩ . تكملة تاريخ الطبري ١٨١/١ ، ١٨٢ ، تاريخ الإسلام ٨٠٧/٢٦. البداية والنهاية ٢٣٩/١١، ٢٤٠ .

(٢) انظر الديوان ١٩٩-٢٠٢ .

(٣) نفسه ٢٧٩ -٢٨٠ ، ١٢٥-١٢٩ .

(٤) الأعلاق الخطيرة ٣١٠ ، ٣١١ .

(٥) الديوان ٣٥ -٣٩ ، مرآة الزمان ١٣١ ، تاريخ الإسلام ١٢/١٦ . وهي أخت سيف الدولة الكبرى التي رثاها المتنبي بقوله :

يا أخت خير أخٍ يا بنت خير أبٍ

كناية بهما عن أشرف النسب . معجز أحمد ٦٢٥/٣ .

(٦) مرآة الزمان ١٣٢ . الأعلاق الخطيرة ٣٠٨ .

(٧) أخبار الدولة الحمدانية ٣٢ . الأعلاق الخطيرة ٣٠١ . توفيت والدته سنة ٣٣٧هـ بميافارقين فرثاها المتنبي بقوله :

تُعَدُّ المشرفيّه والعوالي وتقتلنا المنون بلا قتال . معجز أحمد ٣٩/٣ .

وتوفي ابنه سنة ٣٣٨هـ بميافارقين فرثاه المتنبي بقوله :

بنا منك فوق الرمل ما بك في الرمل وهذا الذي يضنى كذاك الذي يبلي . معجز أحمد ٨٥/٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأخيراً كان بها مثواه الأخير إذ نُقل تابوته إليها من حلب سنة ٣٥٦هـ [١] .

وكان لسيف الدولة مع الروم نحو من أربعين وقعة له وعليه [٢] ، وبموته انقطع ما كان معهوداً من أمر الجهاد ، وقويت شوكة الروم ، فصاروا يدخلون الشام متى شاؤوا دون أن يمنعهم أحد ، وأصبحت لهم الهيبة في قلوب المسلمين .

وظلت ميافارقين بأيدي الأمراء الحمدانيين وأتباعهم ، مع أن المدة اللاحقة لسيف الدولة شهدت صراعاً عنيفاً بينهم على الملك وتناحراً شديداً في الشام والجزيرة ، كالذي حدث بين أبناء ناصر الدولة مع أبيهم إذ سجنوه حتى وفاته ، ثم بينهم أنفسهم إذ تفرقت كلمتهم واقتتلوا [٣] ، إضافة إلى مقتل أبي فراس الحارث ابن سعيد بن حمدان بعد خلافه مع ابن أخته أبي المعالي ابن سيف الدولة [٤] ، وما جرى بين أبي المعالي وبين قرغويه - غلام أبيه - على حلب وسلطتها [٥] .

ويحاول أبو البركات بن ناصر الدولة الاستيلاء على ميافارقين من يد زوجة عمه سيف الدولة ونائبه ابنها أبي المعالي ، ولكنها تدبر أمرها وتصرفه [٦] ، وكان ملك الروم قد دخل الشام سنة ٣٥٨هـ فلم يمنعه أحد ، وأقام بها شهرين يقصد أي موضع شاء مخرباً ، ولما عاد إلى بلاده أخذ معه من السبي ما لا يُحصى من الصبيان والصبايا ، وسيَّر سرية إلى الجزيرة فسبوا وأحرقوا وعادوا [٧] ، ولما ورد الخبر بقصد الروم ديار بكر خافت زوجة سيف الدولة أن لا تفي بضبط الأمور فتبرأت من المسؤولية، ودبر أهل البلد أمرهم، فراسلوا أبا تغلب بن ناصر الدولة،

---

(١) تاريخ الأنطاكي ١١٧ . الأعلاق الخطيرة ٣١٥ . تاريخ الإسلام ٢٧/٢٦ .

(٢) تكملة تاريخ الطبري ١٩٧/١ . أخبار الدولة الحمدانية ٢٤ . نهاية الأرب ١٣٦/٢٦ ، ١٣٧ .

(٣) تجارب الأمم ٢٣٨/٢ ، ٢٣٩ . أخبار الدولة الحمدانية ١٩ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٨ ، ٤٩ . الأعلاق الخطيرة ٣١٧-٣٢٤ . الكامل ٣١٤/٧ . تاريخ الإسلام ٢٨/٢٦ .

(٤) أخبار الدولة الحمدانية ٤٨ . تاريخ الإسلام ٣١/١٦ . نهاية الأرب ١٥٠/٢٦ .

(٥) تاريخ الأنطاكي ١٢٨ ، ١٣٣ . مرآة الزمان ١٥٦ . أخبار الدولة الحمدانية ٤٨-٥٠ . الأعلاق الخطيرة ٣١٦-٣٢٤ . الكامل ٣١٤/٧ . نهاية الأرب ١٥٠/٢٦-١٥٢ .

(٦) أخبار الدولة الحمدانية ٤٨ . الكامل ٣١٥/٧ . نهاية الأرب ١٥١/٢٦ .

(٧) مرآة الزمان ١٥٨ . الكامل ٣١٣/٧ . تاريخ الإسلام ٤٣/٢٦ . نهاية الأرب ١٩٦/٢٣ ، ١٩٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فسير إليهم والياً [١] ، وظلت ميافارقين بيد أبي تغلب حتى سنة ٣٦٩هـ ، إذ تملكها أبو الوفاء طاهر بن محمد على رأس الجيش الذي سيّره عضد الدولة البويهي للقبض عليه [٢] .

وبعد ذلك انتقلت إلى يد باد الكردي من سنة ٣٧٣هـ وحتى سنة ٣٨٠هـ [٣] .

نشأته :

إن تتبع نشأة الخطيب ومعرفة سيرته الذاتية أمر يصعب رسم صورة واضحة له ، وذلك لندرة أخباره في المصادر التي ترجمت له ، وعدم تعرضها لذكر تفصيلات حياته ومراحلها .

ومما يزيد الأمر صعوبة أن خطبه في الديوان - وهو الأثر الوحيد الذي تركه - بعيدة عن ذكر الخصوصيات ، ولذا فإنني سأعتمد في محاولتي رسم الخطوط العريضة لسيرته بالربط بين ما استقرأته عن أحداث القرن الرابع الهجري وظروفه - بوصفه العصر الذي عاش فيه الخطيب - ما جاء في ديوانه ، وما ذكرته المصادر التي ترجمت له .

ولد ابن نباتة بميافارقين لأسرة عربية من قبيلة حذاقة العدنانية في أوائل العقد الثالث من القرن الرابع الهجري - على ما رأيت - ، وهي المدة التي سُلمت فيها ميافارقين مع ديار بكر إلى سيف الدولة [٤] ، وأخذت تشهد أماناً أكثر من ذي قبل .

وفي بلدته ترعرع ، وأخذ يتلقى علومه الأساسية - الدينية واللسانية - في كتاتيبها ، وكان يختلف مع أقرانه إلى حلقات العلم المتعددة التي كانت تنعقد في مسجدها الجامع ، وغيره من المساجد كما هو الحال في المدن الإسلامية آنذاك .

(١) أخبار الدولة الحمدانية ٤٩ .

(٢) تجارب الأمم ٣٨٩/٢ . أخبار الدولة الحمدانية ٤٥ . الأعلاق الخطيرة ٣٢٤ . وفي الكامل أحداث سنة ٣٦٨هـ ٣٨١/٧ .

(٣) الأعلاق الخطيرة ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

(٤) الأعلاق الخطيرة ٣٠٠ . أخبار الدولة الحمدانية ٢٣ ، ٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم يزل يتأمل منذ صغره ما يقوم به أهل بلدته وأهل الثغور ، ومن عاضدهم من المجاهدين القادمين من شتى بقاع العالم الإسلامي للذود عن حياض الإسلام وجهاد الروم تحت قيادة سيف الدولة أو نوابه ، وربما كان والده أحد هؤلاء المجاهدين بميافارقين وغيرها ، وهذا أغلب الظن في أقاربه الذين يقطنون بلدة تتعرض لغزو الروم باستمرار .

ولما انشغل سيف الدولة بفتنة بغداد ، هاجمت جيوش الروم سنة ٣٣١هـ ميافارقين وغيرها [١] ، فسمع الخطيب ورأى أفاعيلهم من قتل ، وسبي ، ونهب ، وتخريب ، فكان لمثل هذه الأحداث أثر كبير في توجيهه منذ الصغر إلى تشكيل نظرة واضحة لمفهوم الحياة والموت ، وأدرك أن في استمرار الجهاد عز المسلمين في الدنيا والآخرة .

وبعد أن استوعب كثيراً من فروع المعرفة ببلدته ، حدتهُ الرغبة إلى الزيادة ، فيمّم تلقاء حلب التي غدت منارة من منارات النهضة الفكرية آنذاك ، لما ازدحمت به من نجوم أهل العلم والأدب وطلبتهما ، وما انتشر فيها من مكتبات وأندية ومجالس ينعقد فيها العديد من المناظرات واللقاءات الثقافية المتنوعة .

وكثرت معارف الخطيب ، فنبغ وأتقن حتى فاق أقرانه،وصار يُشار إليه بالبنان ، وكان له ميل إلى فن الخطابة يرجع إلى ما تمتع به من شخصية قوية ، وثقة بالنفس قائمين على استعداد فطري وموهبة فذة ، غذاهما ما امتاز به من فصاحة ، وحسن بيان ، بعد أن حاز معارف خصبة ، وأتقن الفنون الأدبية والأشكال البلاغية حتى غدا يتحكم بألفاظ اللغة ومفرداتها ويطوعها لإرادته في التعبير عن أي معنى يريد دون أن تستعصي عليه .

وكان لما فعله الروم بميافارقين سنة ٣٤٥هـ دور كبير في شحذ موهبته وصقلها ، فأخذ ينشىء خطباً لاقت من القبول ما جعله يرقى المنابر .

ثم كان لأحداث سنتي ٣٤٧هـ و ٣٤٨هـ أثر كبير في نفسه ، إذ فتح الروم حصوناً كثيرة ، وهدموا سميساط ، وكروا إلى ديار بكر وميافارقين ، وقتلوا من

---

(١) تاريخ الأنطاكي ٤١ ، ٤٤ ، أخبار الدولة الحمدانية ٢٩ ، تاريخ الإسلام ٥/٢٥ . البداية والنهاية ٢٠٥/١١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أهل طرسوس ، وفتحوا حصن الهارونية ، فعمل الخطب الجهادية الرنانة يحث المسلمين على الجهاد [١] ، وقد أحسن في تصنيفها فكانت مؤثرة في نفوس الناس ، وأدرك سيف الدولة فضله ، فخصّه وقرّبه وجعله خطيبه ، وتوطدت علاقة الخطيب بالبيت الحمداني وأتباعه ، وبخاصة المجتمع من العلماء والأدباء وذوي الفضل ، واشتد الخطيب في حث الناس على نصرة سيف الدولة والدعاء له والترغيب في طاعته ونبذ الخلاف والفتن .

وسمت مكانة الخطيب حتى غدا الناطق بلسان الدولة على المنبر في مناسباتها وأحداثها ، ولذلك سجل في خطبه أثناء تنقله مع سيف الدولة أو جيشه بين حلب والموصل وميافارقين وغيرها كثيراً من الأحداث كالانتصارات والهزائم واستقبال الجيوش والاعداء للحرب [٢] ، والتهنئة بتولية الأمراء [٣] والتغرية بفقدهم [٤] ، إضافة إلى خطبه في المناسبات كالأعياد [٥] والاستسقاء [٦] والكسوف [٧] والنكاح [٨] .

وبموت سيف الدولة سنة ٣٥٦هـ انقطع ما كان معهوداً من أمر الجهاد ، وقويت شوكة الروم فعاثوا في البلاد فساداً ، وتناحر الحمدانيون ، ودبت الفوضى، وتفشى الظلم ، واشتد الغلاء ، وانتشرت البدع والأهواء ، ورأى الخطيب إقبال الناس على الدنيا وشهواتها ، وتقاعسهم عن أداء الواجبات والعبادات ، وكراهيتهم للموت ، فأخذ على عاتقه واجب وعظ الناس وإرشادهم ، وترغيبهم في

---

(١) مرآة الزمان ١٠٤ . الأعلاق الخطيرة ٣٠٦ ، تاريخ الإسلام ٢٢٩/٢٥ . العبر ٧٨/٢ . النجوم الزاهرة ٣٢٢/٣. شذرات الذهب ٢٥١/٤ .

(٢) انظر الديوان : خطب الجهاديات ١٧٧-٢٤٠ . وانظر ٢٧٥-٢٧٨ .

(٣) نفسه ١٢٥-١٢٩ ، ٢٧٩ -٢٨٠ ، ولاية أبي المكارم وأبي المعالي ابني سيف الدولة .

(٤) نفسه ٣٥-٣٩ ، وفاة ست الناس أخت سيف الدولة سنة ٣٥٢هـ .

(٥) نفسه ٤٠٠ -٤١٨ ، خطبتان لعيدي الفطر والنحر .

(٦) نفسه ٢٥٨-٢٦٧ .

(٧) نفسه ٢٧١-٢٧٥ وقع هذا الكسوف في المحرم سنة ٣٥٦هـ . انظر الأعلاق الخطيرة ٣١١ ، ٣١٢ .

(٨) نفسه ٤٣١ -٤٣٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سلوك سُبُل الزاهدين ، والتذكير بالموت ، والحث على أداء الواجبات .

ثم يستقر الخطيب بعد ذلك بميافارقين موطن أهله ، فقد شهدت أماناً أكثر من حلب وغيرها ، ويظل بها خطيباً متفرغاً للوعظ والعبادة والعناية بأسرته .

وتنقضي أيام الحمدانيين عن ميافارقين والناس ما يزالون لاهين بالدنيا وزينتها ، فيما تنتشر مجموعات من العُبّاد الذين قدموا من شتى البقاع للجهاد في سبيل الله والدفاع عن الثغور الإسلامية وما جاورها ، وهم في ذلك يعيشون عيشه زهد ، منقطعين إلى الله تعالى ، عاكفين على عبادته ، معرضين عن الدنيا وزخرفها ، مقبلين على الآخرة ، ولذلك أخذ الخطيب يشجع الناس على سلوك مسلكهم والاقتداء بهم [١] .

ويظل على هذه الحال منقطعاً إلى الله ، ومتفرغاً للذكر والوعظ ، مكثراً من خلواته ، زاهداً في الدنيا ، زائراً للقبور ، حتى توفاه الله بعد أن اطمأن إلى مصيره برؤية رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في المنام قبل موته بمدة يسيرة [٢] .

أخلاقه وصفاته :

كان الخطيب غزير العلم ، جليل القدر ، فصيحاً مفوهاً بليغاً ، جيد القريحة ، وكان رجلاً صالحاً ديناً ورعاً [٣] ، ويشهد على صدق ذلك ديوان خطبه كله . فالناظر فيه من أوله إلى آخره لا يجد إلا تعظيماً لله ودعوة إلى التمسك بدينه ، والإخلاص في طاعته ، والتزام أمره ، واجتناب نهيه ، وتزهيداً في الدنيا ، وترغيباً في الآخرة ، وتذكيراً بالموت ، وحثاً على جهاد النفس والأعداء ، وترك البدع والأهواء . ولئن كان يدعو الناس إلى مثل هذا ، فهو أولاهم بالتحلي بما يحثهم عليه ، ولقد

---

(١) انظر الديوان ، الخطبة الصوفية ٩٧ -١٠١ .

(٢) انظر وفيات الأعيان ١٥٦/٣ ، ١٥٧ . النثر الفني في القرن الرابع الهجري ١٩٤/٢ .

(٣) مخطوط شرح العكبري ، ورقة ٢ ، وفيات الأعيان ١٥٦/٣ . سير أعلام النبلاء ٣٢٢/١٦ ، تاريخ الإسلام ٥٥٩/٢٦ ، الوافي بالوفيات ٣٨٨/١٨ . البداية والنهاية ٣٠٣/١١ . ديوان الإسلام ٣٤٠/٤ . ونقل طاهر الجزائري عن صاحب تاريخ دول الأعيان أن أخبار الخطيب ومناقبه كثيرة . المقدمة ١٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كان كذلك إذ لم يتعرض أحد لنقد مسلكه إلا بخير .

وكان الخطيب حريصاً على أخذ نفسه بالوعظ كما في قوله : «واعلموا أنه ليس أحدٌ أولى بالوعظ ممن هو لكم واعظ ، إقراراً منه بالتقصير على نفسه ، واعترافاً بتفريطه في يومه وأمسه ، وإني وإياكم لفقراء إلى رحمة مولى سبق إفضاله ، وعمّ كرمه وإجماله ، فوا أسفا على التقصير في طاعته ، وواحذرا من حلول نقمته ، وواحزنا من توبيخه إياي في محفل يوم القيامة ، على رؤوس الخلائق عامة ، وما أحقّ من عرف سريرة نفسه ، وعلم خبيئة يومه وأمسه ، أن ينوح على ذنبه ، ويعمل في الخلاص من ربه .... »[1] .

وربما يرجع صلاحه إلى استعداد فطري مغروس في نفسه ساعده على تنميته والده الذي كانت له رواية [2] ، إضافة إلى الجو النفسي والتعليمي والديني الذي أمْلَتْه ظروف البيئة المحيطة به منذ صغره وحتى نهاية حياته بميافارقين وحلب والشام وعموم الثغور ، وهي بيئة أكسبتهُ خبرتهُ فيها اليقين على الموت ، وتقلب الدنيا وفقد الأحبة ، ولهذا أخذ الناس بالوعظ يزهدهم ويذكرهم الموت والمعاد والحساب ويحثهم على أداء الواجبات وسلوك سُبُل الصالحين لا يبتغي من ذلك إلا وجه الله ومنفعة المسلمين ، وكان مما ساعده على ذلك أنه كان خطيباً مفوهاً حسن السيرة مجاهداً لا لذاته بإبعادها عن الشهوات وإلزامها الطاعات فحسب ولكن لأعدائه بلسانه وبيانه وربما بنفسه ، إضافة إلى ما تحلّى به من صدق ، وما تمتع به من شخصية قوية ، وثقة عالية بالنفس ، كما ظهر في أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر وتصديه لأهل البدع والأهواء ، وبما كان يوجهه من انتقادات للناس على اختلافهم لا يخاف إلا الله وحده ، ومن ذلك قوله : «وإن حُلَلَ الذنوب بادية على

---

(١) الديوان ٣٩٨ . وانظر ٢٥٥ ، ٣٧٧ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٣٢٢/١٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سوقة الأمة وأملاكها »[١] ، وقوله في شرب الخمر : «فالآن عباد الله فبادروا قبل وقوع النكير ، وليظهر الإقلاع من المأمور والأمير »[٢] ، وقوله : «واردعوا باللسان واليد داعركم»[٣] ، وقوله :«فما لنا لا يأخذ الأقوياء منا على الضعفاء والعلماء على أيدي السفهاء »[٤] ، وقوله : «ولا تنوا في أمر المعاد كما ونيتم في أمر الجهاد ، حتى فجأكم عدوكم قبل الاستعداد ، فبلغ من مكروهكم أقصى المراد»[٥] ، وقوله : «ونكصتم عن عدو الله وعدوكم على الأعقاب ، ومددتم لحكمه خواضع الرقاب ، حتى لقد طبتم عن الحريم المستباح نفوساً ،وطأطأتم للذلّ الصراح رؤوساً »[٦] وقوله : «وعمّ الغلاء بقبيح الاكتساب ، فما العجاب الفادح عندنا بالعجاب ، ولا نفوسنا تكثرت بعظيم المصاب ، وماذاك إلا لصول العبيد فيكم على الأرباب ، وعدلكم الهجان بالصريح اللباب ، وانقياد الرؤوس فيكم للأذناب ، وارتكاب كُلُّ هواه ضد الصواب ، شأنكم بينكم التنابز بالألقاب،واغتيابٌ أنفذُ في الأعراض من الحراب ، وشهدٌ مَلَقٍ أقتلُ من سُمُّ الحباب ، وخُبث فعالٍ ينقضُ مُبرم الأسباب ، فلا العالم يعمل بما علمه من حكم الكتاب ، ولا يردعه ما أتقنه من السنن والآداب »[٧] .

ويظلُّ الخطيب ملتزماً بما يدعو الناس إليه من زهدٍ في الدنيا وإقبالٍ على الآخرة وعكوف على العبادة ، حتى يلقى الله مطمئناً إلى مصيره بعد رؤيته رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في المنام بمدة يسيرة .

وذكر بعضهم أنه رآه في المنام بعد موته فسأله : ماذا فعل الله بك ؟ فقال : دفع لي ورقة مكتوب فيها :

---

(١) الديوان ٤٠ .

(٢) نفسه ٢١٧ .

(٣) نفسه ١١٤ .

(٤) نفسه ١٢٥ .

(٥) نفسه ٢٢٣ .

(٦) نفسه ٢١٩ .

(٧) نفسه ٢٣٠ ، وانظر ٦٣ ، ٨٧ ، ١٢٣ ، ١٨٨ ، ١٨٦ ، ٢٥٧ ، ٣٨٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قـد كـان أمن لك من قبل ذا واليوم أضحى لك أمنان

والصَّفحُ لا يحسُن عن مُحسِنٍ وإنّمـا يَحسُن عن جاني [1]

والذي يعنينا أن مثل هذه الرؤية عند الناس يُبين فضل الخطيب واستقامته وحُسن سيرتهِ وخلقه .

علاقاته :

تنوعت علاقات الخطيب التي ربطت بينه وأبناء مجتمعه ، ومع أنّ تولّيه منصب الخطابة تطلّب منه وعظ الناس ، ونصحهم ، وتوجيههم ، وربما انتقادهم في كثير من الأحيان ، فإن طبيعة العلاقة التي ربطته بمجتمعه قامت على الاحترام والتقدير .

وامتدت علاقات الخطيب لتشمل مجتمعه كله ، من الخاصة كالأمراء وأبنائهم وأعوانهم والعلماء والأدباء ، أو العامة كجمهور المستمعين إليه ، إضافة إلى العلاقات الشخصية التي تربطه بأُسرته وأهل بيته .

وكانت العلاقة الخاصة التي ربطته بالبيت الحمداني وحاشيته متينة قائمة على التقدير والاحترام المتبادل ، ولولا ذلك ما جعلوه خطيبهم الناطق بلسان دولتهم ، ولما امتدت هذه العلاقة من بعده إلى أبنائه الذين ظلوا مقربين إلى البيت الحمداني .

وبالمقابل رأى الخطيب أنّ في مخدومه سيف الدولة مثالاً يُحتذى في الشجاعة والإقدام ، لأنه انفرد إلى -حد كبير- دون غيره من ملوك العصر وأمرائه بالتصدي للروم والدفاع عن الإسلام وأهله ، ولذلك اتخذ الخطيب من منصبه قاعدة ينطلق منها في الدعوة إلى حث الناس على نصرة سيف الدولة وتأييده والدعاء له . ولئن امتدح الشعراء سيف الدولة في قصائدهم ، فقد أثنى عليه ابن نباتة في خطبه ونوه بفضله وذكر مآثره ، فمن ذلك قوله : « ... سيف الدولة المؤيد

---

(١) وفيات الأعيان ١٥٧/٣ ، ١٥٨ . الوافي بالوفيات ٣٨٩/١٨ ، ٣٩٠ ، مرآة الجنان ٤٠٤/٢ ، شذرات الذهب ٣٩٨/٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالنصر ، وحجره الدّامغ أهل العناد والعذر ، وبأسه المهلك أولي الفساد والكفر ، وقطب رحى الجهاد في البر والبحر ، الأمير سيف الدولة أبي الحسن ذي الراية المنصورة والنعمة المشكورة والأبوة المشهورة والمواقف المذكورة ، حارس كافة المسلمين وهم رقود ، والقائم بنصر دين الله وهم عنه قعود ، لا سلبهُ الله ما خوّله، وبلّغه من الدنيا والآخرة ما أمّله ....» [1] .

ويدعو له كما في قوله : «فاجأروا إلى الله في إطالة بقائه ، ودوام عزه ونعمائه ، وادحاض شناته وأعدائه ومزيده من قسمه وآلائه ، اللهم فأعْلِ كلمة الحق بعلوّ حده ، وأسْعِد الإسلام والمسلمين باطلاع سعده ...» [2] . وكان الخطيب يُشارك البيت الحمداني أفراحه وأتراحه ، كما في تهنئته ابني سيف الدولة أبي المكارم ومن بعده أبي المعالي بولاية ميافارقين [3] ، وتعزيته بوفاة أخت سيف الدولة [4] .

كما أنّ خدمته في بلاط سيف الدولة قد ربطته بعلاقات مع أدباء عصره وعلماء زمانه ، إذ من الطبيعي أن يُساهم الخطيب كالآخرين بالمشاركة في المجالس التي كانت تنعقد بين يدي سيف الدولة أو غيره ، ولعل فيما قيل عن جلوس المتنبي وغيره تحت منبر الخطيب ، وزيادته لهم ما لم يتوقعوه من الاستعارة والترصيع ، ما يدل على المكانة الرفيعة التي تبوّأها الخطيب لديهم ، وبالتالي مبادلته تقديراً واحتراماً لائقين .

وأما العلاقة التي ربطته بعامة الناس من مستمعيه الذين كانوا يجلسون تحت منبره ، فكانت مبنية على المشاركة والثقة والاستجابة ، إذ كان الخطيب يراعي واقع الأمة فيما يعرض لها من أحوال ، فيشارك الناس سرورهم وحزنهم ، وبالمقابل وجدوا فيه الرجل الصادق والناصح الأمين ، ولهذا بلغ من تأثرهم به واستجابتهم له أن يخرجوا ، وقد ملأوا المسجد الجامع إلى الغزاة بعد تمامه

---

(١) الديوان ٢٨٤ ، ٢٨٥ .

(٢) نفسه ٢٨٥ ، ٢٨٦ . وانظر ٢٨٠ ، ٢١٦ ، ٣١٧ .

(٣) نفسه ٢٧٩-٢٨٠ ، ١٢٥-١٢٩ .

(٤) نفسه ٣٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخطبة [١] .

وإذ لم أجد شيئاً عن علاقة الخطيب الشخصية بأسرته وأهل بيته ، فإنني أذهب مطمئناً إلى أنها كانت مميزة ، فقد اهتم الخطيب بأمر أهل بيته ، فعلمهم وأدبهم ، ووضعهم في مكانة مرموقة عند العامة والخاصة بما أسسه لهم من قاعدة متينة لبيت نُباتي مشهور بالفضل والصلاح والخطابة ، فكانوا نتاجاً طيباً لغراس طيبة ، ولذلك حملوا من بعده لواء الخطابة النُباتية ، واهتم بهم أولو الأمر من الحمدانيين ومن تلاهم فكانوا عندهم من المقربين .

ثقافتــه:

لقد قُدِّر للخطيب أن يعيش عصر الثقافات المزدهرة والمذاهب المتعددة والفنون المتنوعة ، وقد أمضى زهرة حياته في كنف الدولة الحمدانية التي كانت زمن سيف الدولة خير أنموذج لبيئة تجمع النشاط الفكري إلى النشاط الحربي .

وذكركثير ممن ترجموا للخطيب إمامته في علوم الأدب ، وتحدّثوا عن سعة علمه وغزارته ، لكن لم يتسنّ لي التعرف على مشيخة الخطيب ، ولذلك رأيت أن أجعل من ديوانه وعصره والبيئة التي عاش فيها أساساً أتوكأ عليه في التعرف إلى مصادر ثقافته وطبيعتها .

بدأت ثقافة الخطيب تتشكل بميافارقين مبكراً في كتاتيبها ومساجدها بقراءة القرآن ، ودراسة علوم اللغة والأدب وغيرها مما تعارف عليه أهل ذلك الزمان .

ويبدو أن الخطيب كان موهوباً بفطرته ، محبّاً للتحصيل ، وربما كان لوالده الذي كانت له رواية [٢] فَضْلُ المساعدة في تنمية ذلك في نفس ولده منذ الصغر ، حيث أكبّ مجتهداً على القراءة والتحصيل حتى برع في كثير من فروع العلوم الدينية واللغوية وغيرها .

وتغذّت ثقافة الخطيب بمشاهداته وتجاربه التي أملتها بيئة ميافارقين وما

---

(١) كانار ٢٨٥ ، نقلاً عن ابن الأزرق،وهذا النص لم أجده في القسم المطبوع من تاريخ الفارقي .

(٢) سير أعلام النبلاء ، ٣٢٢/١٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حولها ، حيث الصراع المستمر مع الروم مع ما يرافقه من إعداد ورباط وقتال وما يفرضه من جوّ ديني عام يتمثل في كثرة وفود المجاهدين والمتطوعين ، وعمران المساجد بالوعاظ والعلماء والمبتهلين وغيرهم .

وقد صادفت هذه البيئة عند الخطيب فطرة سليمة وحِسّاً أصيلاً في التعبير عما يُحدق ببلدته وبالمسلمين من أخطار ، مما شكل انطلاقاً لموهبته الكامنة في فن الخطابة ، والتي أخذت تنمو مع الأيام .

ولم تزل نفس الخطيب راغبة في الازدياد والتحصيل ، ولهذا يرحل إلى حلب حاضرة ملك سيف الدولة ، حيث المكتبات العامرة بنفائس الكتب من تآليف المتقدمين والمعاصرين ، وحلقات العلم المتعددة في المساجد ، وكثرةٌ من نجوم أهل المعرفة المتخصصين في كل علم وفن كاللغويين ، والنحويين ، ورواة الأشعار ، ومجوّدي القراءات ، والمحدّثين ، وأصحاب السير والأخبار ، والفلاسفة ، والمنجّمين، والأطباء ، وغيرهم . وهناك المجالس المتنوعة ، كمجالس سيف الدولة التي كانت حلبة للمحاورات والمساجلات ، ومنافسة بين أمراء الشعر الذين جمعهم بلاطه فتباروا في خدمته ومدحه ، إضافة إلى العديد من مجالس العلماء ومنتديات الأدباء الخاصة التي امتلأت بأنواع من المناظرات العقدية والفلسفية والأدبية ، وفي فضل هذه المجالس قال الخوارزمي المعاصر للخطيب : « ما فتق قلبي وشحذ فهمي ، وصقل ذهني ، وأرهف لساني ، وبلغ هذه المبالغ بي ، إلا تلك الطوائف الشامية ، واللطائف الحلبية التي علقت بحفظي ، وامتزجت بأجزاء نفسي ، وغصن الشباب رطيب ، ورداء الحداثة قشيب »[1] .

وفي هذه البيئة توسعت مدارك الخطيب ، وتنوعت معارفه ، وتوقّدت موهبته في فن الخطابة بما أملته ظروف الصراع مع الروم ، وظهر فضله حتى صار خطيب سيف الدولة ، فاجتمع في خدمته بالمتنبي وسمع عليه بعض ديوانه[2] ،

---

(١) يتيمة الدهر : ٣٥/١ ، ٣٦ .

(٢) وفيات الأعيان ١٥٦/٣ . المختصر في أخبار البشر ، المجلد الأول ١٢٤/٢ . تتمة المختصر ٤٦٠/١ . مرآة الجنان ٤٠٣/٢ . شذرات الذهب ٣٩٧/٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واتسعت دائرة علاقاته ، فتألّق نجمه وغدا يفرغ في خطبه التي أحسن تصنيفها عذب بيانه ، وصفو معارفه التي نمت عن قريحة جيدة وثقافة خصبة .

ولعل مما يدل على مكانته ، أن خطبه أخذت تثير حركة أدبية منذ عصره ، فابن خالويه يقف بِطَلَبٍ من سيف الدولة أمام مجلس يضم الأشراف والقضاة والعدول والأدباء ، ليبيّن رأيه في العبارة التي أوردها الخطيب في إحدى خطبه بعد أن أثارت خلافاً بين النحويين الذين شكّك بعضهم في صحتها ، ويُظهر ابن خالويه صحة ما ارتضاه الخطيب ولا يخطئه ، ثم يضع في تلك الواقعة رسالة [١] .

ومع أننا لا نستطيع الجزم بأسماء المشايخ والعلماء الذين أخذ عنهم الخطيب هذا العلم أو ذاك الفن ، إلا أن قراءة ديوانه تمكّننا من التعرف على كثير من العلوم التي درسها ، ومجموعة المعارف التي اكتسبها ، وطبيعة المطالعات التي كان مهتماً بها .

وأول ما يُلتفت إليه في الديوان ، كثرة الشواهد من القرآن الكريم الذي لم يزل لسان الخطيب به رطباً وقلبه له ذاكراً في كل موطن يحتاج فيه إلى ما يُستشهد به ، ومن هنا لم تخل له خطبة من توظيف كتاب الله ، حتى قيل فيما بلغه من القدرة على التصرّف في حفظه كتاب الله إنه أقدرُ الناس على الترصيع وتنزيل الآيات في كلامه [٢] .

وكذلك ، فإن تضمين خطبه قصص القرآن وذكر الملائكة والأنبياء ، وحديثه عن الدنيا ومشاهد القبر والقيامة ، ووصف الجنة والنار ، وتصويره كل ذلك بصور مأخوذة من القرآن ، مما يدلّ على معرفته المتعمقة بعلوم القرآن ، واستيعابه لمعاني الآيات ومغزاها ، وحرصه على التمسك به والرجوع إليه ، ومن هنا كان يوصي الناس بترتيله ، وتدبّر آياته ومعانيه ، ويبيّن فضل قرّائه كما في قوله : « فعليكم-أيها الناس-بكتاب الله ، فاتلوه حق تلاوته ، وتدبّروا حقائق

---

(١) شرح الديوان للجزائري ، صفحة ٣١٩ ، ٣٢٠ الحاشية . ولم أعثر لهذه الرسالة على أي ذكر في غير هذا المصدر .

(٢) الوافي بالوفيات ١٨/٣٩٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عباراته ، وتفهّموا عجائبه ، وتبيّنوا غرائبه ، فإنه يردُّ الجائر إلى قصده ، ويهدي الحائر لرشده ، يشفي سقم القلوب وينقي درن الذنوب ... فقرّاء القرآن حمَلَةُ سرّ الله المكنون ، وحَفَظَةُ علمِه المخزون ، وخلفاء أنبيائه وأمناؤه ، وهم أهل الله وأخصّاؤه ، وخيرته وأصفياؤه .. » [1] .

ويدل حفظ الخطيب لأحاديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- والأخبار الواردة عنه ، مع تمييزه لما صحّ منها ، على إلمامه بعلوم الحديث ، وعنايته بدراسة السيرة النبوية ، كما يظهر في كلامه عن نسب الرسول وخُلُقه ومعجزاته وغزواته ووفاته وشفاعته ، في قوله : « فقد قال النبي عليه الصلاة والسلام - ولقوله الإجلال والإعظام ، فيما صحّ من أخباره المجمع عليها : خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله كلما سمع هيعةً طار إليها » [2] ، وقوله : « وقد صحّ عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الآثار التي لا تجدون لها نقضاً أنه قال : أمتي كالبنيان يشد بعضها بعضاً » [3] .

وتمحُّص الخطيب بعلم الكلام - التوحيد - جليٌّ ، لا سيما في مقدمات خطبه جميعها ، في حديثه عن ذات الله تعالى وصفاته وقدرته وقدمه وإبداعه وسننه ، ويزداد الأمر وضوحاً في ردّه على شُبَه كثير من الطوائف والمذاهب والملل وإقامته الحجة عليهم نقلاً من القرآن والسنة ، وعقلاً بالدعوة إلى التفكّر في الخلق والنظر في الكون ، وفي ذلك يقول : «اللهم فلك الحمد على ما أطلقت به لساني ، وأظهرت بنطقة بياني بتنزيهك عما نسبه إليك الملحدون ، وافتراه عليك الضلاّل الجاحدون الذين عجزت أفهامهم عن بلوغ معرفتك بالتحقيق ، وعزبت ألبابهم عن الوصول إلى علم وحدانيتك بالتصديق» [4] .

ومن هنا تبرز معرفة الخطيب بالفِرق المختلفة في عصره كالمعتزلة والمشبّهة

---

(١) الديوان ٤٤٧ ، ٤٤٨ . وانظر : ٢٠٨ ، ٤٦٣-٤٦٦ ، ٤١٣ ، ٤١٤ .

(٢) نفسه ٢٠٦ .

(٣) نفسه ١١٣ ، ١١٤ . وانظر : ٣٨٥ .

(٤) نفسه ٤٢٢ ، ٤٢٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والقدرية والجبرية والنصارى وغيرهم في استخدام عباراتهم ومصطلحاتهم ، وما يشتهرون به من معتقدات وأفكار مما يتعلق بخلق القرآن ، والوعد والوعيد ، والثواب والعقاب ، والشفاعة ، والعرض والجوهر ، والقدر ، والتجسيم ، والحلول، والتثليث ، والصليب ، والأينية ، والكيفية ، والماهية ، وغير ذلك ، كما في قوله (الحمد لله الذي لا تفصح بماهيته العبارات ولا تلوح بكيفيته الإشارات ولاتدل على أينيّته الأمارات ولا تكشف حجاب لاهوتيته الأمثال المستعارات [١] .

وقوله «وعلى القدرية والجبرية سخط الله والعذاب الشديد» [٢] ، وقوله في وصف القرآن «كلام من كلامه منزّل غير مخلوق» [٣] ، وقوله في النصارى «اللهم فلك الحمد على ما خصصتنا به من معرفة وحدانيتك ، وباعدتنا عن قول من جحد بك وكفر بعظمتك فجعلَ لك أولاداً ميّتين وشركاء مربوبين .. لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله .. يشبهه من عبده بالصلبان ويدعي فيه القتل بالكذب والبهتان ، ...الخ» [٤] .

ويظهر علم الخطيب بالأحكام الفقهية والمسائل الشرعية في حديثه عن الفطرة والأضحية والصوم والزكاة والحج والجهاد ، وفي خطبتيه في الاستسقاء والكسوف وغير ذلك ، فمن ذلك قوله في الفطرة : « وأخرجوا من خالص الأموال ، وطيب الكسب الحلال ، الفطرة عن جميع العيال ، البوالغ منهم والأطفال ، عن كل واحد من العدد صاعاً مما يُقتات به في البلد » [٥] ، وقوله في الأضحية : « مضت السنّة – رحمكم الله – باستسمانها ، والمغالاة بأثمانها ، والتجنّب لنقصانها ، من عَضَبٍ في آذانها ، أو هَتَمٍ في أسنانها ، أو خَوَر في أركانها ، أوعَوارٍ في أبدانها ، لا أضحية على طفل ولا جنين ، ولا على معسرٍ مسكين ، الذبح بالملّة ، والفضل

---

(١) الديوان ٩٠ .

(٢) نفسه ٣٥٧ .

(٣) نفسه ٢٥٠ .

(٤) نفسه ٤٤٥-٤٤٦ .

(٥) نفسه ٣٩٧ . وانظر : ٤٠٦ ، ٤٠٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالتسمية ، والادّخار بالرخصة واستنفاد الطعام نافلة ، البقرة عن سبعة ، والبدنة عن سبعة ، والشني عن المعز ، والجذع من الضأن مَجْزَاة ، ولا ذبح إلا بعد الصلاة ، والذبح يوم النحر ويومين بعده مقبول ، والتشريق ثلاثة أيام بعد يوم النحر ... » [1] .

ونرى معرفة الخطيب بتاريخ العرب قبل الإسلام في حديثه عن تفرّقهم وأصنامهم وأنسابهم ، وإشارته إلى موروثهم من العادات والتقاليد ، والمعتقدات المرتبطة بالزجر والعيافة والبوم والغراب والأزلام والسانح والبارح ، وفي تضمينه أمثالهم ، كما نراه يتحدث عن المسلمين من الخلفاء الراشدين والمهاجرين والأنصار ، فيذكر فضلهم ، ويعدّد مناقبهم ، ويدعو إلى النظر في أحوال الأمم السابقة وأخذ العبرة مما وقع لهم .

ومن الشواهد على ذلك قول الخطيب في وصف أحوال العرب قبل مبعث الرسول : « والعرب عاكفة على أصنامها ، متجانفةٌ في أحكامها ، مستقسمة بأزلامها ، منفصمة عُرى أرحامها ، فألّف الله تعالى بمحمد -صلى الله عليه وسلم- شتاتها وشرّف ببيته أبياتها ، ورفع بصيته أصواتها ، وقمع بعزّه عُزّاها ولاتها » [2] ، ومن تضمينه أمثالهم قوله في صولة العدوّ : « فقد بلغ سَيْلُه من دياركم أعلى الزُّبى » [3] وقوله في أبي المكارم ابن سيف الدولة « وشِنْشِنَةٌ تُعْرفُ من أخْزَمِها » [4] .

وربما قرأ الخطيب في الفلك والتنجيم ، فهو يتحدث عن الأنواء والمجاريح والأفلاك والرياح والنجوم ، ويستخدم مصطلحات المنجّمين المتعلقة بالنحس والسعد والحظ ، كما في قوله في رسول الله « صلى الله عليه وعلى مؤمني آل

---

(١) الديوان ٤١٧ ، ٤١٨ .

(٢) نفسه ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ . وانظر : ٣٤٧ ، ١٩٩ ، ١٠٥ ، ٩٧ ، ٤١٢ ، ٤٤١ الخ .

(٣) نفسه ، ٢٣٣ . وأصل المثل : بلغ السيل الزُّبى ، يُضرب لما جاوز الحد . مجمع الأمثال ، ٩١/١ .

(٤) نفسه ، ٢٨٠ . وأصل المثل : شنشنة أعرفها من أخزم ، يُضرب في قُربّ الشبه . مجمع الأمثال ، ٣٦١/١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جدُه، ... ، ما قَهْقَهَ سحابٌ بِرَعْدِهِ ، أو دار فَلَكٌ بنحسه أو سَعْده »[1] ، وقوله « عَدَدَ ما دَبَّ ودَرَجَ في كَوْر الأفلاكِ الدائرة »[2] وقوله « عَثَرَتْ والله بهم الجدودُ العَوَاثر »[3] .

وقال يدعو لسيف الدولة : اللهم فاعلِ كلمة الحق بعلوّ جدّه وأسعد الإسلام والمسلمين باطلاع سَعْدِه[4] .

وفي حديثه عن الدنيا والموت والزهد والجهاد نتلمّس اطلاعه على تآليف وأقوال المتقدمين من الخلفاء والزهّاد والعبّاد والأدباء والشعراء ، إضافة إلى حفظه كثيراً من خطب السابقين ، لا سيما خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – التي قيل إن عامة ألفاظ الخطيب ومعانيه منها[5] .

وقد أشار إلى ذلك عزالدين بن أبي الحديد مستطرداً في سياق شرحه لخطبة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب التي فيها « أما بعد ، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه ، وهو لباس التقوى ودرع الله الحصينة ، وجنته الوثيقة .. ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وسراً وإعلاناً ، وقلت لكم : اغزوهم قبل أن يغزوكم فوالله ما غُزِيَ قوم قط في عقردارهم إلا ذلّوا فتواكلتم وتخاذلتم حتى شنّت عليكم الغارات وملكت عليكم الأوطان ... » الخ بقوله : واعلم أن التحريض على الجهاد والحض عليه قد قال فيه الناس فأكثروا وكلهم أخذ من كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، فمن جيد ذلك ما قاله ابن نباتة الخطيب « أيها الناس إلى كم تسمعون الذكر فلا تعون وإلى كم تُقرعون بالزجر فلا

---

(١) الديوان ٥١ .

(٢) نفسه ٤٠ . وانظر : ١٦٠ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٧٣ ، ٢٨٧ .

(٣) نفسه. وفي الحاشية : الجدود جمع جَدّ بالفتح وهو الحظ والبخت . وانظر نفسه : ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٣٧٣ ، ٣٩١.

(٤) نفسه ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

(٥) انظر : مقدمة شرح الديوان ، ص ١٥ . وأما ما نقله الصفدي في الوافي بالوفيات ٣٨٨/١٨ ، وما ذكره ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ١٤٦/٤ أن الخطيب كان يحفظ نهج البلاغة إشارة منهما إلى خطب الإمام علي ففيه مغالطة ، إذ إن نهج البلاغة صنعة الشريف الرضي المولود سنة ٣٥٩هـ وجمْعُهُ قد وُضع متأخراً، لأن الخطيب كان قد بلغ ذروة شهرته قبل مولد الشريف الرضي وربما يكون قد مات قبل أن يُصنّف الشريف كتابه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تقلعون وعدوّكم يعمل في دياركم عمله ويبلغ بتخلفكم عن جهاده أهله ، صرخ بهم الشيطان إلى باطله فأجابوه وندبكم الرحمن إلى حقه فخالفتموه .. فإن الجهاد أثبت قواعد الإيمان وأوسع أبواب الرضوان وأرفع درجات الجنان » .

وقوله « ألا وإن الجهاد كنز وفر الله منه أقسامكم وحرز طهر الله به أجسامكم .. فانفروا رحمكم الله جميعاً وثبات وشنوا على أعدائكم الغارات وتمسكوا بعصم الأقدام والثبات،وأخلصوا في جهاد عدوكم حقائق النيات،فإنه والله ما غُزي قوم في عقر دارهم إلا ذلّوا،ولا قعدوا عن صون ذمارهم إلا اضمحلّوا .. » .

ثم أشار إلى مواطن تأثر ابن نباتة بأمير المؤمنين وسرقته معانيه فانتقده موازناً بينهما [١] .

وقد أكسبته تجاربه ومشاهداته في الحياة ، إلى جانب قراءاته ومطالعاته حكمةً أخذ ينطق بها ، فمنها قوله « مَنْ شمّر في السَّعْي نَفَعَهُ ، ومن اغتر بالبغي صرعه » [٢] وقوه « إن الأمور تذلّ للمقادير، حتى تصير الآفاتُ في التدبير » [٣] وقوله « المشيبُ ثغر الحياة الذي لا يمكن سِدادُه ، وكسر القناة الذي لا يُصلح الدهر فساده » [٤] وقوله « إنالكسير أسرع انجباراً من المهيض ، والنكيسَ أفظع داءً من المريض » [٥] وقوله « إن عثرة الرجل سريع اندمالها ، وعثرة اللسان فظيع وبالها، ومن أبصر عيوب نفسه عمي عمّن سواه ، ومن ملّك هواه قيادَه أرداه ، ومن خَبُث مشهده خبث منتماه » [٦] .

وأما علم الخطيب بالعربية ، فقد أوتي منه حظاً عظيماً ، ولهذا عُدّ إماماً في علوم الأدب ، وفيه قال ابن فضل الله العمري « كان واسع المعرفة باللغة ، أيّ قالب شاء أبرَزَ المعنى وأفرغَهُ ، وذلّل رقاب البلاغة واقتادها ، وسهّل صعاب البلاغة

(١) شرح نهج البلاغة ٢/٧٤ ، ٨٠-٨٥ .

(٢) الديوان ، ١٤٧ .

(٣) نفسه ، ١٩٦ .

(٤) نفسه ، ٣٨١ .

(٥) نفسه ، ٢١٢ ، ٢١٣ .

(٦) نفسه ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واعتادها ، وولع بالترصيع ، وذهّب خطبه بما لا يقدر عليه صاحب بديع [١] .

وأخذ الخطيب يستخدم مصطلحات وأبواباً من علم النحو والصرف والبلاغة وغيرها في خطبه ، كما في قوله « بل هو الله - سبحانه - المتعرف قبل حروف التعريف ، والمتصرف قبل علل التصريف » [٢] ، وقوله « فرحم الله امرءاً قدّم الحذر، وأنعم النظر ، قبل أن يفارق الأوطان ، ... ، ويدخل في خبرِ كان ، ... قبل نزول القدر اللازم ، وسكون الحركات لدخول الجوازم » [٣] ، وقوله « إن أوضَحَ الوعظ منهاجاً وأفصَحَ اللفظ ازدواجاً كلام من جعل البحرين فراتاً وأجاجاً » [٤] وقوله « إن أحسن ما نَسَقَتْهُ لهوات الخُطّاب ، وأبيَنَ ما حقّقته أدوات الإعراب كلام من توكلت عليه وإليه متاب » [٥] .

ومما يلتفت إليه موقف الخطيب من الشعر ، فهو قليل الرجوع إليه والاستشهاد به ، وإذا ما لجأ إليه نراه يُضمّن خطبته جزءاً من البيت الشعري دون أن يورده كاملاً ، وقد يغيّر فيه ، كما في قوله : « ما ولدتم فللتراب ، وما بنيتم فللخراب ، وما جمعتم فللذهاب » [٦] وهو تأثر بقول أبي العتاهية :

لِدُوا للموتِ وابْنُوا للخَرابِ فكلُّكُمُ يصيرُ إلى تَبابِ [٧]

وكذلك قوله « اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد ما أقام عسيب » [٨] وهو تأثر بقول امرئ القيس :

أجارتنا إن الخطوب تنوبُ وإني مقيمٌ ما أقام عسيبُ [٩]

---

(١) مسالك الأبصار ، ١٣/٢٦٥ .

(٢) الديوان ، ٢٧٥ .

(٣) نفسه ، ١٧ ١٨ .

(٤) نفسه ، ٨٩ ، ٩٠ .

(٥) نفسه ، ١٨١ . وانظر : ٢٢٨ ، ٢٨٩ .

(٦) نفسه ، ١٧ .

(٧) ديوان ابي العتاهية : ٤٦ .

(٨) الديوان ، ٢٩٠ .

(٩) ديوان امرئ القيس : ٣٥٧ . وانظر حاشية الديوان ، ص ٢٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بل كأنني أحس أن الخطيب يتحاشى نسبة الشعر إلى نفسه أو القول به كما يظهر في كلامه « وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة من وضع رداء الكِبْر عن منكبه وصدع بالتوحيد في نثره وخطبه »[١] .

تلاميـــذه :

لم يؤثر عن الخطيب القعود للإقراء والتدريس على جلالة قدره وسعة علمه ، ومن هنا فإنني أشكّك في دقة ما انفردت دائرة المعارف الإسلامية بذكره من أنّ الخطيب عمل مؤدباً في بلاط سيف الدولة بحلب[٢] لأن المصادر لم تتحدث إلا عن توليه منصب الخطابة عند سيف الدولة واجتماعه بالمتنبي في خدمته . وقد ذكر كثير ممن ترجموا للشريفين الرضي والمرتضى فيما نقلوه عن الشيخ البهائي عن خط الشهيد أنهما قرءا على ابن نباتة الخطيب وهما طفلان[٣] .

وبعد تقصّ رأيتُ ما رآه من قبلي د. عبدالفتاح الحلو ، وعبدالرزاق محيي الدين في دراستيهما للشريفين أنّ هذا الخبر موضع شك ، فالمصادر لم تذكر وفود الخطيب إلى بغداد ، أو زيارة الشريفين إلى حلب وهما طفلان ، وأرجّح أن يكون شيخهما ابن نباتة السعدي الشاعر لا ابن نباتة الخطيب ، لأن السعدي كان معاصراً للشريفين ومقيماً أغلب حياته في بغداد عندهما ، وهو من الأدب والشعر بالمنزلة التي يصح أن يبدءا عليه تلمذتهما ، وربما تكون كلمة الخطيب قد وردت سهواً بدل الشاعر من قلم الشهيد[٤] . ولئن كان ثمة تلاميذ للخطيب على وجه الخصوص ، فابنه وحفدته الخطباء الذين رووا خطبه وحملوا من بعده لواء الخطابة النباتية .

---

(١) الديوان ، ٩٠ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية : ٤٠٢/١ .

(٣) الدرجات الرفيعة : ٤٥٩ . لؤلؤة البحرين : ٣١٦ . رياض العلماء : ٢٣/٤ . روضات الجنات : ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٦ . وانظر الغدير : ١٨٤/٤ ، ٢٧٠ . وبحار الأنوار : صفر/١٦٠ ، ١٦٨ .

(٤) الشريف الرضي حياته ودراسة شعره ، د. عبدالفتاح الحلو : ٢٩١/١ . أدب المرتضى من سيرته وآثاره ، عبدالرزاق محيي الدين ، ص ١١٢ الحاشية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مؤلفاته:

لم يصحّ مما نُسب إلى الخطيب منها إلا ديوانه المشهور في الخطب ، وقد ذكر ذلك ابن فضل الله العمري بقوله : «ولولا الاضطرار إلى إثبات بعض خطبه -ولم أجد له سواها مما يقف النظر به- لما أثبتّ شيئاً من ديوانه لمسيره في الأقطار وشهرته التي هي السبب في عدم الإقصار» [١] ، وهذا ما توصّل إليه سيد كسروي حسن -محقق ديوان الإسلام لابن الغزي- بقوله عن ديوانه في الخطب : ولم أقف له على سواه [٢] .

وأما قول القنوجي ود. إبراهيم أبو الخشب إنه كان خطيباً وشاعراً مجيداً زاحم المتنبي وغيره من الشعراء في مدح سيف الدولة بغرّ القصائد ، ونخب المدائح ، وأنه طاف البلاد ، ومدح الملوك والوزراء والرؤساء فلا يصح ، وهو خلط عجيب بين ترجمتي ابن نباتة السعدي الشاعر والخطيب الفارقي [٣] ، وكان حملهما للاسم نفسه قد أدى إلى خلط عند القدماء أيضاً حتى أنّ ابن كثير ظنّهما أخوين [٤].

والخطيب بديوانه هذا يُعدّ من أصحاب الفرائد لأنه لم يصنف تأليفاً آخر غيره .

مذهبه:

اختلفت الآراء في تحديد مذهب الخطيب ، فقد جعله الغزي ت ١١٦٧هـ شافعياً [٥] ، أي أنه من أهل السنة والجماعة ، فيما جعله الأعلمي شيعياً [٦] ، ونقل عباس القمي أنّ القاضي نور الله قد ذكره في خطباء الشيعة [٧] .

---

(١) مسالك الأبصار : ٢٦٥/١٣ .

(٢) ديوان الإسلام : ٣٤١/٤ الحاشية .

(٣) أبجد العلوم : ٧٩/٣ ، ٨٠ . تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني : ٥٦٤ .

(٤) البداية والنهاية : ٣٥٥/١١ .

(٥) ديوان الإسلام : ٣٤٠/٤ .

(٦) دائرة المعارف : ١١٤/٢١ .

(٧) الكنى والألقاب : ٤٣٦/١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والملاحظ أنّ هذه الإشارات ترجع إلى رجال تأخر عصرهم كثيراً عن الخطيب ، وهي إشارات سريعة غير مدعّمة بشواهد أو توثيق يوجب صحتها .

ولذلك اقتضى الفصل في هذه المسألة العودة إلى ديوان الخطيب والنظر فيه من أجل التعرف على المذهب الذي ارتضاه الخطيب لنفسه .

ولم يكن الأمر عسيراً ، فالخطيب يدعو لأهل السنة بالخير كما في قوله : صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله أهل النجدة والشجاعة ، صلاة تعمّ بركتها أهل السنة والجماعة» [1] ، بل إنه يجهر بسنيّته في قوله : «وحشرنا وإياكم على الإسلام والسنة» [2] .

وينسجم الخطيب مع عقيدة أهل السنة في إشادته بأمهات المؤمنين الطاهرات وجميع الصحابة من المهاجرين والأنصار دون استثناء لأنهم استقاموا على الحق ولم يتحزّبوا ، فلا يؤلّه منهم أحداً ولا يكفّرهم ، وإنما يدعو إلى حبهم والاقتداء بهم والاستعاذة من سبّهم والطعن فيهم كما في قوله : «اللهم صلّ على جميع صحابته الصادقين ، ووزرائه السابقين ، الذين آووه ونصروه ، وآسوه وعزّروه ، ... وبوصاياه وأوامره بعد وفاته خلفوه ، ولم يزالوا على عهده وميثاقه حتى لقوه ، ... اللهم وصلّ على أزواجه الخيّرات الأطهار ، وعلى جميع المهاجرين والأنصار ، ... اللهم أحْينا على حبّهم وأعِذْنا من سبّهم ، اللهم إنا لا نتّخذهم أرباباً ، ولا نجعل بعضهم على بعض أحزاباً ، بل هم عبيد مربوبون سامعون مطيعون ، دعاهم نبيك فأجابوه وأمَرهُم فأطاعوه ، وعلى رضوانك بايعوه ولإقامة دينك تابعوه ، ...» [3] .

كما ينسجم معهم في تقديمه أبا بكر الصديق -رضي الله عنه- على الخلفاء الراشدين ، ثم عمر بن الخطاب ، ثم عثمان بن عفان ، ثم علياً رضي الله عنهم أجمعين على الترتيب ، ومن ذلك قوله في الصلاة على رسول الله : «صلى الله

---

(١) الديوان : ٣٤٤ .

(٢) نفسه : ١١٥ .

(٣) نفسه : ٤٦٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عليه وعلى من اختاره الله بعده وقدّمه» [١] ، وقوله في أبي بكر أيضاً «اللهم صلّ على صديقه وموضع أُنسه ، وجاره في تربته ورمْسه ، ... شيخ الأصحاب ، ... أول من سعى في جمع الكتاب ، وأقامه النبي -صلى الله عليه وسلم- مقامه في المحراب ، أبي الضعفاء والأيتام ، وثاني النبي في كل موقف ومقام» [٢] .

وقوله في عمر بن الخطاب : «وعلى الإمام الفاروق ، ... كهف المخبتين وتاج المؤمنين ، ونظام الأربعين ، وموافق دعوة الأمين ، من أعزنا الله بإيمانه ، وشرّفنا بسلطانه ، وأظهر ديننا بأذانه ، وزعزع كسرى عن إيوانه ، ... وكشف له عن سارية وهو على منبره ..» [٣] .

وقوله في عثمان بن عفان : «وعلى الإمام التواب ، الزاهد والأوّاب ، ... المخصوص في أسمائه بالأنوار ، من نوّر المحراب بإمامته ، والقرآن بتلاوته ، وهو سراج الله في جنته ، وثالث خلفائه على أمته ، فهو السعيد في حياته ، الشهيد في مماته ...» [٤] .

وقوله في علي بن أبي طالب : «وعلى الإمام العليم ، والحبر الحليم ، ... إمامِ الدين وعالمه ، وقاضي الشرع وحاكِمِه ، ... سيد الحنفا ورابع الخلفا ، وابن عم النبي المصطفى ...» [٥] .

والخطيب يذكر أهل البيت بما هم أهله دون تعصب عندما يقول : «اللهم وصلّ على ذريته الأوفياء ، وعترته الأقرباء ، وأهل بيته النجباء ، الذين ألزمتنا طاعتهم ، وفرضت علينا في الكتاب مودتهم ، فقلت وقولك الحق : قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى» [٦] ، فلا ذكر لأحقيّة علي رضي الله عنه في الخلافة أو غصبها منه ، ولا حديث في الديوان كلّه عن الوصيّ ، أو الوليّ ، أو النقباء ، أو

(١) الديوان : ٢٠٣ .

(٢) نفسه : ٤٥١ .

(٣) نفسه : ٤٥١-٤٥٢ .

(٤) نفسه : ٤٥٢-٤٥٣ .

(٥) نفسه : ٤٥٣ .

(٦) نفسه : ٤٦٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأئمة المعصومين ، أو الغيبة ، بل إنني لم أجد في حديثه عن يوم عاشوراء أي صديٍّ لذكرى مقتل الحسين بن علي رضي الله عنه التي غدت في عصره موسم المواسم عند الشيعة ، إذ يكتفي بذكر فضل هذا اليوم وتعظيمه ، وثواب صيامه ، والتوسعة على الأهل فيه [1] .

ولذلك فالخطيب بعيد كل البعد عن الشيعة وفرقها ، ولعل نسبته إلى التشيّع ، جاءت بسبب الخلط بينه وبين ابن نباتة السعدي الشاعر ، حيث عُدّ الخطيب من مشايخ الشريفين الرضي والمرتضى الشيعيين ، بدلاً منه .

وقد تأثر الخطيب بالفلسفة وعلم الكلام والجدل الذي عمّ أتباع المذاهب والفرق على اختلافها في عصره ، فاستخدم مصطلحاتهم ، وكان يرد على بعضهم ، ومن هنا ذكر الصفدي أنه يُشمُّ من بعض ألفاظ خطبه روائح الاعتزال ، وضرب المثل على ذلك بقول الخطيب : من وجب له الثواب وحقّ عليه العقاب [2] ، ويُفهم من كلام الصفدي أنه لا يريد أن الخطيب معتزلي ، وإنما أنه تأثر بهم في بعض عباراته .

ويتضح مثل هذا التأثر أيضاً فيما بحثه ابن واصل الحموي المتوفى سنة ٦٩٧هـ مع الملك المعظم توران شاه الأيوبي حول عبارة الخطيب التي افتتح بها إحدى خطبه وهي: «الحمد لله الذي إن وعد أنجز ووفّى ، وإن أوْعَد تجاوز وعفا» [3].

ولكي أدرأ عن الخطيب شبهة الاعتزال ، وأؤكد انسجامه التام وتقيّده بمنهج أهل السنة والجماعة ، رأيت أن أتعرض لموقفه المباين لأقوال المعتزلة وغيرهم ممن نفوا القدر والصفات والشفاعة ، أو قالوا بخلق القرآن وتخليد مرتكب الكبيرة في النار .

فالخطيب في وصفه القرآن ينفي خلقه بقوله فيه : «كلام من كلامه منزّل

---

(١) نفسه : ١٣٥ .

(٢) الوافي بالوفيات : ٣٣٨/١٨ ، والنص في الديوان هكذا : «ويُجمع من حقّ عليه العقاب ومن وجب له الثواب» ، ص ٦٥ ، ومثله «وحقّ عليه ثوابه أو عقابه» .

(٣) طبقات الشافعية الكبرى : ١٣٦/٨ ، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ، ص ٤٣٠ ، والخطبة في الديوان ص ١٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

غير مخلوق »[١] ، وقوله : «كلام من كلامه لا مخلوق ولا خالق»[٢] .

وأما تعليق الكندي ت سنة ٦١٣هـ على الخطيب أنه صرّح بخلق القرآن -مع اعترافه أنه كان من أهل التوحيد والسنة- في العبارة التي قال فيها في حق الله تعالى : «والمكوّن بحرف الكاف والنون» فقد أجاب عنه العكبري ت سنة ٦١٦هـ مبيناً ثلاثة وجوه تنفي تصريح الخطيب بخلق القرآن[٣] .

وهو يُثبت القدر كما في قوله : «فتبارك الذي أزمّة الأمور معقودة بإمضاء قضائه وقدره»[٤] ، ويؤكد على ذلك بقوله «وأسلّم لقضائه وقدره»[٥] وقوله «جعلنا الله وإياكم بقدره راضين»[٦] ، بل ويتسخّط على من نفى القدر أو جعله جبراً في قوله : «وعلى القدرية والجبرية سخط الله والعذاب الشديد»[٧] .

وهو يُثبت الصفات لله تعالى كما جاءت في كتابه ، فلا ينفيها ولا يؤوّلها ، ويؤكد عجز البشر عن إدراكها كما في قوله : «المنعوت بما نعت به نفسه ، والموصوف بما عظّم به قُدْسه»[٨] وقوله «بل هو سميع بصير كما وصف»[٩] ، وقوله «الحمد لله الذي ليس متجزءاً فتجتذبه مواد العناصر ، ولا متكيّفاً فيُنسب إلى الأعراض والجواهر ، ولا مجسّماً فيُدرك بإيناس النواظر ، ولا متوهّماً فيُتخيّل بإيجاس الخواطر ، ولا محدثاً فيؤول إلى النقص والتغاير ولا محدوداً فتحيط به فكر أولي البصائر ، بل هو الأزلي قبل سوابق القدم ، الأبدي بعد لواحق العدم ، الواحد الصمد الحي القدير الذي ليس كمثله شيء وهو السميع

---

(١) الديوان : ٢٥٠ .

(٢) نفسه : ٩٣ .

(٣) مخطوط شرح العكبري ، ص ٣٩ ، وانظر الديوان بشرح الجزائري ، ص ٣٣٧-٣٣٨ وحواشيهما .

(٤) الديوان : ٧٩ .

(٥) نفسه : ١٦٥ .

(٦) نفسه : ٤٨ . وانظر : ٦٠ ، ١٢٢ ، ١٤٨ ، ٢١٨ ، ٣٣١ ، ٣٧٥ ، ٤٥٧ ، ٢٤١ ، ٤٣٠ ، ...الخ .

(٧) نفسه : ٣٥٧ .

(٨) نفسه : ٢ .

(٩) نفسه : ٣٥٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البصير » [١] . ويحمد الله أن هداه لتنزيهه تعالى مما افتُرِيَ عليه ، كما في قوله : «فلك الحمد على ما أطلقت به لساني وأظهرت به بياني ، بتنزيهك عمّا نسبك إليه الملحدون ، وافتراه عليك الضُلّال الجاحدون ، الذين عجزت أفهامهم عن بلوغ معرفتك بالتحقيق ، وعزبت ألبابهم عن الوصول إلى علم وحدانيتك بالتصديق..» [٢] ، ويسأله تعالى العون على دفع الشبهات ونفيها ، وادّحاض البدع وإظهار السنن [٣] .

وكذلك فإن الخطيب يُثبت الشفاعة لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم القيامة بقوله : «وتلوذ الأمة بشفاعة محمّدها ، فخاب وخسر من حُرم شفاعته» [٤] ، وقوله «وتقبّل شفاعته في أهل التوحيد» [٥] .

وهو ينفي أن يخلّد مرتكب الكبيرة في النار ، ومما يؤكد ذلك قوله في وصف الله تعالى : «المتجاوز عن كبائر الذنوب ، الذي لا ينقص خزائنه العفو» [٦] ، وقوله : «لا كبيرة مع الاستغفار» [٧] ، وقوله : ارحم من اكتنفته سيئاته وأحاطت به خطيئاته ، ... ، ارحم من نقض العهد وغدر ، وعلى معصيتك انطوى وأصرّ ، جاهرك بجهله وما استتر ، ... ، واجترأ على سخطك بارتكاب الفحشاء» [٨] ، وكأنّ الخطيب يؤكد حديث : شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي [٩] .

يظهر في كل ما سبق انسجام الخطيب التام مع عقيدة أهل السنة ، ونقضه للمعتزلة وأهل الأهواء والبدع من القدرية ، والجهمية ، والمجسّمة ، والمشبّهة ،

---

(١) الديوان : ٣٨٣ . وانظر : ١٠ ، ٢٢ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٤٣ ، ١٥٦ ، ١٦٨ ، ١٩٠ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٧ ، ٤٣٦ ، ٤٥٩ .

(٢) نفسه : ٣٨٣ . وانظر : ٤٤٥ ، ١١٩ .

(٣) نفسه : ١٩ ، ٤٦٤ .

(٤) الديوان : ٢٤ .

(٥) نفسه : ٣٠٣ .

(٦) نفسه : ٦ .

(٧) نفسه : ٢٤١ .

(٨) نفسه : ٤٦٦/٤٦٧ .

(٩) صحيح سنن ابن ماجه : ٤٣١/٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والجبرية وغيرهم .

ويجد القارئ في الديوان ميلاً إلى أهل الحقيقة -المتصوفة- فالخطيب يستخدم مصطلحاتهم ، ويستحسن طريقتهم ، ويثني عليهم في حديثه عن عبادتهم، ومجاهداتهم ، وزهدهم ، وفضلهم ، ومآلهم ، ويتجلى ذلك فيما عرف في الديوان بالخطبة الصوفية وفيها : «وانظروا لنفوسكم نظر أولي الأحلام الثقال ، وادّخروا ذخائركم حيث ذخائر الأبدال ، الذين قنعوا النفوس بسياط الإشفاق ، وقطعوا الأطماع بسيوف الإملاق ، وقمعوا الأهواء بذكر يوم التلاق ، وكرعوا من المصافاة كؤوساً حلوة المذاق ، ونزّهتهم الهمم العلوية عن دنيّات الأخلاق ، ونبّهتهم القِسم القدسية على الوفاء بالميثاق ، ... ، تسمع لقلوبهم من خوف مأمولهم وجيباً ، ويُبدي لهم اشتياقهم إليه زفيراً ونحيباً ، قد جعلوا ذكرهم له من الدنيا نصيباً ، ولم يجدوا لدائهم سواه طبيباً ، ... ، وجنّبوا الجنوب مهاد الفُرُش الوثيرة ، وغسلوا الذنوب بفيض الأدمع الغزيرة ، وعقلوا القلوب بعُقل الصبر المريرة ، وآثروا المحبوب بنفائس الأنفس الأثيرة ، وصححوا معاملة عالم الإعلان والسريرة ، فأعاضهم قُرر الأعين القريرة ، وأنالهم غرائب النعم الخطيرة ، وتوّجهم بتيجان الكرامة ، وزوّجهم بالحور الحسان في دار المقامة ، ... قد أنِسوا فيها بجوار الجبار، وكوشفوا بحقائق سرائر الاختيار ، وتبوّأوا منازل الشهداء والأبرار ...» [1] .

ويصفهم في موطن آخر أنهم الذين شمّروا للسباق فأحرزوا قصباته ، وأدركوا بمكارم الأخلاق أبعد غاياته ، فهم في رياض الأماني يرتعون ، ومن حياض المصافاة يكرعون ، قد كاشفهم الجواد بمحض الوداد وأوْجب لهم المزيد على المراد ، فهم الباكون إذا ضحك الغافلون ، والتاركون لما أخذ به الجاهلون ، والساهرون إذا رقد النوّام ، والمستأنسون إذا أوحش الظلام ، لأنهم أهل الله وأولياؤه ، وخاصّته وأمناؤه ، تعبوا قليلاً فاستراحوا طويلاً ، وبذلوا يسيراً فحصّلوا كثيراً ، وجادوا بالنفوس فجاد عليهم بالمنفوس [2] .

---

(١) الديوان : ٩٨-١٠٠ .

(٢) نفسه : ٣٤٨-٣٤٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد انتشرت في عصر الخطيب مذاهب وطرق كثيرة ، منها طريقة أهل الحقيقة -المتصوفة- الذين لم يكتفوا بالتوقف عند معرفة الأحكام الفقهية العامة في المعاملات والعادات والعبادات وأدائها على الهيئة التي أمروا بها ، وإنما بحثوا عن نتائجها في الأذواق والمواجد المرافقة لها ليطلعوا على أنها خالصة من التقصير ، ولذلك قاموا بالمجاهدات ومراقبة النفس ومحاسبتها ليتحصلوا على مقام يترقّون منه إلى غيره ، ومن هنا اختُصّوا في التعبير عن كل ذلك بطريقة يسلكونها ومصطلحات يستخدمونها وأصول يتمسكون بها [١] .

وقد ذكر أبو القاسم النصر أباذي المتوفى سنة ٣٦٧هـ أنّ من أصول التصوف: ملازمة الكتاب والسنة ، وترك الأهواء والبدع ، والمداومة على الأوراد ، وترك ارتكاب الفحشاء والرخص والتأويلات ، واستعمال الأخلاق الجميلة [٢] .

وذكر أبو القاسم القشيري المتوفى سنة ٤٦٥هـ عند حديثه عن اعتقاد هذه الطائفة في مسائل الأصول أنّ شيوخها بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة في التوحيد ، صانوا بها عقائدهم من البدع ، ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة ، وأنّهم أحكموا عقائدهم بواضح الدلائل ولائح الشواهد فمن ركن إلى التقليد ولم يتأمّل دلائل التوحيد سقط عن سنن النجاة ووقع في أسر الهلاك [٣] .

ونرى الخطيب يندغم معهم في التعبير عن مذهبه في التوحيد بقوله: وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة صادق لا متردد ، متحقق غير مقلد [٤] ، وقوله : شهادة من أبْصَر بعين التحقيق ، وسلك إلى الله قصد الطريق [٥] ، وقوله : شهادة من صدع بالتوحيد لسانه ، ونزع عن التقليد جَنانُه [٦] . ويتابع الخطيب وصفه لهم في بعض مقدمات خطبه بألفاظهم ومصطلحاتهم قائلاً : الحمد لله الذي

(١) مقدمة ابن خلدون : ١٠٩٩/٣-١١٠٠ .

(٢) طبقات الصوفية : ٤٨٨ .

(٣) الرسالة القشيرية : ٥ .

(٤) الديوان : ٣٣٧ .

(٥) نفسه : ٣٥٧ .

(٦) نفسه : ٨٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أشرقت بنوره مصابيح قلوب أوليائه ، وانخرقت لهم بتبصيره حُجب المكاشفة عن شواهد آلائه ، فآنسوا بنواظر الفكر في أنوار بهائه ، موجوداً غير معدوم في جميع صنائعه ، واستسلموا عند تحققهم به إلى ما ضرّ ونفع من قضائه ، وتعلقت أسبابهم بسبب منه لا قرار لهم عنه دون لقائه [١] ، وقوله : الحمد لله المخوف مكره... الذي ضوّأ قلوب الخائفين بمصابيح أُنسه ، وبوّأ همم العارفين مقاعد العز من قدسه [٢] .

وينطلق الخطيب موجّهاً الناس إلى تمثّل أخلاقهم وصفاتهم كما في قوله : جافوا الجنوب عن وثير المهاد وامنعوا العيون لذيذ الرقاد [٣] ، وقوله : فاهجروا -رحمكم الله- وثير المراقد [٤] ، وقوله : وطهروا درن الذنوب بفيض العبرات [٥] ، وقوله : وأديموا ذكر هادم اللذات في مواطن الخلوات [٦] وقوله : أعذبوا ألسنتكم بحقائق الذكر ،... وأنيروا قلوبكم بمصابيح الفكر [٧] وقوله : اتعبوا للراحة ، وازهدوا للإباحة ، واعملوا للرفاهة ، واخملوا للنباهة [٨] .

بل إننا نجد الخطيب يدعو الله للمسلمين ولنفسه أن يجعلهم ممن يتمتعون بأخلاق المتصوفة وصفاتهم كما في قوله : جعلنا الله وإياكم ممن نفى لعبه بِجِدّه ، وجعل أربه في انحرافه عن الدنيا وزهده ، وأدام تعبه للخلاص بجهده ، واشترى نفسه من الله باليسير من وجده [٩] ، وقوله : جعلنا الله وإياكم ممن استزاد بشكره

---

(١) الديوان : ٣٣١ .

(٢) نفسه : ١٦٥ .

(٣) نفسه : ٢٠٣ .

(٤) نفسه : ٨٩ .

(٥) نفسه : ٣٥١ .

(٦) نفسه : ١١٦ .

(٧) نفسه : ١٤ .

(٨) نفسه : ٣٥٠ .

(٩) نفسه : ١٢١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مذخور مزيده ، وأمِن بإدمان ذكره محذور وعيده [١] . وقوله : جعلنا الله وإياكم ممن قَدَرَ قدره فقبل أمره ، وأدام في الخلوات ذكره [٢] ، وقوله : اللهم اجعلنا به من الذين جدّوا في قصدك فلم ينكلوا ، وسلكوا الطريق إليك فلم يعدلوا ، واعتمدوا في الوصول عليك حتى وصلوا فرويت قلوبهم من محبتك ، وأنست نفوسهم بمعرفتك [٣] .

ثم نجده يجهر أمام الملأ بدعوة صريحة إلى ضرورة سلوك مسلكهم والاقتداء بهم واتباع طريقتهم التي وصفها في الخطبة المعروفة بالصوفية وذلك بقوله : ألا فاسلكوا سبيل من هذه سبيله [٤] .

لقد كان كثير من المتصوفة على رأس المرابطين والمتطوعين للجهاد ، ولهذا انتشروا بكثرة في الثغور وما حولها ، وقد عبّر عن ذلك ابن أبي الحواري المتصوّف المتوفى سنة ٢٣٠هـ بقوله : في الرباط والغزو نِعْم المستراح إذا ملّ العبد العبادة استراح إلى غير معصية [٥] . وعندما اشتدّ الخطر على الثغور الممتدة على حدود الروم بعد سقوط حلب سنة ٣٥١هـ فزع المتطوعون من المتصوفة وغيرهم فتوافدوا تباعاً من كور خراسان وبلاد الشام ومدائن العراق وغيرها لنجدة إخوانهم في الشام ، فكانوا عوناً لهم وسنداً [٦] ، وبهذا أتيح لهم الاختلاط مع أهل الشام على نطاق أوسع .

إنّ أحداً لم يصرّح بعدّ الخطيب من المتصوفة على الرغم من أنني أجد أنه متّبع لطريقتهم ومقتف لأثرهم ، دائر في فلكهم ، لعدة أمور منها : وصفُه الدقيق لهم ، ومعرفته بأحوالهم ومجاهداتهم واستخدامه مصطلحاتهم وألفاظهم في

---

(١) الديوان : ٢٤٨ .

(٢) نفسه : ٩٦ .

(٣) نفسه : ٤٦٥ .

(٤) نفسه : ١٠٠ .

(٥) طبقات الصوفية : ١٠١ .

(٦) انظر الوفود سنة ٣٥٢هـ . الديوان : ٢٠٢ . وانظر وفود سنة ٣٥٣هـ وسنة ٣٥٥هـ وسنة ٣٥٨هـ في الكامل ٨٢/٧ . تاريخ الإسلام : ٣٥/٢٦ . وطبقات الشافعية الكبرى : ١٧٦/٢ ، ١١٢/٤ وغير ذلك .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العديد من خطبه ، مما يوحي إلى أنّ علاقته بهم لم تقتصر على الاطلاع ، وإنما تعدّتها إلى المشاركة والممارسة ، ومن هنا كان توجيهه للناس إلى سلوك مسلكهم ، وكذلك دعاؤه أن يكون مثلهم ، ولئن كان يدعو الناس إلى اتباعهم فهو أولاهم بما أمر ، والناظر في الديوان يرى كثرة الشواهد الدالة على ذلك ، وما تسْمية خُطبةٍ بالصوفية إلا برهان ساطع على ذلك .

ومن آثار التصوّف عنده التوسل إلى الله بالنبي وعترته وبالخيرة الأبرار من خلقه للاستسقاء أو الدعاء ، يقول الخطيب : فنسألك اللهم ببلاغه عنك ، وقُرْبه منك ، وجاهه المقبول لديك ، وحقه الذي لا يخيب من توسل به إليك ، أن تجعل القرآن لنا إلى كل خير قائداً ، وعن كل سوء ذائداً ..» [1] ، وقوله : نتوسل إليك بمحمد سيد المنتجبين ، وبعترته الخِيرة الأبرار الطيبين ، أن تجعلنا في هذه الليلة من المرحومين ، وأن لا تردّنا بالخيبة محرومين [2] ، وقوله : نسألك بالخيرة الأبرار من خلقك أن تنشئ لنا سحاباً غدقاً مدراراً [3] .

ومنها أنّ ما عُرف عن الخطيب من أخلاق وصفات ، أبرزها كونه رجلاً صالحاً خيّراً ديّناً ورعاً ، يُناسب أخلاق وصفات أهل هذه الطريقة ، ولا يتعارض معها .

ومنها أنّ لقب الشيخ الذي عُرف به الخطيب من الألقاب التي تطلق على أهل الصلاح والصوفية مما يُقوّي الاعتقاد بأنه من متصوفة أهل السنة .

وفاته :

نقل ابن خلكان عن ابن الأزرق أنّ وفاة الخطيب كانت بميافارقين سنة ٣٧٤هـ وتابعه على ذلك أغلب من ترجم للخطيب [4] .

---

(١) الديوان : ٤٤٩ .

(٢) نفسه : ٤٦٧ .

(٣) نفسه : ٢٦٢ .

(٤) وفيات الأعيان : ١٥٧/٣ . المختصر ، المجلد الأول ، ١٢٤/٢ . تتمة المختصر : ٤٦٠/١ . سير أعلام النبلاء : ٣٢٢/١٦ . العبر : ١٤٣/٢ . مرآة الجنان : ٤٠٣/٢ . البداية والنهاية : ٣٠٣/١١ . شذرات الذهب : ٣٩٧/٤ : ديوان الإسلام : ٣٤٠/٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد أخطأ القنوجي والزركلي في تحديد مكان وفاته ، فجعله الأول ببغداد ، لأنه خلط بين الخطيب ابن نباتة الفارقي والشاعر ابن نباتة السعدي المتوفى ببغداد ، وأما الثاني فذكر أن وفاته كانت بحلب [١] .

كما شكك بعض المؤرخين في تأريخ وفاته ، فبعد أن نقل عن سبط بن الجوزي قوله : وتوفى سنة أربع وسبعين وثلاثمائة ، وقيل قبل السبعين وثلاثمائة ، تأثر الصفدي بذلك فقال : وكأنهم غلطوا في مولده أيضاً» أي لعلّهم غلطوا في مولده كما غلطوا في تاريخ وفاته [٢] .

وكان الذهبي قد ذكر وفاة الخطيب في تاريخ الإسلام مرتين ، الأولى تحت باب المتوفّين في عشر السبعين وثلاثمائة تقريباً لا يقيناً [٣] ، والثانية ضمن وفيات سنة ٣٧٤هـ وهي السنة التي حددها لوفاة الخطيب في بقية مصنفاته [٤] .

وأرى أنّ التأريخ الصحيح لوفاة الخطيب ما اتفق عليه أغلب المترجمين ، وأما التشكيك فيه بالاقتصار على استخدام صيغ مثل «تقريباً لا يقيناً» و«كأنهم» دون تحديد مصدر السماع ، أو النقل ، أو بيان الدليل على قوة هذا الشك وصحته، فإنه مدعاة لإضعاف هذا الشك ونبذه ، إضافة إلى أن الترتيب الذي نُقل عن سبط ابن الجوزي وسار عليه الذهبي في بقية مصنفاته ، يصبّ في مجرى الأغلبية التي سلّمت أنّ سنة ٣٧٤هـ هي السنة التي كانت فيها وفاة الخطيب .

وقد أخطأ ابن قنفذ المتوفى سنة ٨١٠هـ عندما جعل وفاة الخطيب سنة ٤٠٩هـ [٥] ، وكذلك الأعلمي عندما جعلها سنة ٥٦٨هـ [٦] ، فهما تاريخان بعيدان كل البعد عن التاريخ المقبول والمعقول .

---

(١) ابجد العلوم : ٨٠/٣ . الأعلام : ٢٤٨/٣ .

(٢) الوافي بالوفيات : ٣٨٨/١٨ .

(٣) تاريخ الإسلام : ٤٦٩/٢٦ .

(٤) تاريخ الإسلام : ٥٥٩/٢٦ . وانظر : سير أعلام النبلاء : ٣٢٢/١٦ . العبر : ١٤٣/٢ . المشتبه في الرجال أسمائهم وأنسابهم : ٩٣/١ . الإعلام بوفيات الأعلام : ١٥٩ . دول الإسلام : ١٧٩/١ .

(٥) الوفيات : ٢٣١ .

(٦) دائرة المعارف (مقتبس الأثر) : ١١٤/٢١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجاء في الغدير للأميني أنّ وفاة الخطيب كانت سنة ٣٩٤هـ ، والظاهر أنه خطأ مطبعي بدليل أنه أورده مرة أخرى سنة ٣٧٤هـ في الكتاب نفسه [1] .

وأما وفاة الخطيب فقد جاءت بعد مدة يسيرة من رؤيته رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في المنام ، فقد ذكر تاج الدين الكندي المتوفى سنة ٦١٣هـ بإسناده المتصل إلى الخطيب أنه قال : لما عملت خطبة المنام وخطبت بها يوم الجمعة ، رأيت ليلة السبت في منامي كأني بظاهر ميافارقين عند الجبّانة ، فقلت : ما هذا الجَمْع ؟ فقال لي قائل : هذا النبي -صلى الله عليه وسلم- ومعه أصحابه ، فقصدت إليه لأسلّم عليه ، فلما دنوت منه التفت فرآني ، فقال : مرحباً يا خطيب الخطباء ، كيف تقول ؟ وأومأ إلى القبور ؛ فقلت : لا يُخبرون بما إليه آلوا ، ولو قدروا على المقال لقالوا ، قد شربوا من الموت كأساً مُرّة ، ولم يفقدوا من أعمالهم ذرة ، وآلى عليهم الدهر أليّة برّة ، أن لا يجعل لهم إلى دار الدنيا كرّة ، كأنهم لم يكونوا للعيون قرّة ، ولم يُعدّوا في الأحياء مرّة ، أسكتهم والله الذي أنطقهم ، وأبادهم الذي خلقهم ، وسيُجدُّهم كما أخلقهم ، ويجمعهم كما فرّقهم ، يوم يعيد الله العالمين خلقاً جديداً ، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقوداً ، يوم تكونون شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيداً ، وأومأت عند قولي «تكونون شهداء على الناس» إلى الصحابة ، وبقولي شهيداً إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تودّ لو أنّ بينها وبينه أمداً بعيداً .

فقال لي : أحسنت ، ادنُ ، فدنوتُ منه -صلى الله عليه وسلم- فأخذ بوجهي وقبّله ، ثم تفل في فيّ ، وقال : وفّقك الله ، قال : فانتبهت من النوم وبي من السرور ما يجلّ عن الوصف ، فأخبرت أهلي بما رأيت .

قال الكندي بروايته : وبقي الخطيب بعد هذا المنام ثلاثة أيام لا يطعم طعاماً ولا يشتهيه ، ويوجد من فيْه رائحة المسك ، ولم يعش إلا مدة يسيرة ، ولما استيقظ الخطيب من منامه كان على وجهه أثر نور وبهجة لم تكن قبل ذلك ، وقصّ رؤياه

---

(١) الغدير : ٤/١٨٤ ، ٤/٢٧٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على الناس ، وقال : سمّاني رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خطيباً ، وعاش بعد ذلك ثمانية عشر يوماً لا يستطعم فيها طعاماً ولا شراباً من أجل تلك التفلة وبركتها ، وهذه الخطبة التي فيها هذه الكلمات تُعرف بالمناميّة لهذه الواقعة [١] .

وتتفق أكثر المصادر على رؤية الخطيب لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- في المنام قبل موته ، ولا تختلف إلا في المدة التي قضاها حياً بعد هذه الرؤية [٢] ، والذي يعنينا أنها مدة يسيرة لا تتجاوز الشهر .

وذكر د. زكي مبارك أنّ هذه الرؤية التي كانت بمثابة أمنيّة تحققت له ، تدل على منحاه كخطيب ، وأنها لا تدل على شيء أكثر من شغفه بما يطمئنه على مصيره ومصير عمله ، ولذلك فالرسول -صلى الله عليه وسلم- عندما تراءى له لم يحدثه إلا بما يحب هو أن يتحدث به ، ولم يسأله إلا في مجال اهتماماته ، ومثل هذه الرؤى ما يزال يتكرر في عقلية الواعظين حتى يومنا هذا [٣] .

وإني لا أنكر صحة رؤية الرسول -صلى الله عليه وسلم- في المنام ، وهو مما ينبغي لكل مسلم ، لأنها حق ثابت في الأحاديث الصحيحة [٤] ، لا سيما إذا كان الرائي رجلاً صالحاً كرّس حياته لطاعة الله ووعظ الناس ، وقد صرّح الخطيب برؤيته قبل أن يموت بمدة يسيرة ، وكأنّ ذلك مؤشرٌ إلى حُسن الخاتمة التي كان يتمنّاها .

وقد اشتهرت هذه الرواية وذاعت بين الناس ، حتى إنّ بعضهم استدلّ بها على دنوّ أجله فصدق ذلك ، إذ ذُكر عن الفقيه عثمان الغاني السكسكي المتوفى سنة ٧١٣هـ وكان زاهداً متعبداً ورعاً ، أنه أسرّ إلى ابن أخته أنه لن يعيش إلا مدة

(١) وفيات الأعيان : ٣/١٥٦-١٥٧. والخطبة في الديوان : ٩٤-٩٧. وانظر مخطوط الديوان-برلين ورقة ٦ ، ٧.

(٢) تتراوح هذه المدة بين ١٢ يوماً : العقود اللؤلؤية (١/٤٠٨) ، ونصف شهر : الوفيات لابن قنفذ (٤٣١) ، وسبعة عشر يوماً : ابن كثير (١١/٣٠٣) ، وثمانية عشر يوماً وعليه أغلب الروايات : تاريخ الإسلام (٢٦/٥٥٩) ، سير أعلام النبلاء (١٦/٣٢٢) ، مرآة الجنان (٢/٤٠٣) ، الوافي بالوفيات (١٨/٣٨٩) ، وثمان وعشرين ليلة : شذرات الذهب (٤/٣٩٨) ، ومنهم من اكتفى بالقول إنها مدة يسيرة وهو المراد : مخطوط برلين (٧) ؛ المختصر (المجلد الأول : ٢/١٢٤) ؛ تتمة المختصر (١/٤٦٠) .

(٣) النثر الفني في القرن الرابع الهجري : ٢/١٩٣-١٩٤ .

(٤) انظر صحيح الجامع الصغير وزياداته : ٥/٢٩٣-٢٩٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يسيرة ، ولما سُئل عن سبب ذلك ، قال : إنه رأى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في المنام وقد دنا منه ثم قبّله بين عينيه ، مستدلاً برؤية الخطيب التي لم يعش بعدها إلا أياماً ، وكان كذلك فقد توفي هذا الفقيه بعد عشرين يوماً [١] .

مكانته :

تبوّأ الخطيب في حياته مكانة مرموقة بين أبناء مجتمعه ، ولعل في الوظيفة التي شغلها وأدّاها على أتمّ وجه خير دليل على سمو منزلته وعلوّها .

وأما مكانة الخطيب بعد وفاته فلم تقِلّ عنها في حياته ، وبرز ذلك عبر تعدد مظاهر الاهتمام التي أبداها اللاحقون بديوان خطبه ، إذ تناقلوا روايته وأقبلوا على سماعه ونسْخه ، حتى شُهر بين الناس ، وذاع صيته ، وسار بين الأقطار ، وقد أجمعوا على تفضيله واستحسان ما فيه حتى غدا مضرب المثل ، فحفظوه ، وشرحوه ، وحذوا حذوه وسلكوا مسلكه ، وعارضوه ، وانتقدوه وهم في ذلك يُطرون الخطيب ، ويعدّونه من الفحول المتقدمين .

فمن إحدى إجازات الديوان ورواياته ، ما جاء في الإجازة المسمّاة بالكبيرة ، وهي إجازة العلاّمة أبي منصور الحسن بن الشيخ السعيد سديد الدين أبي المظفر يوسف بن علي بن المطهر الحلّي لبني زهرة الحلبي وفيها : «ومن ذلك خطب ابن نباتة ،وخطب ولده عنّي ، عن والدي -رحمه الله- عن علي بن المنداني ، عن أبي الفرج محمد بن علي بن حمزة القُبَّيْطي ، عن أبي إسحق إبراهيم بن محمد بن نبهان الرقيّ ، عن أبي القاسم يحيى بن طاهر بن محمد ، عن أبيه أبي الفرج طاهر بن محمد ، عن أبيه أبي طاهر محمد بن عبدالرحيم» [٢] .

ومما يدل على إجماع الناس على تفضيل ديوانه واستحسان ما فيه شواهد كثيرة ، سأكتفي بنقلها دون مناقشة ، لأن الهدف منها هنا إبراز مكانة الخطيب وديوانه عند الناس ، وأما مناقشتها فتدخل ضمن دراسة موضوعات الديوان وأساليبه الفنية ، وهو مما سيُبحث لاحقاً في الفصول اللاحقة .

---

(١) العقود اللؤلؤية : ٤٠٨/١ .

(٢) بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار : ٩٣/١٠٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن هذه الشواهد ما يلي :

١ - ما قاله أبو الحسن علي بن الحسن المعروف بشُميم الحلّي المتوفى سنة ٦٠١هـ لياقوت الحموي لدى زيارة الأخير آمد سنة ٥٤٤هـ ، وفيه : ورأيت الناس مُجمعين على تفضيل خطب ابن نباتة فصنّفت كتاب الخطب ، فليس للناس اليوم اشتغال إلا بخطبي » [١] .

ثم قوله في الإجابة على سؤال ياقوت عمن يُرضيه ممن تقدم من العلماء : لا أعلمه إلا أن يكون المتنبي في مدحه خاصة ، أو ابن نباتة في خطبه ، و[ابن] الحريري في مقاماته ، فهؤلاء لم يُقصّروا » [٢] .

٢ - قول ابن خلكان «ورزق السعادة في خطبه التي وقع الإجماع على أنه ما عُمل مثلها » [٣] .

٣ - قول عز الدين بن الأثير «ويكفيهم شرفاً أنّ مثل أبي يحيى عبدالرحيم ابن محمد بن إسماعيل بن نباتة النباتي منهم ، صاحب الخطب المشهورة التي لم يعمل أحد مثلها لا قبله ولا بعده » [٤] .

٤ - قول المؤرخ ابن كثير : ولم يُسبق إلى مثل ديوانه هذا ، ولا يُلحق إلا أن يشاء الله شيئاً » [٥] .

٥ - قول ابن فضل الله العمري «وهي اليوم لا يعلو ذرى المنابر أبلغ من خطبها ، ولا يعلق القلوب بأمْسَك من سيْبها ،... وكل الخطباء عليه عَوَلة ، ولديه لا تجول معه في ميدان جولة ، ولولا الاضطرار إلى إثبات بعض خطبه ... لما أثبتّ شيئاً من ديوانه لمسيره في الأقطار ، من شهرته التي هي السبب في عدم الإقصار » [٦] .

---

(١) معجم الادباء : ٥٣/١٣ .

(٢) نفسه : ٥٧/١٣-٥٨ . وانظر : ٢٦٨/١٦ .

(٣) وفيات الأعيان : ١٥٦/٣ .

(٤) اللباب في تهذيب الانساب : ٢١١/٣ .

(٥) البداية والنهاية : ٣٠٣/١١ .

(٦) مسالك الأبصار : ٢٦٥/١٣ ، ٢٦٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٦ - ذكر القلقشندي في حديثه عن توارد المعنى أو التكرار أنّ علي بن طلحة قد أتى في كتابه الاقتداء بالأفاضل بالعجب العجاب من ذلك ، لأنه استحسن كلام الخطيب ابن نباتة الفارقي ، والأمير قابوس الخراساني ، والوزير أبي القاسم المغربي ، والصاحب بن عبّاد ، وأبي إسحق الصابئ الذين هم رؤساء الكتابة والخطابة من الرسائل والعهود البديعة والخطب الموجزة الرقيقة ، ثم جرّد معانيها من ألفاظها ، واخترع ألفاظاً غير ألفاظها مع زيادة تنميق ومراعاة ترصيف على أتمّ نظام وأحسن التئام» [١] .

٧ - قول ضياء الدين بن الأثير «ولقد تصفّحت المقامات الحريرية والخطب النباتية على غرام الناس بهما وإكبابهم عليهما ، فوجدت الأكثر من السجع فيها على الأسلوب الذي أنكرته» [٢] .

٨ - قول الصفدي «وخُطبه أحسن من كلّ الخطب التي جاءت بعده ، وجميع سجعها مُعرَب ، بخلاف المقامات ، فإنها لا يلتزم الحريري إعرابها اتكالاً على الوقوف على الساكن» [٣] .

ومما يدل على عناية القدماء باستظهار ديوان ابن نباتة -أو بعضه- حفظاً مايلي :

١ - ذكر ابن الفوطي في ترجمته لعين الدين أبي العباس أحمد بن محمد السيواسي أنه رجل فاضل قد حفظ الخطب النباتية وغيرها [٤] .

٢ - ما ذكره الصفدي مما يحتاجه الكاتب في صناعته ، كمراجعة أمهات كتب الأدب مثل الأغاني والعقد والبيان والتبيين ... وحفظ جانب جيد من المقامات والخطب النباتية،وبعض شعر المتنبي وأبي تمام والبحتري وسقط الزند وغير ذلك [٥] .

---

(١) صبح الأعشى : ٣١٤/١ .

(٢) المثل السائر : ٣١٥/١ .

(٣) الوافي بالوفيات : ٣٨٨/١٨ .

(٤) تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب : (١١٢١/٢) .

(٥) نصرة الثائر على المثل السائر : ٦٣-٦٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣ - ما ذكره ضياء الدين بن الأثير عن الناس وعن نفسه : ومن الناس من ذهب إلى الإكثار من حفظ الخطب والرسائل المتقدمة ... حتى إنني حظرت على نفسي حفظ شيء من مقامات الحريري وخطب ابن نباتة ، وهما عكاز أهل الزمان ، من متعاطي هذه الصناعة [١] .

ومما يدل على سلوك مسلكه ما قاله ابن المستوفي المتوفى سنة ٦٣٧هـ في ترجمة أبي عبدالله محمد بن تيمية الحراني المتوفى سنة ٦٢٢هـ وفيه : رأيت له مجلداً سمّاه «تحفة الخطباء من البرية في الخطب المنبرية» يحتوي على خطب من إنشائه سلك فيها مسلك ابن نباتة [٢] .

وكذلك ما جاء في مقدمة ديوان خطب ابن حجر العسقلاني الهيثمي المتوفى سنة ٩٧٤هـ وفيه : فشرعت في إنشاء خطب سهلة المساق ، عذبة المذاق،... وسمّيتها النّخب الجليلة في الخطب الجزيلة ، ولا أدعي لحاق ابن نباتة في هذا الشأن ، ولا مجاراته في هذا الميدان ، فإن لخطبه مزية لا يحصيها الأدب ، وعناية تقول لصاحبها وإن أحسن : حَكَيْت ولكن فاتك الشّنب ، فنحن نحوم حول حماها ، ونلمّ بالارتشاف من عذب لماها [٣] .

بل إننا نجد الصفدي يحث على ذلك في رده على ابن الأثير الذي قال في ذمّ الدنيا ما لم يُعجبه بقوله : أكذا توصف الدنيا في حالة الذمّ ؟ أتراه ما سمع بشيء من كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ؟ .. أما سمع بشيء من قول أبي العتاهية وصالح بن عبدالقدوس ومحمود الورّاق ومن تعرّض لذمّها من الشعراء كالمتنبي وأبي تمام وغيرهما ؟ ... دع كل ذا ، أما وقف على الخطب النباتية ورأى كلامه فيها فيحذو حذوه ويتلو تلوه» [٤] .

وممن عارض الديوان السيد الشريف شهاب الدين أبو عبدالله الحسين بن

---

(١) الوشي المرقوم : ٥٠ .

(٢) تاريخ إربل (نباهة البلد الخامل بمن ورده من الأفاضل) : ٩٦/١ . وانظر : وفيات الأعيان : ٣٨٧/٤ .

(٣) النّخب الجليلة في الخطب الجزيلة : مقدمة الديوان : ٣ .

(٤) نصرة الثائر على المثل السائر : ١١٦-١١٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحسني الموسوي المعروف بابن قاضي العسكر المتوفى سنة ٧٦٢هـ في ديوان خطبه الذي صنّفه وسمّاه «المقال المحبّر في مقام المنبر» [١] .

وأما ضرب المثل بالديوان وبخطابة ابن نباتة للمقارنة وغير ذلك فشواهده كثيرة منها :

١ - ما قاله ابن نباتة المصري في نسخة توقيع بخطابة الجامع الأموي لأحدهم : ومَن إذا ضُرب المثل بالخطابة النباتية في حلب قال لخطابته بدمشق : إياك أعني فاسمعي يا جارة» [٢] .

٢ - قول القفطي المتوفى سنة ٦٢٤هـ في ترجمة عمر بن خلف بن مكي الصقلّي وفيه : وكان يخطب الخطب ، يخطب في كل جمعة بخطبة من إنشائه تفوق خطب ابن نباتة [٣] .

٣ - ما حكاه أبو شامة المقدسي ت سنة ٦٦٥هـ في خطبة ابن الزكي بتحرير بيت المقدس وفيه : فهو لِنشر المعاني أضمّ خطيب ، له بنشر المعالي أضْمخُ طيب ، فأين قس في عكاظِهِ من قياس ألفاظه ؟ وأين سحبان من سجعاته ؟ وأين ابن نُباتة من نَباته ؟ ولو عاشا لافتقرا إلى فقره ، واحتقرا أعراضهما عند جوهره [٤] .

٤ - ما قاله ابن فضل الله العمري في ابن قاضي العسكر وفيه : خطيب منبر تُورق بخطبه أعواده ، وكأنّ النفوس مداده ، ... وله ديوان خطب أخمل ابن نباتة ، وترسّل فضل الفاضل وفاته ، ونظم ترك ابن عمه الرضيّ لا يرضى أناته» [٥] .

---

(١) الدرر الكامنة ٢/١٥٣-١٥٥ . هدية العارفين : ١/٣١٥ .

(٢) صبح الأعشى : ١٢/٣٤٤-٣٤٥ .

(٣) إنباه الرواة على أنباه النحاة : ٢/٣٢٩ .

(٤) كتاب الروضتين : ٢/١٠٩ .

(٥) مسالك الأبصار : ١٣/٢٣٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٥ - ما ذكره القلقشندي على لسان الصفدي من إجازة للخطيب القاضي شهاب الدين أحمد الحنبلي ، وفيها : وأتى فيه ببدائع ما تَساوى ابن الصيرفي ولا ابن نباتة عندها بِحبّةٍ ، وخطب فصدع القلوب وأجرى ذَنوب المدامع من أهل الذُّنوب ، ... كأنما هو في حُلّة الخطابة بدر غمامة ، أو منبر غصن وهو فوقه حمامة ، .. لو رآه ابن نباتة ما أورقت بالفصاحة أعواده ، أو ابن المنير ما رقمت بالبلاغة أبرادُه ، أو ابن تيمية ما حظيت بالجدود أجداده .. [١] .

٦ - ما ذكره الخطيب العمري في ترجمة الشيخ عثمان بن يوسف الخطيب المتوفى بعد سنة ١١٤٠هـ وفيه : قضى عمره بالذكر والعبادة ، ففاز بالحسنى وزيادة ، وأما خطبته فكانت أفصح من الخطب النباتية » [٢] .

٧ - ما ذكره محمد الحلبي ت سنة ١١١١هـ في ترجمة السيد عبدالله بن محمد حجازي وفيه : وملك براعة ابن العميد وأحرز خطب ابن نباتة وبداهة عبدالحميد [٣] . وفي ترجمة أحمد بن عبدالله بن أبي اللطف البَرّي وفيه : إذا قام على أريكة مِنبر شهد ببلاغته العالم من فاجر ومن برّ ، فلو رآه سحبان لاستحيى من أن يقول أما بعد ، أو سمع ابن نباتة خطبه قال : هذا سعد لم ينله بنو سعد [٤] .

وقد شرح القدماء الديوان شروحاً عدّة [٥] .

ولم تقتصر العناية بالخطيب وديوانه على القدماء ، فقد عُني المحدثون به كذلك ، وتتمثّل أهم جهود المحدثين التي تبرز اهتمامهم بالخطيب وديوانه فيما يلي :

١ - طبع الديوان ونشره عدة مرات [٦] .

---

(١) صبح الأعشى : ٢٧٦/١٤ ، وقد شرح القدماء الديوان شروحاً عدة .

(٢) منهل الأولياء : ١٧٧/٢ .

(٣) نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة : ٥٧٣/٢ .

(٤) نفسه : ٣٦٢/٤ .

(٥) يأتي الكلام عنها في الدراسة التوثيقية .

(٦) يأتي الكلام عنها في الفصل الثاني في الدراسة التوثيقية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢ - شرح الديوان من قبل العلامة طاهر الجزائري [١] .

٣ - مجموعة من الدراسات التي كانت تهتم بالأدب العباسي وسيف الدولة ، وقد تناولت هذه الدراسات بشكل مبسط وموجز القضايا التالية المتعلقة بالخطيب وديوانه ، وهي :

أ - التعريف بالخطيب وذلك بالنقل عن المصادر القديمة ، لا سيما وفيات الأعيان .

ب - اقتباس بعض الخطب من الديوان أو أجزاء منها .

جـ - الحديث عن موضوعات الديوان .

د - ذكر بعض الخصائص الأسلوبية للخطيب ومقارنته بآخرين .

هـ - تحديد زمن نشرات الديوان ومكانها ، ورصد شروحه .

و - الحديث عن تطور فن الخطابة في العصور العربية المختلفة قبل الخطيب وبعده .

ومن هذه الدراسات ما قام به د. زكي مبارك ، ود. عبداللطيف حمزة ، وعمر فروخ ، وسامي الكيالي ، ود. فيصل السامر ، ود. مصطفى الشكعة ، وأنيس المقدسي [٢] .

ولم أجد أحداً -فيما بحثت- قد تعرض لدراسة الخطيب وديوانه دراسة علمية منفردة تفيه حقه ، على الرغم من تعدد أشكال الاهتمام به على مرّ العصور .

---

(١) يأتي الكلام عنها في الفصل الثاني في الدراسة التوثيقية .

(٢) وهي على الترتيب كالآتي :

النثر الفني في القرن الرابع الهجري ٢/١٩٢-١٩٩ .

أدب الحروب الصليبية ٢١٤-٢٢١ .

تاريخ الأدب العربي في الأعصر العباسية إلى آخر القرن الرابع الهجري : ٥٢٧-٥٣١ .

سيف الدولة وعصر الحمدانيين ١٧٣-١٧٨ .

الدولة الحمدانية في الموصل وحلب ٢/٢٩٩ ، ٣٠٠

سيف الدولة الحمداني ٢٠٩-٢١١

الفنون الأدبية وأعلامها ٣٩٧ ، ٣٩٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أبناؤه وحفدته :

لم أجد من أبنائه الذكور سوى أبي طاهر محمد ، خطيب ميافارقين بعد أبيه ، وراوي خطبه ، والمصنف الذي أُلحقت خطبه فيما بعد وجمعت في ديوان أبيه [١] ، وصفه ابن فضل الله العمري بقوله : سعى خلف أبيه فما أدركه ، وطلب إرثه من البلاغة فلم يظفر بما تركه .... وله في ديوان أبيه خطب كُتبت في آخرها، وثُبّتت جداولها مع تلاطم أمواج زواخرها [٢] ، ثم نقل بعض خطبه وألحقها برسالة كتبها الخطيب إلى بعض إخوانه معزّياً بولد كان باراً به فمات ، ومنها قوله : «المصائب أعْظَم الله أجرك لا يدفعها الحَزَن ، ولا يمنعها الأسف عند نزول المحن ولا يُسلّي عنها إلا الصبر لمن ابتُلي ، والرضى لله بما قُضي ... وإنما هي عارية استردها معيرها وموهبة استرجعها واهبها حيث تمّ سرورها ، فخفّض عليك هذه الأحزان وهوّن عليك يا فلان» [٣] .

ويذكر الورد تقديراً أن وفاة الخطيب أبي طاهر محمدٍ كانت في حدود سنة ٣٩٠هـ [٤] . ولم يتسنّ لي معرفة المصدر الذي قدّر عنه هذا التاريخ الذي هو موضع شك عندي ، لأن ابن الأزرق الفارقي في تاريخه ذكر أنّ الوزير الحسين بن علي المغربي المتوفى سنة ٤١٨هـ لما اشتد مرضه بميافارقين أفضى بكل أحواله إلى الخطيب دون غيره من الناس ، وأوصى أن يُدفن بالكوفة وفق حيلة رسمها ، ولما مات الوزير غسّله الخطيب وكفّنه ونفّذ وصيته» [٥] . ومثل هذه الحكاية يقطع بخطأ تاريخ وفاة الخطيب سنة ٣٩٠هـ ، ويعطينا صورة عن المكانة التي تبوّأها الخطيب والعلاقات التي تربطه بالآخرين من عِلْية القوم ، إضافة إلى ما تبرزه لنا من أخلاق حسنة تمتّع بها مثل الوفاء بالعهد ، وكتم السر .

---

(١) فهرس المخطوطات العربية -الورد : ٤٣٧/٣ .

(٢) مسالك الأبصار : ٢٦٨/١٣ .

(٣) نفسه : ٢٦٩/١٣ .

(٤) فهرس المخطوطات العربية -الورد : ٤٣٧/٣ . وانظر : تاريخ الأدب العربي -بروكلمان : ١٠٩/٢ .

(٥) تاريخ الفارقي : ١٣٩ ، ١٤٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولما أرسل الأمير أبو علي الحسن بن مروان ملك ديار بكر إلى حلب يخطب ست الناس بنت سعد الدولة شريف بن سيف الدولة الحمداني سنة ٣٨٦هـ ، نفذ جماعة من نساء أهل ميافارقين الأجلاء الأكابر وكان في جملتهم بنت الخطيب أبي طاهر محمد بن عبدالرحيم -وقيل بنت الخطيب عبدالرحيم- فمضوا إلى حلب وجهزوا العروس ، وفي الطريق سمعت العروس هاتفاً يُنبئ بموت خاطبها ، فارتاعت وضاق صدرها ، ولم تزل بنت الخطيب تُسكّنها وتؤنسها وتُسلّيها لأن العروس أفضت إليها بذلك [1] ، والذي يعنينا من حكاية ابن الأزرق هذه أن أبناء الخطيب كانوا من الأعيان المقرّبين ، وهذه ابنته أو حفيدته المتوفاة بعد سنة ٣٨٦هـ كانت مقربة لحفيدة سيف الدولة ورفيقة لها كما كان الخطيب مع جدها من قبل .

وأما أكبر أبناء محمد بن عبدالرحيم فهو الخطيب أبو الفرج طاهر وبه كُنّي، ولم أعرف له ابناً سواه .

وقد خطب أبو الفرج طاهر بميّافارين كأبيه وجده ، وروى خطب والده وجده وله خطبة نكاح يُخطب بها بحضرة بعض الأمراء إذا تولّوا العقد لغيرهم أو لأنفسهم وقد ألحقت بديوان جدّه وأبيه [2] .

وقد ذكر الورد تقديراً وفاة هذا الخطيب سنة ٤٢٠هـ [3] ، وهذا التأريخ موضع شك لأن ابن الأزرق ذكر أن ابنه الخطيب القاضي أبو القاسم يحيى قد وُلد سنة ٤٢٥هـ [4] ، فكيف يولد ابنٌ لأبٍ مات قبل خمس سنوات ؟!

وأنجب أبو الفرج فيما أعلم ولدين أحدهما محمد ولا أعرف عنه إلا أنّ له ولدين هما : الخطيب عزالدين أبو محمد يوسف الذي خطب بخطب جده ، وكان يُلفّق القرائن ، وينشئ الخطب والرسائل ، ومن كلامه : «أمّره أن يستظهر في عامة أحواله لما صحّ عن الرسول -صلى الله عليه وسلم- وعن ورثة علمه من بعده ،

---

(١) تاريخ الفارقي : ٧٢-٧٤ .

(٢) الديوان : ٥٢٤ ، ٥٢٥ .

(٣) فهرس المخطوطات العربية -الورد : ٤٣٧/٣ . وانظر : تاريخ الأدب العربي -بروكلمان : ١٠٩/٢ .

(٤) تاريخ الفارقي : ٢٦٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالفائز من رضي آثاره قدوة ، واكتفى بها أسوة »[١] ، والخطيب أبو منصور أحمد ، أحد الخطباء بميافارقين وهو أحد رواة شعر أبي نصر الحسن بن أسد النحوي الفارقي المقتول صلباً سنة ٤٦٧هـ[٢] .

وثاني أبناء أبي الفرج هو الخطيب القاضي أبو القاسم يحيى المولود سنة ٤٢٥هـ كان خطيب ميافارقين هو وآباؤه من قبل منذ ولاية بني حمدان ، وولي الخطابة سنة ٤٤٠هـ أو سنة ٤٤١هـ في ولاية نصر الدولة الكبير ، وهو أول من ولي القضاء من بني نباتة ولُقّب بفخر القضاة وفخر الدولة ، وكان ذلك سنة ٤٩٠هـ بعد وفاة القاضي أبي بكر بن صدقة الذي لم يُعقّب ، إذ انتدب لطلب القضاء جماعة من الأعيان فلم يُلتفت إلى غيره[٣] .

وعندما ولّى السلطان ملكشاه العميد قوام الدين أبي علي البلخي ديار بكر سنة ٤٨٢هـ ، خرج مع القاضي ابن صدقة بصحبة وفد من أمراء وكبار أهل ميافارقين إلى بغداد ، وعبّروا عن تألّمهم ورغبتهم في أن يكون فخر الدولة محمد بن جهير حاكماً عليهم فأجابهم السلطان إلى رغبتهم[٤] .

ولمّا وفد على النظام الوزير سنة ٤٨٤هـ ببغداد قرأ عليه الغنوي الرقيّ ديوان الخطب بسماعه من أبيه عن جده من نسخة جديدة لا سماع عليها لأنه لم يكن معه نسخة[٥] .

وفي سنة ٥٠٣هـ عُزل عن القضاء بميافارقين[٦] ، وكانت وفاته سنة ٥٠٥هـ ، حيث دفن على جده الخطيب أبي طاهر محمد[٧] .

---

(١) تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب : ابن الفوطي : ١/٣٩٠ .

(٢) بغية الطلب في تاريخ حلب (ابن العديم) : ٥/٢٢٩٨ ، ٢٢٩٩ .

(٣) تاريخ الفارقي : ٢٦٦ . ابن الفوطي : ٣/٢٨٢ .

(٤) نفسه : ٢٢٣ . الأعلاق : ٣٩١ .

(٥) سير أعلام النبلاء : ٢٠/١٧٦ .

(٦) تاريخ الفارقي : ٢٧٦ .

(٧) نفسه : ٢٧٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن أبنائه :

١ - إبراهيم ، وهو والد خطيب ميافارقين علم الدين أبو الفضل عبدالرحيم ، الذي كان فصيح اللسان جريء الجنان ، وله روايات في الحديث والأدب [١] .

٢ - القاضي علم الدين أبو الحسن علي المولود سنة ٤٦٤هـ ، والمتوفى بعد سنة ٥٠٧هـ ، وكان مع أبيه في الوفد الذي زار بغداد سنة ٤٨٤هـ ، حيث قُدموا على غيرهم ، فأقاموا أياماً ثم خُلع عليهم ورُدّوا إلى ميافارقين [٢] .

وكان خطيب ميافارقين وولي قضاءها بعد وفاة أبيه سنة ٥٠٥هـ ، ثم عُزل عنه سنة ٥٠٧هـ وأعيد في العام نفسه وبقي فيه حتى مات [٣] .

ومن أبنائه :

١ - القاضي الأجل تاج الدين أبو سالم طاهر [٤] .

٢ - علم الدين أبو الفتح محمد الذي ولي قضاء ماردين سنة ٥٣٨هـ ، بدلاً من قاضيها المعزول مجد الدين داود بن القاضي السديد [٥] .

٣ - بهاء الدين الذي ولي خطابة ماردين سنة ٥٣٨هـ [٦] .

٤ - أبو الحسن صالح ، ومن نسله الشاعر ابن نباتة المصري المتوفى سنة ٧٦٨هـ [٧] .

ومن السلالة النباتية كذلك :

القاضي تاج الدين أبو طاهر علي بن نباتة المولود سنة ٤٨٧هـ [٨] ، والفقيه

---

(١) ابن الفوطي : ٥٩٣/١-٥٩٤ .

(٢) تاريخ الفارقي : ٢٢٨ ، ٢٦٦ .

(٣) نفسه : ٢٧٩-٢٨٢ .

(٤) تاج العروس : ١١٦/٥ .

(٥) تاريخ الفارقي : ٣٦ .

(٦) نفسه : ٣٦ .

(٧) واسم الشاعر جمال الدين أبو بكر محمد بن محمد بن الحسن بن أبي الحسن صالح بن علي بن يحيى بن طاهر بن محمد بن عبدالرحيم بن نباتة المتوفى سنة ٧٦٨هـ . انظر (الوافي بالوفيات) ، ٣١١/١-٣٣١ .

(٨) تاريخ الفارقي : ٢٤٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحنبلي وجيه الدين إسماعيل بن نباتة المتوفى بدمشق سنة ٥٨٠هـ[1] ، والسعيد تاج الدولة أبو طالب بن طاهر بن نباتة الذي تزوجت ابنته كريمة من محمد دكسير بن موسك بن مكلان ابن الرئيس أفشين ، فولدت له ثلاثة بنين ، ثم مات عنها سنة ٥٦٤هـ ، وأولاده بميافارقين[2] .

لقد عرف الناس فضل البيت النباتي بالخطابة والقضاء ، فأشادوا به[3] ، وقد افتخر بالانتساب إلى هذا البيت العريق ابنه الشاعر ابن نباتة المصري عندما قال :

وَرِثْتُ اللَّفْظَ عن سَلَفِي وأكرِم ... بآلِ نُبَاتَةَ الغُرِّ السُّراةِ

فلا عَجَبٌ لِلَفْظِي حين يحلو ... فهذا القَطْرُ من ذاكَ النَّباتِ[4]

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة : ٣٥١/١ .

(٢) تاريخ الفارقي : ٢٦٣ .

(٣) انظر مثلاً : ابن الأثير - اللباب : ٢١١/٣ . وكذلك ابن الفوطي ، تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب: ٣٩٠/١ ، ٣٩٥ .

(٤) ديوان ابن نباتة المصري : ٨٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خطيب الخطباء أبو يحيى عبدالرحيم بن محمد بن إسماعيل بن نباتة الحذاقي الفارقي
(أوائل العقد الثالث من القرن الرابع الهجري - ٣٧٤هـ)

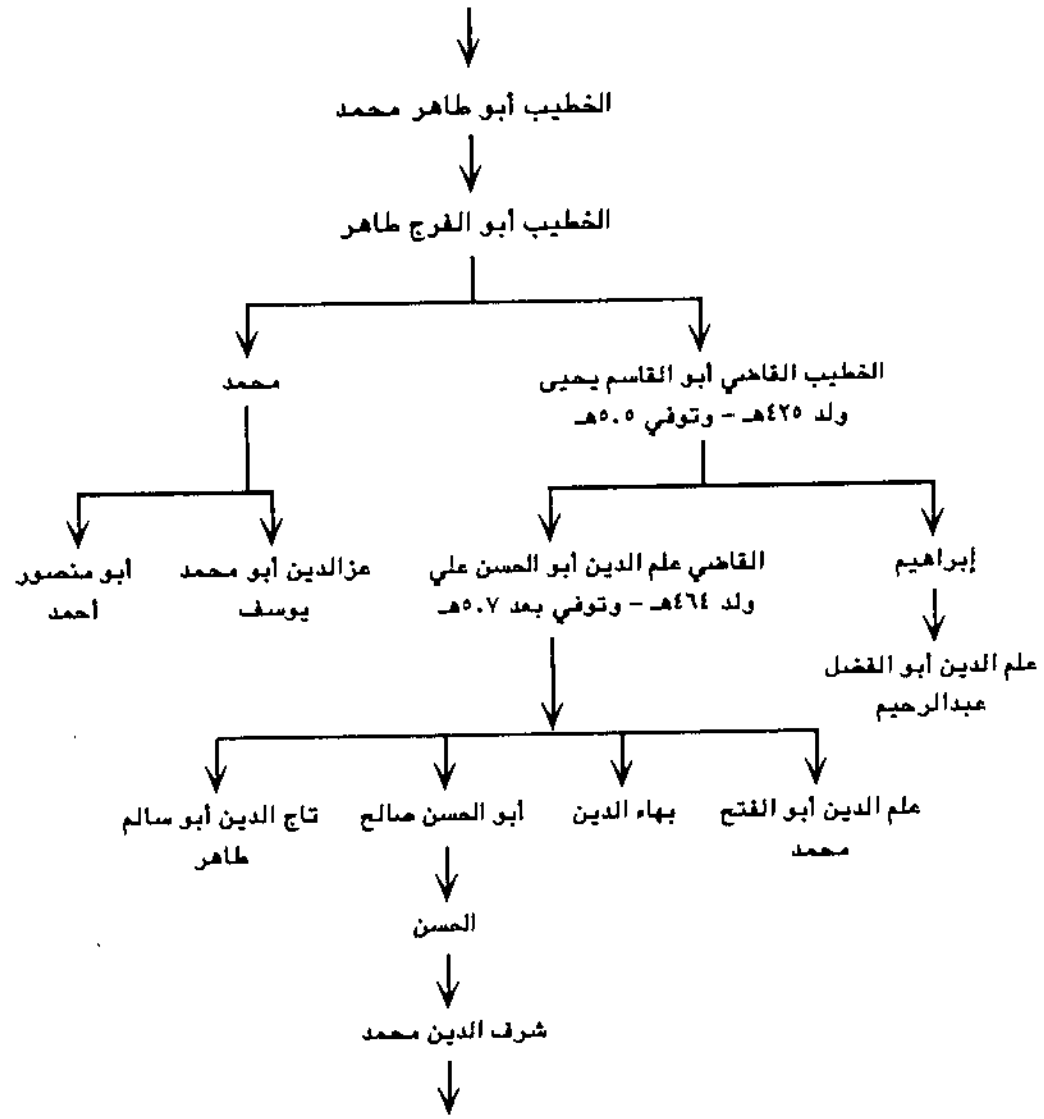

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني
الدراسة التوثيقية للديوان

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تهدف هذه الدراسة إلى استجلاء ما يتصل بديوان خطب ابن نباتة من معلومات ببليوغرافية وتوثيقها توثيقاً علمياً ، فيما يتعلق بمخطوطات الديوان ، وطبعاته ، ومخطوطات شروحه ، وطبعاتها ، وترجمة خطبه ، أو الاقتباس منها في المصادر للتمثّل والاستشهاد ، أو اختيار قطع منها .

ومن هنا ستبرز قيمة هذه الدراسة عبر البحث في النقاط التالية :

١ - التأكد من صحة نِسْبة الخطب الواردة في الديوان إلى ابن نباتة .

٢ - الكشف عن الخطب والدواوين المنسوبة لابن نباتة خطأ .

٣ - بيان الخطب التي هي من تأليف الخطيب ونُسبت إلى غيره ، أو تم التصرف فيها .

ومن الجدير بالذكر أنّ كثرة النسخ المخطوطة للديوان وشروحه ، وتوزّعها في كثير من مكتبات العالم على اتساعه ، قد شكّل أكبر معضلة في إتمام هذه الدراسة على النحو المطلوب .

مخطوطات الديوان* :

١ - مخطوطة برلين[1] :

وتقع تحت رقم (برلين ٣٩٤٤) وعدد أوراقها (١٧١) ورقة ، وفي كل صفحة (١٣) سطراً ، ومقياسها (٥ . ٢٣×١٧)سم ، وأما المساحة المكتوبة من كل صفحة فقياسها (٥ . ١٤×١١)سم . والأوراق مهلهلة ومتآكلة من الجوانب ، لا سيما الأوراق ذات الأرقام التالية : ١٠ ، ١١٦ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٩ ، ١١٥ ، ولونها أصفر وهي متينة ملساء .

---

* تفضل بترجمة النصوص الألمانية الواردة في المخطوطات أخي الطبيب أبو طارق محمد محمود دعسان المتخرج بجامعة هيدلبرغ بدولة ألمانيا ، كما تفضلت الآنسة منال أحمد نوفل المتخرجة بالجامعة الأردنية - تخصص لغة فرنسية - بترجمة النصوص الفرنسية الواردة فيها .

(١) تيسّر الحصول على نسخة كاملة من هذا المخطوط بوساطة مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية الذين تكرموا بجلب النسخة مصورة على فيلم . وانظر فهرس المخطوطات العربية - الورد ٤٣٧/٣-٤٣٨ ، تاريخ الأدب العربي ، بروكلمان ١٠٩/٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والنسخة غير مجلدة بغلاف خارجي وإنما محفوظة داخل بطانتين مشرقيّتين، وهي ناقصة من أولها ، ولذلك فعنوانها غير محدد لدينا ، وقد يكون «ديوان الخطب» كما ورد في الورقة (١٠١) سطر (٤) أو «جميع الخطب والأدعية والفصول النباتية» كما جاء في الورقة نفسها سطر (٩) .

ويوجد بالإضافة إلى الخطب والفصول والأدعية التي صنّفها أبو يحيى عبدالرحيم بن محمد بن إسماعيل بن نباتة الفارقي خطب ابنه أبي طاهر محمد وحفيده أبي الفرج طاهر ، وقد جمعت هذه الخطب ضمن هذه النسخة في حدود سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م .

والنسخة مكتوبة بخط نسخي كبير ونفيس وحروف كلماتها مضبوطة بشكل كامل ، وبما أن نهاية المخطوطة ناقصة ، فلم أتمكن من التعرف على اسم ناسخها .

وتوجد في حاشية الأوراق تعليقات ترجع إلى عدد من شرّاح الديوان منهم :

١ - زيد بن الحسن زيد الكندي ، أبو اليُمن ت سنة ٦١٣هـ .

٢ - عبدالله بن الحسين بن عبدالله العكبري ت سنة ٦١٦هـ .

٣ - عبداللطيف بن يوسف بن محمد البغدادي ت سنة ٦٢٩هـ .

٤ - عثمان بن يوسف القليوبي ، محيي الدين القليوبي ت سنة ٦٤٤هـ .

كما يوجد في الأوراق (١٠٠-١٠٢) إجازات وصور سماع لمواعيد ومجالس مكتوبة بخط الناسخ نفسه ، وبعد الورقة (١٧١) توجد مقامة تركية طويلة بطلها الرّهوان ناقصة في بدايتها وكذلك نهايتها . وهناك خرم واضح في المخطوطة ، فمع أن كل ورقة مرقمة تتضمن صفحتين يميناً ويساراً،وعلى الرغم من تسلسل أرقام الأوراق من (١) إلى (١٧١) إلا أن صفحتي كل ورقة في كثير من الأحيان لا يُكمل بعضها الآخر .

وفي الورقة الأولى مباشرة نجد خطبة في ذكر الموت وذم الدنيا ومطلعها «الحمد لله الشديد محاله ، السديد مقاله ، المجيد جلاله ...» [1] ، وفي السادسة عشرة نجد أعلى الصفحة يساراً بخط مختلف : هذا كتاب الخطب رحم الله

---

(١) مخطوط برلين : ١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

منشئها، وأسفلها بالخط نفسه : مُلك أبو [أبي] الفرج ابن [بن] المرحوم عبدالله إلياس [متاكل] ، وفيها أيضاً : آخر خطب عبدالرحيم بن محمد بن إسماعيل بن نباتة ، إلى هنا انتهى سماع أبي إسحق إبراهيم بن محمد بن نبهان الرقي ، ومنه إلى آخر الديوان بإجازته من شيخه أبي القاسم يحيى رحمهما الله [١] .

ثم تبدأ في الورقة السابعة عشرة خطب أبي طاهر محمد بخطبة مطلعها : الحمد لله محقق آمال الطالبين إليه ، وموفّق من آمن به وتوكل عليه ..» [٢] .

وفي الورقة الأخيرة (١٧١) نجد إحدى خطب أبي يحيى الجهادية ثم ينقطع النص ويأتي بعده مقامة الرهوان التركية [٣] .

والنسخة المصورة الموجودة بمركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية مذكور في توثيقها ما يلي : المكتبة الوطنية/برلين ، القسم الثقافي للمخطوطات المشرقية ، مجموعة لاندبرج (٣٧١) ، رقم التصنيف : ٩٤/١٢٥ .

٢ - مخطوطة باريس [٤] :

وتقع تحت رقم (باريس ١٢٨٩) ، وتتكون من (٢٢٥) ورقة، وفي كل صفحة (١٣) سطراً ، وفيها خطب أبي يحيى عبدالرحيم وابنه أبي طاهر محمد وحفيده أبي الفرج طاهر ، كما تتضمن فصلاً لأبي القاسم يحيى في خطبة نكاح .

ويبدأ الديوان في الورقة الرابعة التي ورد في أعلاها خطأ : ديوان العلامة ابن دقيق العيد ثم البسملة وبعدها : رب يسر يا كريم ، أخبرنا الشيخ أبو إسحق إبراهيم بن محمد بن نبهان الغنوي الرقّي قال : أخبرنا الشيخ الخطيب أبو القاسم يحيى بن طاهر بن محمد بن عبدالرحيم بن محمد بن إسماعيل بن نباتة الفارقي عن أبيه أبي الفرج طاهر عن أبيه أبي طاهر محمد عن أبيه أبي يحيى

(١) مخطوط برلين : ١٦ .

(٢) نفسه : ١٧ .

(٣) نفسه : ١٧١ .

(٤) تم الحصول على نسخة كاملة بوساطة مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية الذين تكرموا بجلبها مصورة على فيلم .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عبدالرحيم بن محمد بن إسماعيل بن نباتة رحمه الله خطبة يذكر فيها استقبال السنة وفضل يوم عاشوراء : الحمد لله منشئ أصناف الفطر ، ومحيي الأرض بوابل المطر ...» [١] .

ويستمر الديوان حتى نهاية فصل في خطبة نكاح لأبي القاسم يحيى ابن نباتة في الورقة الأخيرة رقم (٢٢٥) وفيه يميناً : وبلّغه من الدنيا والآخرة أمله ، كما اختاره لحراسة الثغور وأهّله ، وأستغفر الله العظيم لي ولكم ولجميع المسلمين » [٢] .

والنسخة مكتوبة بخط نسخي واضح ، وكلماته مضبوطة ، وكان الفراغ من استيفاء نسخها يوم السبت مستفتح شهر صفر سنة تسع عشرة وستمائة بدمشق على يد العبد الفقير المفتقر لعفو ربه عبدالله بن علي بن أحمد الشريشي الأنصاري [٣] .

والأوراق الثلاثة الأوَل لا علاقة لها بالديوان ، وخطُّها سيئ ، وكلماتها غير مضبوطة ، وأسطرها غير منتظمة ، وفيها خطب متعددة وأبيات شعرية وأحاديث نبوية [٤] .

وفي الورقة الأخيرة ذِكر للأصل الذي قوبلت عليه هذه النسخة ، ومجالس سماع ترجع إلى تواريخ متعددة منها سنة ٥٩٩هـ وسنة ٦٠٣هـ وسنة ٦١٦هـ وهي مكتوبة بخط صغير ينقصه الإعجام كثيراً [٥] .

---

(١) مخطوطة باريس : ٤ .

(٢) نفسها : ٢٢٥ .

(٣) نفسها : ٢٢٥ .

(٤) نفسها : ١ ، ٢ ، ٣ .

(٥) نفسها : ٢٢٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣- مخطوطة المدينة المنورة [١] :

ورقمها العام (١٩٦٤) ورقم تصنيفها (٢١٧/٤٨) ضمن فن الوعظ والإرشاد ، وهي نسخة محفوظة بشكل جيد ومكتوبة بخط نسخي نفيس ، وكلماتها مضبوطة بالحركات وعليها بعض التصحيحات ، وعدد صفحاتها (٢٠٤) وهي غير مرقمة ، وفي كل صفحة منها (١٩) سطراً ومقياسها (٢٤×١٧)سم .

وفي الصفحة الأولى نجد ما يلي : العنوان وهو ديوان ابن نباتة رحمه الله وقد كُتب بغير خط الناسخ . ثم كتاب ديوان الخطب النُباتية بخط الناسخ . رواية الشيخ أبي إسحق إبراهيم بن محمد بن نبهان الغنوي الرقي رحمه [الله] ثم تملّك نصه : ملكه من فضل الله تعالى أحمد بن محمد الخطيب [غير واضح] الشهير بابن الإقناعي بتاريخ رجب سنة خمس وسبعين وسبعمائة .

ثم تملك آخر نصه : ملكه من بائعه أبي العباس أحمد ، محمد بن إبراهيم السفطي ثم خاتم دائري الشكل مكتوب فيه بخط فارسي ما نصه : مما وقفه العبد الفقير إلى ربه الغني أحمد عارف حكمة الله بن عصمة الله الحسيني في مدينة الرسول الكريم عليه وعلى آله الصلاة والتسليم بشرط أن لا يخرج عن خزانته والمؤمن محمول على أمانته ، ١٢٦٦هـ [٢] .

وأول الديوان وهو بداية الصفحة الثانية بعد البسملة وفيه : رب يسّر وأعِن، أخبرنا الشيخ الإمام أبو إسحق إبراهيم بن محمد بن نبهان القارئ الرقي قراءة عليه في سنة أربع وعشرين وخمسمائة قال : أخبرنا الشيخ الخطيب أبو القاسم يحيى بن طاهر بن محمد بن عبدالرحيم بن محمد بن إسماعيل بن نباتة الفارقي عن أبيه أبي الفرج طاهر عن أبيه أبي طاهر محمد عن أبيه أبي يحيى عبدالرحيم بن محمد بن إسماعيل ابن نباتة الفارقي رحمه الله قال : خطبة يذكر فيها استقبال السنة وفضل يوم عاشوراء : الحمد لله منشئ أصناف الفطر ،

---

(١) قد رأيت المخطوط بنفسي وتصفحته في العمرة التي يسّر الله تعالى لي أداءها عام ١٩٩٤م ، وهي موجودة بمكتبة الملك عبدالعزيز الواقعة مقابل الحرم المدني/قسم أحمد عارف حكمة .

(٢) المخطوطة : ١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومحيي الأرض بوابل المطر ، الغالب على ما بطن وظهر ..» [١] ، وبعد الانتهاء من خطب أبي يحيى ينتقل إلى خطب ابنه أبي طاهر محمد ويذكر منها تسع خطب ثم ينقطع الديوان أثناء خطبة لأبي طاهر مطلعها : الحمد لله الكريم طوْلُه ، العظيم صوْلُه ، المرهوب عدْلُه ، المطلوب فضله ..» .

ثم تأتي صفحتان مكتوبتان بخط أصغر مضبوط بالحركات ، في كل واحدة منهما (٢٥) سطراً ، وهما تتناولان موضوعات دينية وتفسير آيات على هيئة أسئلة وإجاباتها ، مثل : فإن قلت : كم من أمّة في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام ولم يخلُ فيها نذير ؟ قلت : إذا كانت آثار النذارة باقية لم تخلُ من نذير إلى أن تندرس ، وحين اندرست آثار نذارة عيسى بعث الله محمداً ...» [٢] .

وبعدهما مباشرة الصفحة الأخيرة التي كُتب في القسم الأكبر منها - بخط سيئ غير معجم في أغلبه - سماع الديوان في عدة مجالس آخرها ليلة الأربعاء خامس عشر ربيع الآخر سنة ست وثلاثين وسبعمائة بمدرسة ابن العجمي بمدينة حلب المحروسة [٣] .

وبعده بخط آخر : نظر في هذا الكتاب المبارك الفقير إلى الله تعالى محمد ابن جلال العلاك ، عاملَهُ الله بألطافه الخفيّة بجاه سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم بتاريخ مستهل شهر ربيع الأول المبارك سنة تسع وثمانمائة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، وحسبي الله ونعم الوكيل [٤] .

---

(١) المخطوطة : ٢ .

(٢) مخطوط المدينة المنورة : ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

(٣) نفسه : ٢٠٤ .

(٤) نفسه : ٢٠٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤ - مخطوطات أخرى :

وهي كثيرة منها :

أ - مخطوطات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية :

١.) رقم (١٢٢) ديوان خطب لعبدالرحيم بن محمد بن إسماعيل بن نباتة الفارقي المتوفى سنة ٣٧٤هـ ، ورقة العنوان غير موجودة ، وأوله : الحمد لله الذي ليس له نظير فيناقضه ، ولا وزير فيعارضه ..» وآخره : وبلّغه في الدنيا والآخرة أمله ، كما اختاره لحراسة الثغور وأهّله ، واستغفر الله العظيم لي ولكم ولجميع المسلمين . آخر الخطب» . وهي تتضمن بعض خطب أبي طاهر محمد بن عبدالرحيم، وأبي الفرج طاهر بن محمد بن عبدالرحيم ، وفصلاً لأبي القاسم شيخ جامع الكتاب.

وهي نسخة نفسية جداً ، كتبت بقلم نسخي جميل مضبوط بالحركات ، والعناوين بقلم الثلث الجميل سنة أربع وثلاثين وسبعمائة بمدينة دمشق المحروسة، وعدد أوراقها (١٣٦) وفي كل (١٦) سطراً ، ومقياسها (٥ . ٢٥×١٨)سم ورقم حفظها (٤٩٦٥) .

٢.) رقم (١٠٠) الخطبة الأولى من رجب لعبدالرحيم بن محمد بن إسماعيل ابن نباتة الفارقي المتوفى سنة ٣٧٤هـ ، وأولها : الحمد لله منتهى الحمد ومبتدأ الوجود ...» وآخرها : فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله ، واعلموا أن الله مع المتقين . تمت» .

وهي نسخة كتبت بقلم نسخي في الثامن والعشرين من ربيع الثاني سنة ١٢٦٢هـ وتتألف من ورقتين ، في كل واحدة (١٣) سطراً ، ومقياسها (٥ . ١٦×١١ . ٥)سم ورقم حفظها (٢١٤١) [١] .

ب - مخطوطة كوبريلي - تركيا [٢] :

رقم (٧٧٨) : كتاب الخطب النباتية لأبي يحيى عبدالرحيم بن محمد بن

---

(١) فهرس المخطوطات - الأدب والنقد والبلاغة : ٦٦ .

(٢) فهرس مخطوطات كوبريلي - تركيا : ٣٧٧/١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إسماعيل بن نباتة الفارقي المتوفى سنة ٣٧٤هـ/٩٨٤م .

وأوله : خطبة يذكر فيها استقبال السنة وفضل عاشوراء : الحمد لله منشئ أصناف الفطر ، ومحيي الأرض بوابل المطر ، الغالب على ما بطن وظهر ..» .

وآخره : إنّ أولى ما وعظ به العالمون ... هذا آخر الخطب النباتية .

وهي مكتوبة بخط النسخ وتقع في (١٣٥) ورقة ، بمقياس (١٨×٧ . ٢٤) والمساحة المكتوبة (١٣×١٨)سم ومسطرتها (٢٣) سطراً .

وقد وافق الفراغ من نسخها نهار السبت خامس عشر شعبان من شهور سنة أربع وعشرين وسبعمائة ، وعلّقها لنفسه العبد .. عبدالخالق بن أحمد بن أبي بكر ابن محمد بن أبي الفوارس البكري الوردي المعري .

جـ - مخطوطات ليدن / هولندا [١] :

٠١) رقم (٢١٣٧) ديوان الخطب لعبدالرحيم بن محمد بن نباتة المتوفى سنة ٣٧٤هـ/٩٨٤م ، وهي مخطوطة تقع ضمن مجلد يضم العديد من الكتب ، وتقع في الصفحات (١-٢١٤) وتاريخها سنة ٧٤٢هـ .

٠٢) (مجموعة لاندبرج ، ١٧) خطبة أخرى رقمها (١٢٩) وتقع في صفحة رقم (١٣٨) وتاريخها سنة ٦٢٣هـ .

وذكر بروكلمان مخطوطات أخرى كثيرة هي :

١ - مخطوطة بريل ٢٦٩ .

٢ - مخطوطة ميونخ ١٥٣ .

٣ - مخطوطة بولديانا ١:٩٦ .

٤ - مخطوطة هافينا ٧١ .

٥ - مخطوطة اسكوريال ثاني ٧٥٤ .

٦ - مخطوطة اسكوريال ثاني ٥٢٢ .

٧ - مخطوطة مدريد ثالث : ١٧ .

٨ - مخطوطة راغب ١٠٩٢ .

---

(١) فهرست المخطوطات العربية في مكتبة جامعة ليدن : ١٦٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٩ - مخطوطة القاهرة أول ١٥٧ .

١٠- مخطوطة مشهد ٧:١٥ رقم ٢١ .

١١- مخطوطة رامبور ٥٩٧:١ رقم ١٩٠ [١] .

وجدير بالذكر أنّ الباحث لم يعثر على أي نص مقتبس في هذه المصادر المخطوطة إلا وقد وجده في ديوان الخطيب المطبوع الذي اعتمده للدراسة دون زيادة أو نقص .

خطب ابن نباتة في المصادر المختلفة :

ظل ديوان الخطيب محطّ أنظار الأدباء ، ولم يغب عن بالهم ، ولذلك أكثروا من الاستشهاد والتمثّل بخطبه التي تتضمن فوائد لغوية وفنية كثيرة ، وكان ممن تمثّل به كل من :

١ - ضياء الدين بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧هـ في الحديث عن السجع والتضمين، والترصيع ، وما يسوغ استعماله من الألفاظ للشاعر دون الناثر مقتبساً من خطب المعاد وغيرها [١] .

٢ - ابن أبي الإصبع المصري المتوفى سنة ٦٥٤هـ في باب المناسبة ، وذكر مقتطفات من خطبة المنام [١] * .

٣ - شهاب الدين محمود الحلبي المتوفى سنة ٧٢٥هـ في الحديث عن الاقتباس ، واستشهد بمقتطفات من خطبتي المنام ، وخطبة لشهر ربيع الأول من لواحق خطب المواقيت [٢] ** .

---

(١) تاريخ الأدب العربي - بروكلمان : ١٠٩/٢ .

(١) انظر المثل السائر : ٢٧٣/١ ، ٤٠٠ . وكذلك ٢٤٠/٣ ، ٢٤١ . وكذلك المعجم الكبير : ١٩ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٦٤ .

(٢) بديع القرآن : ١٥٠ .

* خطبة المنام في الديوان (٩٤-٩٧) .

(٣) حسن التوسّل إلى صناعة الترسّل : ٢٢٣ .

** وهذه الخطبة تقع في الديوان ، ص٣٢١-٣٢٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤ - نجم الدين بن الأثير الحلبي المتوفى سنة ٧٣٧هـ في الحديث عن التضمين ، واستشهد بفقرة قصيرة من خطبة المنام [١] .

٥ - شهاب الدين النويري المتوفى سنة ٧٣٧هـ في الحديث عن الاقتباس ، واستشهد بفقرتين قصيرتين من خطبة المنام ومن خطبة لشهر ربيع الأول من لواحق خطب المواقيت [٢] .

٦ - القلقشندي المتوفى سنة ٨٢١هـ في الحديث عن الاقتباس ، وتمثّل بفقرتين قصيرتين أولاهما من خطبة لشهر ربيع الأول من لواحق خطب المواقيت ، والأخرى من خطبة المنام [٣] .

٧ - ابن حجة الحموي المتوفى سنة ٨٣٧هـ في الحديث عن الاقتباس ، وذكر فقرة قصيرة من خطبة لشهر ربيع الأول من لواحق خطب المواقيت [٤] .

وكان بعضهم قد أورد خطباً كاملة أو أجزاء منها في ترجمة الخطيب ، أو عند التعليق على خطبه،فابن فضل الله العمري مثلاً عرض ثلاث عشرة قطعة اختارها من ديوان الخطيب [٥] ، وابن أبي الحديد نقل خطبتين كاملتين وقطعة أخرى كبيرة ضمن موضوعي الجهاد وذكر الموت [٦] ، إضافة إلى المقتطفات التي أوردها ابن خلّكان ، والصفدي ، واليافعي ، وابن كثير من خطبة المنام عند ترجمتهم للخطيب في الحديث عن رؤيته لرسول الله في المنام [٧] .

وجدير بالذكر أنّ الباحث لم يعثر على أي نص مقتبس في هذه المصادر إلا

---

(١) جوهر الكنز (تلخيص البراعة في أدوات ذوي البراعة) ٢٦٢ ، ٢٦٣ .

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب : ١٨٢/٧ .

(٣) صبح الأعشى : ٢٣٧/١ ، وفيها نسب كلام الخطيب القارئي خطأ إلى الشاعر السعدي ، وربما وقع ذلك منه سهواً .

(٤) خزانة الأدب وغاية الإرب : ٤٤٤ .

(٥) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار : ٢٦٦/١٣-٢٦٨ .

(٦) شرح نهج البلاغة : ٨٠/٢-٨٥ ، ١٥١/٥-١٥٢ .

(٧) وفيات الأعيان : ١٥٦/٣ ، ١٥٧ - الوافي بالوفيات : ٢٨٨/١٨ ، ٢٨٩ - مرآة الجنان : ٤٠٣/٢ - البداية والنهاية : ٣٠٣/١١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهو موجود في ديوان الخطيب دون زيادة أو نقص .

نشرات الديوان وطبعاته :

لم يزل الاهتمام بديوان الخطيب متواصلاً عبر القرون المتتالية ، وقد اهتمّ المحدثون -كمن سبقهم- بالديوان ، فعُنُوا بطبعه ونشره مرات عدة ، وفي أماكن مختلفة يرجع أقدمها إلى سنة ١٢٨٢هـ ، وبالعودة إلى المراجع أمكن الوصول إلى عدد جيد من الطبعات ، ولذلك عمدت إلى ترتيبها داخل جدول يأخذ بالاعتبار مكان صدور الطبعة وزمانه والمراجع التي أشارت إليها فجاء كما يلي :

المكان	السنة	المراجع التي أشارت إلى الطبعة *
بومبي – الهند	١٢٨٢هـ	بروكلمان ، فروخ
القاهرة – مصر	١٢٨٢هـ	بروكلمان ، دائرة المعارف الإسلامية ، دائرة المعارف/فؤاد البستاني
القاهرة – مصر	١٢٨٦هـ	بروكلمان ، دائرة المعارف الإسلامية ، دائرة المعارف/فؤاد البستاني
القاهرة – مصر	١٢٩٢هـ	بروكلمان ، دائرة المعارف الإسلامية
القاهرة – مصر	١٣٠٠هـ/١٨٨٢م	فرّوخ ، ذخائر التراث العربي الإسلامي
القاهرة – مصر	١٣٠٢هـ	بروكلمان ، دائرة المعارف الإسلامية ، فرّوخ
القاهرة – مصر	١٣٠٤هـ	بروكلمان ، دائرة المعارف الإسلامية
القاهرة – مصر	١٣٠٨هـ «المطبعة الميمنية» ١٨٩٠م	ذخائر التراث العربي الإسلامي ، معجم المطبوعات العربية والمعرّبة
القاهرة – مصر	١٣٠٩هـ	بروكلمان ، دائرة المعارف الإسلامية
القاهرة – مصر	١٣١٠هـ «مطبعة الرشيدي» ١٨٩٢م	معجم المطبوعات العربية والمعربة ، ذخائر التراث العربي الإسلامي
القاهرة – مصر	١٣١٢هـ «المطبعة العلمية» ١٨٩٤م	معجم المطبوعات العربية والمعربة ، ذخائر التراث العربي الإسلامي
بيروت – لبنان	١٣١١هـ	بروكلمان، دائرة المعارف الإسلامية، دائرة المعارف/فؤاد البستاني ، جرجي زيدان

---

* انظر : تاريخ الأدب العربي – بروكلمان : ١٠٩/٢ ،.تاريخ الأدب العربي في الأعصر العباسية – عمر فروخ ، ٥٣١ . دائرة المعارف الإسلامية : ٤٠٢/١ . دائرة المعارف – فؤاد البستاني : ١٠٠/٤ . ذخائر التراث العربي الإسلامي : ٢٥٧/١ ، ٢٥٨ . معجم المطبوعات العربية والمعرّبة : ٢٦٢ . تاريخ آداب اللغة العربية – جرجي زيدان : ٢٩٩/٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ديوان خطب مطبوع يُنسب إليه خطا :

لقد وجدت عدداً من الطبعات لديوان في الخطب المنبرية يُنسب إلى ابن نباتة وهي :

١ - طبعة القاهرة - مصر ، عن شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده سنة ١٣٧٠هـ-١٩٥١م ، وعنوانه : خطب ابن نباتة ، وهي الطبعة الرابعة وعد صفحاتها (١٢٨) وفي نهايتها : يقول الفقير إليه تعالى (أحمد سعد علي) خادم العلم ورئيس لجنة التصحيح بمطبعة الشيخ مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر المحروسة . وبعد فقد تم طبع ديوان العلامة ابن نباتة في الخطب المنبريّة والمواعظ المصطفويّة الحائز من البلاغة أرقاها ، ومن الفصاحة أجمعها وأوفاها ..الخ .

٢ - طبعة بيروت - لبنان ، عن المكتبة الثقافية دون تاريخ ، وعلى غلافها العنوان التالي : ديوان خطب ابن نباتة للعالم والجهبذ الكبير ، الشيخ عبدالرحيم بن محمد بن إسماعيل الشهير بابن بناتة رحمه الله . وتتكون من (١٢٨) صفحة ، وهي نسخة مصورة طبق الأصل عن الطبعة المصرية السابقة بعد حذف ما جاء في نهايتها من كلام أحمد سعد علي .

٣ - طبعة بيروت - لبنان ، عن دار النجم للطباعة والنشر ، وهي الطبعة الأولى سنة ١٩٩٤م ، وتقع في (٩٦) صفحة ، وعلى غلافها العنوان التالي : ديوان خطب منبرية للعلاّمة الشيخ عبدالرحيم بن محمد بن إسماعيل الشهير بابن نباتة .

- وهذه الطبعات جميعاً غير محققة أو مقابلة على نسخ مخطوطة ، وتقتصر على خطب المواقيت وما يلحق بها ، وتنتهي جميعاً بما يُسمّى خطبة النّعت .

يقول مصنّف الديوان في مقدمته بعد حمد الله والصلاة على رسوله : وبعد ، فهذا ديوان عظيم في الخطب ، جعلتُه على عدد جُمع السّنة» [١] ، ثم يبدأ بالخطبة الأولى لمحرم ، ويختمها بحديث شريف ، ويُتبعها بالخطبة الثانية لمحرم ، وكذلك

---

(١) انظر ديوان ابن نباتة ، طبعتي البابي الحلبي والمكتبة الثقافية : ٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حتى يصل الخطبة الرابعة لذي الحجة ، وبعد ذلك نجد خطبة النّيل ، وخطبة الزّرع، وخطبة النّعت ، وهو يختم جميع خطبه بحديث شريف باستثناء خطبة النعت التي تصلح كخطبة ثانية لجميع خطب الديوان لما تشتمله من أدعية تناسب مختلف الأزمنة والأمكنة .

وبعد قراءة متأنّية ودراسة فاحصة ، تبيّن للباحث خطأ نسبة هذه الطبعات للخطيب ابن نباتة، لعدد من القرائن والأدلة التي يمكن عرضها على النحو التالي :

١ - لم أجد في النسخ المخطوطة لديوان الخطيب أو شروحه المخطوطة أو المطبوعة خطبة واحدة من خطب هذه الطبعات التي تنسب إليه .

٢ - جميع هذه الطبعات غير محققة ، وليست مقابلة على نسخ مخطوطة .

٣ - تتضمن هذه الطبعات خطباً مثل خطبة النيل يُفهم منها أنّ مصنّفها مصري ، علماً أنه لم يثبت بحال دخول ابن نباتة الفارقي مصر ، فضلاً عن أن يقول في نيلها خطبة ، ومن هذه الخطبة اقتبس النص التالي : الحمد لله الملك الجليل ، ... فَلَهُ الحُرْمة والمِنّة إذ حفّنا وأكرمنا ومنحنا ببحر النيل ، أنزله من عرش عزته إلى سماء مملكته .. والملائكة تحفّه جبريل ، وميكائيل وإسرافيل ، وعزرائيل ... أيها الناس : اعلموا أنّ إقليمكم هذا خير إقليم ، مَنّ به علينا السميع العليم ، فهو لا حار ولا بارد ، ولا ناقص ولا زائد ، ... يُروى في الخبر أنّ الله يطّلع على بحر النيل في كل سنة ثلاث مرات ، وينظر إليه ثلاث نظرات ، ويخاطبه ثلاث كلمات ، ... روي عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال : سيحون وجيحون والفرات ونيل مصر كلٌّ من أنهار الجنة ..» [١] .

ومن دعائه في خطبة النعت قوله : اللهم اجلب الزيادة النافعة لنيلك المبارك، وبلّغ به المزارع والمنافع» [٢] .

٤ - ونجد في بعض الخطب إشارات تدل على أنّ مصنف هذه الخطب قد عاش في

---

(١) ديوان ابن نباتة ، طبعتي البابي الحلبي والمكتبة الثقافية : ١١٧-١١٩ .

(٢) نفسه : ١٢٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فترة القرن السابع الهجري أو ما بعده ، ومن ذلك قوله في الخطبة الأولى لربيع الثاني وموضوعها ترك الصلاة ما يلي : «واعلموا أنّ تارك الصلاة لا تجوز له شهادات ، ولا يجوز عليه السلام في محضر الجماعات ، فإن سلّمَ عليكم تارك الصلاة فلا تردّوا عليه السلام ، هكذا نقله النووي في بعض الروايات »[١] وأين عصر الإمام النووي من عصر ابن نباتة ؟!

٥ - على الرغم من تصريح الخاطب في هذه الطبعات بأنه شافعي في حديثه عن الأضاحي بقوله «وآخر وقتها يومان بعد هذا اليوم عند أبي حنيفة وأحمد ومالك ، وعند إمامنا الشافعي إلى آخر أيام التشريق الثلاثة انتهاء ذلك»[٢] ، فإننا نجده يتشيع بشكل ظاهر في حديثه عن مقتل الحسين بن علي رضي الله عنه بكربلاء سنة ٦١هـ في الخطبة الثانية لمحرم ، فبعد أن يذكر بكاء الأرض ، وإمطار السماء دماً لموته ، وإظلام الأفلاك ، واشتداد سواد الشمس مدة ثلاثة أيام نجده يروي الحديث التالي : إذا حُشر الناس في عرصات القيامة ، نادى منادٍ من وراء حجب العرش : يا أهل الموقف ، غُضّوا أبصاركم حتى تجوز فاطمة بنت محمد ، فتجوز وعليها ثوب مخضوب بدم الحسين ، وتتعلق بساق العرش وتقول : أنت الجبار العدل ، اقضِ بيني وبين من قتل ابني ، فيقضي الله بينها وبينه ، ثم تقول : اللهم شفّعني فيمن بكى على مصيبتي فيشفّعها الله تعالى فيهم» [٣] . وبعيداً عن التدقيق في صحة الحديث المرويّ ، فإنّ مثل هذا الكلام لم يكن دأب الخطيب ابن نباتة ولا مذهبه .

٦ - لم يكن من عادة ابن نباتة أبداً أن يختم أياً من خطبه بحديث نبوي ، وإنما جرت العادة عنده أن يختم خطبه بآية من كتاب الله تعالى ، ويشهد على ذلك ديوان خطبه كله .

---

(١) ديوان ابن نباتة ، طبعتي البابي الحلبي والمكتبة الثقافية : ٣٢ .

(٢) نفسه : ١١١ .

(٣) ديوان ابن نباتة ، طبعتي البابي الحلبي والمكتبة الثقافية : ١١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٧ - يظهر الفرق بين خطب ابن نباتة والخطب الواردة في هذه الطبعات من حيث اللغة والأسلوب ، ففي الخطبة الأولى لصَفَر وموضوعها وفاة الرسول نجد ما يلي : « ... فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : وعليك السلام ورحمة الله، يا أخي يا عزرائيل : أجئتني زائراً أم قابضاً بإذن الله ؟ فقال : ما زُرت أحداً قبلك يا حبيبي في دار الحياة ، ولكن أُمرت أن أكون بك شفيقاً وعليك رؤوفاً، فإن قلت اقبِض قبضت ، وإن قلت لي ارجع رجَعت ، فانظر ماذا تراه؟ فقال : بالله عليك لا تقبض روحي حتى يأتي أخي جبريل من عند مولاه، ... فعند ذلك قال : يا أخي يا عزرائيل أقسم عليك بالله ، اقبض روحي فقد بلغ العمر منتهاه ..» [1] ، ومثل لفظة عزرائيل ، أو أساليب النداء والقسم في قوله : يا حبيبي ، وبالله عليك لا تقبض روحي ، وأقسم عليك بالله اقبض روحي ، لم تكن من الألفاظ أو الأساليب التي جاءت عند ابن نباتة على هذه الطريقة ، فألفاظ الخطيب جزلة منتقاة ، وأساليبه قوية وأما هذه فيظهر عليها التأخر إلى عصور تالية لعصر الخطيب ، وزيادة في التأكد يُنظر كلام المصنف في الخطبة الرابعة لشهر رمضان وهي في وداعه عندما يقول : «وودّعوا شهركم هذا وداع الأحباب ، وقولوا : لا أوحش الله منك يا شهر الثواب ، لا أوحش الله منك يا شهر الغفران ، لا أوحش الله منك يا شهر القرآن ، لا أوحش الله منك يا شهر القيام ...الخ» [2] .

إنّ مجموع هذه الأدلة ليؤكد خطأ نسبة هذه الطبعات إلى ابن نباتة ، وبراءته منها ، وقد ترتّب على هذا الخطأ أخطاء أخر منها :

١ - اقتباس بعض فقرات هذه الطبعات في المراجع المختلفة ونسبتها إلى ابن نباتة كما فعل لويس شيخو ، أو اقتباسها والتعليق عليها لدراستها كما هو الحال عند د. شوقي ضيف [3] .

---

(١) ديوان ابن نباتة : ١٣-١٤ .

(٢) نفسه : ٨٢ .

(٣) مجاني الأدب في حدائق العرب : ٥/٢٨-٣٠ ، ويقابلها في الديوان : ٢١-٢٣ ، ٣٣ ، ٩٠ . تاريخ الأدب العربي (٦) عصر الدول والإمارات - الشام : ٣٢٧/٣٢٨ ويقابلها في الديوان ١٧ ، ٧٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢ - نقد ابن نباتة والتهجّم عليه ، والطعن في دينه ومذهبه ، وتحميله أشياء لم يكن له بها صلة تذكر ، كما وقع من محمد الشقيري [١] .

٣ - نسبة الديوان إلى غير مؤلفه الحقيقي ، ومع أنّ معرفته ليست مدار بحثنا الآن إلا أنه يُستشفّ من كلامه أنه خطيب واعظ مصري متأخر إلى عصر الإمام النووي أو ما بعده ، وهو شافعي متأثر إلى حد بعيد بمقتل الحسين بن علي رضي الله عنه .

نِسْبة خُطبه إلى غيره أو التصرف بها :

لقد نُسبت خطب ابن نباتة كاملة أو بعضها إلى آخرين خطأ ، إذ نَسَبَ عبدالقادر البغدادي المتوفى سنة ١٠٩٣هـ الخطب النباتية جملة وتفصيلاً إلى ابن نباتة السعدي بقوله في أبيات شعرية يناقشها : رأيتها كذلك بخط ابن نباتة السعدي البغدادي صاحب الخطب النباتية [٢] ، وهذا كلام مغلوط فالخطب النباتية لابن نباتة الفارقي ، ولعل مرد الخطأ إلى خلطه بينهما ، إذ إن كلاً منهما كان أديباً بارعاً عاش زمن سيف الدولة ، وحمل الاسم نفسه .

ونَسب القلقشندي المتوفى سنة ٨٢١هـ إلى ابن نباتة السعدي في حديثه عن الاقتباس كلاماً من خطب ابن نباتة الفارقي مأخوذاً من خطبة المنام وغيرها [٣] .

وقد تصرف ابن حجر العسقلاني الهيثمي المتوفى سنة ٩٧٤هـ بديوان ابن نباتة إذ سلخ بعض الخطب وثبّتها في ديوانه بنصها دون تغيير بعد أن وضع لها مقدمات جديدة [٤] .

كما أورد الشيخ نور الدين عبدالله بن حميد السالمي المتوفى سنة ١٣٣٢هـ خطبة الجمعة في عصر الإمام المؤيد ناصر بن مرشد بن مالك اليعربي (١٠٢٤هـ -

(١) انظر السنن والمبتدعات : المقدمة د ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٢٠ ، ١٤٢ .

(٢) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب : ٣٥٨/٩ .

(٣) صبح الأعشى : ٢٣٧/١ .

(٤) النخب الجليلة في الخطب الجزيلة : ٢١ ، ٢٤ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٨٣ ، ١٤٩ وهي على الترتيب الخطب الثالثة والرابعة لشهر صفر والأولى والثانية لربيع الثاني والثالثة لشعبان وخطبة يذكر فيها المطر .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٠٥٠هـ) عند ترجمته له ، وكان نص الخطبة الأولى مسلوخاً كما هو من خطبة لابن نباتة يذكر فيها الموت وتصرف الزمان بأهله ومطلعها : «الحمد لله الذي هدم بالموت مشيد الأعمار ، وحكم بالفناء على أهل هذه الدار» [١] .

وأما الخطبة الثانية قد وُضعت لتتلاءم مع المذهب الإباضي لأهل عمان ، إذ نجد بعد الصلاة على رسول الله دعاءً لأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب دون غيرهما من الخلفاء الراشدين ثم القول : اللهم وارْضَ عن جميع المؤمنين من الأولين والآخرين ، وعن تابعيهم وتابعي تابعيهم إلى يوم الدين ، ثم دعاء للإمام المؤيد ناصر بن مرشد اليعربيّ [٢] . وجدير بالذكر أنّ د. شوقي ضيف في دراسته تاريخ الأدب في الجزيرة العربية قد درس هذه الخطبة ضمن موضوع الوعظ في الخطابة الإباضية وعدّها من خطبهم ، ولم ينتبه إلى أنها من خطب ابن نباتة [٣] .

ومقدمة هذه الخطبة كذلك أوردها عبدالله المخضوب في ديوانه الذي صنّفه [٤] في الخطبة الثانية لشهر ربيع الأول .

الترجمة إلى لغات أخرى* :

قام "De slane" بترجمة خطبة المنام التي مطلعها «الحمد لله الذي علا في ارتفاع مجده عن أعراض الهمم ، وخلا باتساع رِفده من اعتراض التّهم ..» [١] إلى اللغة الفرنسية في مجلة الـ "Journal Asiatique" بعد أن قدّم لها بالحديث عن الخطيب وعصره وبلاط سيف الدولة ، والرؤيا والاعتقاد بها عند المسلمين والأوروبيين .

---

(١) تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان : ٣٦/٢-٣٨ ، وهي في الديوان ١٠١-١٠٤ .

(٢) نفسه : ٣٨/٢ ، ٣٩ .

(٣) تاريخ الأدب العربي (٥) عصر الدول والإمارات - الجزيرة العربية ، العراق ، إيران : ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

(٤) الحكمة البالغة في خطب الشهور والسنة : ٤٤ .

* لقد تمكنت من الحصول على صور لكلا النصين الفرنسي والإنجليزي من جامعتي Mains و Marburg بعد طلبي من الوالد لدى زيارته لدولة ألمانيا الحصول عليهما فقام بذلك مشكوراً .

(١) انظر الديوان : ٩٤-٩٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما وضع للنص المترجم حواشي لإيضاح الألفاظ والمصطلحات والتعليق عليها. وقد صدرت هذه الترجمة في سنة ١٨٤٠م [١] .

كما قام De slane فيما بعد بترجمة جزء من هذه الخطبة إلى اللغة الإنجليزية بدءاً من عند قول الخطيب «لا يخبرون بما إليه آلوا» إلى قوله «ويجمعهم كما فرّقهم» أثناء تعريف ابن خلكان بالخطيب في كتابه وفيات الأعيان الذي ترجمه De slane كاملاً إلى اللغة الإنجليزية ، وقد صدرت هذه الترجمة سنة ١٨٤٣م [٢] .

شروح الديوان :

تعددت شروح الديوان وكثُر شارحوه ، ويرجع أول شرح للديوان إلى القرن السادس الهجري وآخرها إلى القرن الرابع عشر الهجري وهو الوحيد المطبوع فيها ، وبقية الشروح مخطوطة ، وفيما يلي سرد وتعريف بشروح الديوان التي أمكنني التعرف إليها مرتبة وفق التسلسل الزمني وهي :

١ - **شرح القاضي النَّسفي** [٣] : لعبدالعزيز بن عثمان بن إبراهيم الأسدي العقيلي الحنفي قاضي بخارى المتوفى سنة ٥٣٣هـ ، وهو الشرح المعروف بروضة الناصحين في خطب الأربعين وأولها : الحمد لله الذي ذلّت لعزته الصعاب ...الخ .

٢ - **شرح الحِلّي** [٤] : لمحمد بن علي الحِلّي العراقي الواعظ المتوفى بعد سنة ٥٥٩هـ ، وهو شرح لغريب ما في الخطب النباتية ، إذ ذكر ابن المستوفى الإربلي في تاريخه أنه وجد بخط الحِلّي ما حكايته : قرأ عليَّ الخطب المعروفة ببني نباتة -رحمهم الله- من هذا الكتاب وغيره صاحبه القاضي ... أبو بكر بن عتيق بن

---

(١) انظر : Journal Asiatique, 1840, 3, serie, tome 9, s. 66-77 .

(٢) انظر : Ibn Khallikan's Biographical Dictionary, 1843, II, 110 .

(٣) انظر هدية العارفين : ٥٧٨/١ . كشف الظنون : ٩٣٣/١ . مقدمة شرح الجزائري : ١٢ .

(٤) تاريخ إربل (نباهة البلد الخامل بمن ورده من الأفاضل) : ٨٦/١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

علي بن علوي الإربلي ، وأذِنْت له أن يرويها على ما شرحت له من غريب ما سألني عنه بروايتي عن الشيخ الإمام أبي علي الحسن أحمد الحسن القيسي القطيعي بروايته عن أبيه -وكانا من المعمّرين- برواية أبيه عن الإمام عبدالرحيم وابنه أبي طاهر -رحمهما الله- وكتب العبد المذنب محمد بن علي الحلي العراقي في سلخ جمادى الأولى من سنة تسع وخمسين وخمسمائة» .

٣- شرح الكِندي [١] : لتاج الدين أبي اليمن زيد بن الحسن بن زيد البغدادي المقرىء النحوي المولود سنة ٥٢٠هـ ، والمتوفى سنة ٦١٣هـ بدمشق .

وهو عبارة عن حواشٍ وتعليقات ، قال الصفدي : وحواشٍ على ديوان خطب ابن نباتة ، وفيها بيان أوهام وأغاليط وقعت للخطيب ، وأجاب عنها الموفق البغدادي المعروف بالمطجّن» [٢] ، وذكر ياقوت الحموي أنّ له تعليقات على ديوان المتنبي ، وأخرى على خطب ابن نباتة» [٣] .

وفي نسخة شرح الجزائري المطبوعة ما يلي : قد طُبعت هذه الخطب على النسخة المقابلة على عدة نسخ ، والمحررة في الحادي عشر من شعبان سنة ٥٨٩هـ ، والمكتوب عليها ما صورته : قوبل ديوان الخطب بأسره بالأصل المسموع ، وأصْلَحْتُ ما أدركه النظر من غلط الناسخ وما سها فيه ابن نباتة من الألفاظ موقّعاً على حواشيه به ، وكتبه أبو اليُمن الكندي» [٤] .

- وذكر الورد أنّ تعليقات لشرحه مع غيره من شُرّاح الديوان موجودة على نسخة برلين للديوان رقم (٣٩٤٤) وتاريخها في حدود سنة ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م [٥] .

---

(١) الوافي بالوفيات : ١٥/٥٢-٥٣ . بغية الوعاة : ١/٥٧١ . هدية العارفين : ١/٣٧٧ . معجم المؤلفين : ٤/١٨٩ .

(٢) الوافي بالوفيات : ١٥/٥٢-٥٣ ، ١٨/٣٩٠ .

(٣) معجم الأدباء : ١١/١٧٥ .

(٤) شرح طاهر الجزائري : ٥٢٨ .

(٥) فهرس المخطوطات العربية - الورد : ٣/٤٣٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- كما توجد تعليقاته كذلك مع غيره من الشُرّاح على نسخة جوتا للديوان تحت رقم (٨٢٧ خطب دينية) وتاريخها سنة ٧٢٧هـ [١] .
- وكان الصفدي قد كتب ثلاث نسخ من ديوان الخطيب ، وعلى كل منها حواشي الكندي ، ثم قرأها طلباً للرواية على العلاّمة جمال الدين المزّي سنة ٧٣٥هـ بدمشق [٢] ، وقد أورد طاهر الجزائري في شرحه بعض تعليقات الكندي وكان يرد على بعضها أحياناً [٣] .

٤ - شرح العُكبريّ [٤] : لمحبّ الدين أبي البقاء ، عبدالله بن الحسين بن عبدالله العُكبري البغدادي الضرير النحوي الفرضي الحنبلي صاحب التصانيف المولود ٥٣٨هـ والمتوفى سنة ٦١٦هـ ببغداد ، وتوجد منه نسخ كثيرة في أماكن متعددة وهي :

أ -نسخة المدينة المنورة * :

ورقمها العام (٢٠١٤) ورقم تصنيفها (٢١٧/٩٨) ضمن المخطوطات الواقعة تحت فن الوعظ والإرشاد ، وعنوانها : شرح غريب الخطب النباتية للعلاّمة أبي البقاء قدّس الله روحه ونوّر ضريحه ، وهي نسخة عليها بعض التعليقات والتصحيحات ، وخطّها معتاد ، وعدد صفحاتها (٢٨٢) وهي غير مرقمة ، وفي كل صفحة منها (١٧) سطراً ، ومقياسها (٢٣×١٧)سم ، ومدادها أسود وحروف كلماتها مضبوطة ، وهي محفوظة بشكل جيد .

---

(١) المخطوطات العربية في مكتبة جوتا : ١١٥/٢ .

(٢) الوافي بالوفيات : ٣٩٠/١٨ . والعلامة المزّي هو أبو الحجاج جمال الدين يوسف بن الزكي عبدالرحمن بن يوسف القضاعي الحلبي المزّي المولود بحلب سنة ٦٥٤هـ ، والمتوفى بدمشق في دار الحديث الأشرفية ثاني صفر سنة ٧٤٢هـ . انظر : طبقات الشافعية (الاسنوي) : ٢٥٧/٢-٢٥٨ . فوات الوفيات : ٣٥٣/٤ .

(٣) انظر شرح الجزائري : ١٢٦ ، ١٥٠ ، ٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٣٤ ، ٢٥٤ ، ٢٥٧ ، ٣٣٧ ، ٣٣٩ ، ٣٥١ ، ٣٥٣ ، ٣٥٧ ، ٤٠١ ، ٤٠٧ ، ٤١٠ ، ٤١٧ ، ٤٥٨ .

(٤) الوافي بالوفيات : ١٤١/١٧ . نكت الهميان : ١٨٠ . سير أعلام النبلاء : ٩١/٢٢ . بغية الوعاة : ٣٩/٢ .

* قد رأيت هذه النسخة وتصفّحتها بنفسي في العمرة التي يسّر الله تعالى لي أداءها عام ١٩٩٤م ، وهي موجودة بمكتبة الملك عبدالعزيز مقابل الحرم المدني/قسم أحمد عارف حكمة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعلى الصفحة الأولى نجد بعد العنوان تملّكاً وابتياعات شرعية كثيرة ، أذكر منها : للعبد الفقير إلى رحمة الله تعالى عبدالله بن محمد بن علي ابن الخطاب غفر الله له ولوالديه ولمن قرأ فيه ، وترحّم عليه ولجميع المسلمين [١] .

وكذلك : انتقل هذا الكتاب بالابتياع الصحيح الشرعي إلى الفقير إلى رحمة الله تعالى محمد بن أبي الفتح بن يعقوب عفا الله عنه فصار ذلك مُلكاً له ومالاً من أمواله [٢] .

ثم نجد : صار في كتب فقير رحمة ربه جعفر بن عبدالجواد بن جعفر شعيب الشافعي الأنصاري ي غُرّة المحرم سنة ١٠١٨هـ [٣] .

وعليها خاتم أحمد عارف حكمة وفيه وقف للكتاب في المدينة المنورة سنة ١٢٦٦هـ [٤] .

وفي الصفحة الثانية نجد البسملة وبعدها : وما توفيقي إلا بالله ، قال الشيخ الإمام العالم الأوحد ، شيخ الإسلام ، حجة الأدب ، لسان العرب ، مفتي الفرق محبّ الدين أبو البقاء عبدالله بن الحسين بن عبدالله العبكري : اللهم إنا نحمدك على جزيل نعمائك وجميل بلائك ، ونُصلّي على محمد خاتم أنبيائك ... وبعد فإنك التمست مني أن أملي عليك مختصراً في شرح الخطب النباتية ، وأن أتعرّض فيه بتأويل ما أجد عليه فيها من الألفاظ وأنبّه على ما دلّ عليه لفظه من الاعتقاد ، فأجبْتُك إلى ذلك مستعيناً بالله على نيل البغية من ذلك [٥] .

---

(١) المخطوط : ١ .

(٢) نفسه .

(٣) نفسه : ١ .

(٤) نفسه : ١ .

(٥) نفسه : ٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم يذكر سلسلة سماعه لديوان الخطيب وكذلك ولده الناسخ عبدالرحمن لأن أباه الشارح المملي كان ضريراً [١] .

وفي الصفحة الثالثة يُعرّف الشارح بالخطيب فيقول : ابن نباتة هذا كان رجلاً جليل القدر ، ذا دين وفصاحة وبلاغة ، ولقد أتى في هذه الخطب بنظم بديع ومعنى لطيف ، ونباتة بضمّ النون ... ثم يعرّف معنى الخطبة فيقول : والخُطب جمع خطبة ، وهي الكلام المنظوم المتضمن شرح كل خَطْب عظيم ، وكانوا لا يخطبون إلا في الأمور العظام ، فسُمّي كل كلام متضمن شرح الخَطْب العظيم خُطبة ، ويقول بعدها مباشرة : شرح ما في الخطبة الأولى : الحمد : الثناء على الإنسان بما فيه من الخصال الجميلة والأوصاف المستحسنة ، وأما الشكر فالثناء على المنعم بما أوْلاكهُ من جميل [٢] .

- ويستمر الشارح على طريقته هذه حتى يصل آخر الديوان بقوله : ... ونَحلَهُ : بَذَله عن طيب نفس منه كما تُنْحل الهبة ، وأضفى الثوب : أطاله وأوسعه . آخرالكتاب والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله الطاهرين [٣] .

- وقد شرح العكبري خطب أبي يحيى عبدالرحيم بن نباتة وابنه أبي طاهر محمد ، وحفيده أبي الفرج طاهر .

ب- نسخة باريس [٤] :

وتقع في (١٢٣) ورقة مرقمة ، في كل صفحة منها (١٥) سطراً ، وهي مكتوبة بخط معتاد واضح ، وحروف كلماته غير مضبوطة ، وليس عليها حواشٍ أو تعليقات .

---

(١) المخطوط : ٢ .

(٢) نفسه : ٣ .

(٣) نفسه : ٢٨١ .

(٤) تم الحصول على النسخة كاملة بوساطة مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية الذين تكرموا بجلب نسخة منه مصورة على فيلم .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي الورقة الأولى منه يميناً : [انتقل] هذا الكتاب بحكم البيع الشرعي إلى يد العبد الفقير الشيخ محمد الحنبلي البغدادي [١] .

ويساراً من الورقة نفسها نجد العنوان وهو : كتاب شرح ديوان الخطب لابن نباتة ، ثم شرح الخطب النباتية ، وبعد ذلك تملّك و ابتياعات منها: ملكه من فضل الله تعالى أفقر عباده وأحوجهم إلى رحمته محمد ابن أحمد الحسيني نسباً ، الحلبي مولداً ، غفر الله له ولجميع المسلمين ، ومنها : انتقل بالابتياع الشرعي إلى ملك أفقر عباد الله تعالى وأحوجهم إلى رحمته [علي رضوان البلوفي] غفر الله تعالى له ولوالديه ولجميع المسلمين ، آمين يا رب العالمين [٢] .

- وفي الورقة الثانية يبدأ الشرح بخطبة الشارح يميناً وفيها : بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه نستعين ، اللهم إنا نحمدك على جزيل نعمائك ، وجميل بلائك ونصلّي على خاتم أنبيائك .. وبعد فإنك التمست مني أن أملي عليك مختصراً في شرح الخطب النباتية ، وأن أتعرّض فيه بتأويل ما أخذ عليه فيها من الألفاظ ، وأنبّه ما دلّ عليه لفظه من الاعتقاد، فأجبتك إلى ذلك مستعيناً بالله على نيل البغية من ذلك . ثم يذكر سماعه للديوان ، وكذلك يذكر الناسخ عبدالرحمن بن الشارح الضرير سماعه للخطب ، ثم يرجع إلى الشرح بعد التعريف بالخطيب [٣] .

ويساراً في الصفحة نفسها يُعرّف الشارح معنى الخطبة ثم ينتقل إلى إلى ما جاء في الخطبة الأولى التي ذكر فيها ابن نباتة استقبال السنة [٤] .

---

(١) المخطوط : ١ .

(٢) نفسه : ١ .

(٣) نفسه : ٢ .

(٤) نفسه : ٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ويستمر الشارح على هذه الطريقة بذكر الخطبة وموعظتها شارحاً ما فيها من الألفاظ ، حتى ينتهي من خطب أبي يحيى في الورقة رقم (١١٨) بعد شرحه لخطبة في وداع شهر رمضان بقوله : والتسبيح يتردد في الصدر ، والإخبات : الخشوع لله تعالى ، آخر خطب عبدالرحيم وبعدها مباشرة : أول خطب أبي طاهر محمد بن عبدالرحيم : قوله : عاكِفِه أي مُقيمه ...» [١] .

وفي الورقة رقم (١٢٢) ينتهي من شرح خطب أبي طاهر الثلاث عشرة ثم يذكر خطبة نكاح لأبي القاسم يحيى وهو أحد حفدة الخطيب [٢] .

وفي الورقة الأخيرة رقم (١٢٣) يميناً : ونَحَلَه : بَذَلَه عن طيب نفس منه كما تُنْحَل الهبة ، وأضفى الثوب : أطاله وأوسعه . تمّ الكتاب بحمد الله تعالى وعونه وصلواته على سيدنا محمد وآله . كتب في [غير واضح] أيام من شهر ذي الحجة في يوم الاثنين في وقت الظهر من سنة سبع وسبعين وسبعمائة ، والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم [٣] .

ويساراً بخط مختلف وسيء كُتب : الله ربي ولا شريكا [شريك] له [٤] .

جـ- نسخة ليدن / هولندا :

وتقع تحت رقم (ليدن ٢١٣٨) في مجلد يحتوي بالإضافة إليها كتباً أُخر ، ورقم صفحاتها في المجلد (٢١٥-٦١٨) وتاريخها يرجع إلى سنة ٦٢٤هـ [٥].

وفي نسخة جوتا للديوان والتي رقمها (٨٢٧ خطب دينية) وتاريخها سنة ٧٢٧هـ توجد تعليقات للعكبري مع غيره من الشرّاح ، علماً أنّ

---

(١) المخطوط : ١١٨ .

(٢) نفسه : ١٢٢ .

(٣) نفسه ، باريس : ١٢٣ .

(٤) نفسه : ١٢٣ .

(٥) المخطوطات العربية بمكتبة جامعة ليدن : ١٦٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عنوان النسخة المكتوب بخط أحمر يوحي إلى أنّ النسخة تقتصر على شرح خطب ابن نباتة لأبي البقاء العكبري [١] .

وذكر الورد أنّ تعليقات العكبري مع غيره من شُرّاح الديوان موجودة على نسخة الديوان رقم (٣٩٤٤) ببرلين وتاريخها في حدود سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م [٢] .

وورد في المجلة الألمانية للدراسات الشرقية (ZDMG) ذِكْرُ نسخة أخرى لشرح العكبري تحت رقم (٥٥٧٥) ضمن مجلد يتضمن عشرة كتب ، وهذه النسخة مكتوبة بخط النسخ الواضح المضبوط بالحركات ، ووضعها العام جيد ، وتاريخها في الثاني عشر من ذي الحجة سنة ٦٢٥هـ بِحَرّان [٣] .

٥- شرح البغدادي [٤] : لموفق الدين أبي محمد عبد اللطيف بن يوسف الموصلي الشافعي المولود سنة ٥٥٧هـ والمتوفى سنة ٦٢٩هـ وهو المعروف بالمطجّن ، ذكر الصفدي في ترجمته أنه جرت بينه وبين الكندي مباحثات بدمشق ، وأن من أجوبته السديدة في الرد على الكندي لما اعترض على مطلع خطبة ابن نباتة في وفاة الرسول وأولها : الحمد لله المنتقم ممن خالفه ، المهلك من أسفه ، المتوحد في قهره المتفرد بعز أمره ، قوله : إنما قال ذلك نظراً إلى قوله تعالى : فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون . قال الصفدي : وهذا الجواب في غاية الحُسن والسداد ، ولو أورد على الخطيب وهو حيٌّ ما أجاب بأحسن من هذا الجواب ولا أسدّ [٥] .

---

(١) المخطوطات العربية في مكتبة جوتا : ١١٥/٢ .

(٢) فهرس المخطوطات العربية - الورد : ٤٣٨/٣ .

(٣) ZDMG, 68, 390 .

(٤) فوات الوفيات : ٣٨٦/٢ ، الوافي بالوفيات ١٠٩/١٩ ، سير أعلام النبلاء ٣٢٠/٢٢ ، كشف الظنون ٧١٤/١ ، هدية العارفين ٦١٥/١ .

(٥) الوافي بالوفيات : ١١٣/١٩-١١٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وذكر الورد أن نسخة الديوان ببرلين رقم (٣٩٤٤) وتاريخها في حدود سنة ٦٢٠هـ ١٢٢٣م عليها تعليقات للبغدادي مع غيره من الشراح [١] .

وذكر بروكلمان أنه توجد نسخة منه كتبت في حياة الشارح بجامعة ييل (مجموعة لاندبرج) ١٧ وذلك سنة ٦٥٣هـ [٢] ، وهنا مغالطة إذ كانت وفاة الشارح سنة ٦٢٩هـ ، وربما ترجع هذه المغالطة إلى خطأ مطبعي .

٦ - **شرح ابن التلمساني** [٣] : لشرف الدين أبي محمد عبد الله بن محمد بن علي الفهري المصري الشافعي المتوفى سنة ٦٤٤هـ .

٧ - **شرح القليوبي** [٤] : للشيخ محيي الدين أبي عمرو عثمان بن يوسف المتوفى سنة ٦٤٤هـ بالقاهرة ، وهو في مجلد واحد . وذكر ألورد أن نسخة الديوان رقم (٣٩٤٤) ببرلين وتاريخها في حدود سنة ٦٢٠هـ /١٢٢٣م عليها تعليقات للقليوبي مع غيره من الشراح [٥] .

٨ - **شرح ابن البارزي** [٦] : للقاضي نجم الدين أبي محمد عبد الرحيم بن إبراهيم الجهني الحموي الشافعي المعروف بابن البارزي ، الأديب الشاعر الفقيه الأصولي قاضي حماة وابن قاضيها ، المتوفى سنة ٦٨٣هـ ، والمدفون بالبقيع ، وهو شرح موجز جداً وقف طاهر الجزائري على قطعة منه .

وتوجد منه تعليقات على نسخة جوتا للديوان ورقمها (٨٢٧ خطب دينية) وتاريخها سنة ٧٢٧هـ مع غيره من الشراح [٧] ، وذكربروكلمان نسخاً أخرى منه في بودليانا ١٣٩/١ ، ٢ /٥٧٠ ؛ والمتحف البريطاني ٧٥٤٩ or ، والمتحف

---

(١) فهرس المخطوطات العربية ٤٣٨/٣ .

(٢) تاريخ الأدب العربي ١٠٩/٢ ، ١١٠ .

(٣) هدية العارفين ٤٦٠/١ ، ٤٦١ ، معجم المؤلفين ١٣٣/٦ .

(٤) طبقات الشافعية (الاسنوي) ١٠٦٤/٢ ، طبقات الشافعية (ابن قاضي شهبة) ١١٦/٢ ، كشف الظنون ٧١٤/١ ، هدية العارفين ٦٥٤/١ ، معجم المؤلفين ٢٧٢/٦ .

(٥) فهرس المخطوطات العربية - الورد ٤٣٨/٣ .

(٦) مقدمة شرح الجزائري ١٣، وانظر ترجمته في الوافي بالوفيات ٣١٧/١٨ .

(٧) المخطوطات العربية في مكتبة جوتا ١١٥/٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البريطاني ثالث ١٢ [١] .

٩- **شرح القرافي** [٢] : لشهاب الدين أبي العباس ، أحمد بن أبي العلاء إدريس القرافي الصنهاجي البهنسي المتوفى سنة ٦٨٤هـ ، وهو كتاب في الأجوبة عن الأسئلة الواردة على خطب ابن نباتة .

١٠- **شرح الشيخ سري الدين بن هانيء** : ذكره ابن حجة الحموي المتوفى سنة ٨٣٧هـ مشيراً إلى المقدمة التي استهلها ابن نباتة في خطبة وفاة الرسول بقوله : وأورد الشيخ سري الدين بن هانيء في شرحه الذي كتبه على ديوان الخطب على هذه البراعة عذراً لأبي البقاء ، أرجو أن تهب عليه نسمات القبول [٣] .

١١- **شرح طاهر الجزائري** [٤] : لطاهر بن محمد بن صالح الجزائري الأصل الدمشقي المولد والدار ، المولود سنة ١٢٦٤هـ ، والمتوفى سنة ١٣٣٨هـ وله مصنفات كثيرة .

وهو الشرح الوحيد المطبوع ، وكان طبعُهُ بمصر سنة ١٣٠٢هـ [٥] ، وببيروت سنة١٣١١هـ بمطبعة جريدة الإقبال في (٥٢٨) صفحة ، وبمطبعة جريدة بيروت في (٥٢٨) صفحة [٦] ، والأخيرة هي النسخة المتوفرة لدى الباحث وقد اعتمدها في دراسته للديوان ، وهي تتكون من قسمين اثنين : الأول وهو المتن وفيه خطب الديوان وتقع في القسم الأعلى من كل صفحة وحروفها مضبوطة ضبطاً تاماً .

والثاني وهو الشرح ويقع أسفل كل خطبة في الحاشية ، وكلماته مكتوبة بخط أصغر وحروفه غير مضبوطة . وعلى غلاف هذه النسخة العنوان

---

(١) تاريخ الأدب العربي ، بروكلمان ٧/١٩ .

(٢) هدية العارفين ٩٩/١ ،معجم المؤلفين ١٥٨/١ ، وانظر مقدمة شرح الجزائري ١٣ .

(٣) خزانة الأدب وغاية الأرب (٢٠) وانظر مقدمة شرح الجزائري ١٣ .

(٤) هدية العارفين ٤٣٢/١ ، معجم المؤلفين ٣٥/٥ ، ٣٦ ، الأعلام ٢٢١/٣ ،٢٢٢ .

(٥) معجم المطبوعات العربية والمعربة ٢٦٢ .

(٦) ذخائر التراث العربي الإسلامي ٢٥٧/١ ، تاريخ الأدب العربي ، بروكلمان ١١٠/٢ ، تاريخ الأدب العربي الأعصر العباسية ، ٥٣١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التالي: ديوان خطب ابن نباتة ويليه خطب ولده أبي طاهرمحمد رحمه الله مشروحاً شرحاً متقناً بقلم العلامة الفاضل والجهبذ الكامل أستاذنا الشيخ طاهر أفندي الجزائري حفظه الله تعالى وأبقاه .

وفي أولها مقدمة للشارح عدد صفحاتها عشرون ، وتتضمن هذه المقدمة فهرساً للخطب وتعريفاً بالخطيب مقتبساً من كتاب وفيات الأعيان وغيره ، وذكراً لبعض شروح الديوان وبعض كتب الأدب التي ذكرت خطب ابن نباتة ، وغير ذلك من الفوائد المتصلة بها [١] .

ويبدأ بعد المقدمة بشرح الخطبة الأولى التي مطلعها : الحمد لله المُسبَّح باللغات المختلفة ، المعروف بإتقان صنائعه المؤتلفة ....» بقوله : الحمد هو الثناء على الجميل الاختياري ، والتسبيح : التنزيه عن النقائص ، والمراد باللغات المختلفة جميع اللغات ، واختلافها تنوعها وتعددها، والصنائع : المصنوعات ، والمراد بائتلافها : تناسبها على ما تقتضيه الحكمة [٢] .

وقد عمل الشارح فوائد وفصولاً متعددة تتعلق بشرح الخطب ، منها مايتصل بالفَلَك ، والروح ، والمَلَك ، والتناهي ، وعدم الخلف مطلقاً ، والزمان ، والرضا بالقضاء والقدر والحدوث ، ومسألة القدم ، ومسألة الكلام ، وغير ذلك [٣] .

ولما انتهى من شرح خطب أبي يحيى عبد الرحيم بن نباتة في صفحة (٤٧٢) قال :وهنا تم ما قصدناه من شرح ديوان خطيب الخطباء عبد الرحيم بن نباتة أزكى الله نباتنا ونباته ، والحمد لله كما يليق بجلاله وجزيل نواله والصلاة والسلام على خاتم النبيين محمد وآله وسلم [٤] .

---

(١) مقدمة شرح الديوان (١-٢٠) .

(٢) شرح الديوان /٢ .

(٣) انظر الشرح : ٢٨٧-٣٠١ ، ٣٠٩-٣١٢ ، ٣٥٧-٣٦٤ ، ٣٣٥-٣٣٨ .

(٤) نفسه : ٤٧٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم بدأ بشرح خطب ولده أبي طاهر محمد ، وانتهى منها في صفحة (٥٢٧) مؤرخاً في العاشر من شوال سنة ١٣١١هـ [١] .

وفي الصفحة الأخيرة ورقمها (٥٢٨) نجد مايلي : الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، تمّ طبع الخطب النباتية مصححة بقلم علامة الدهر وأديب العصر أستاذنا الشيخ طاهر أفندي الجزائري شارح هذا الديوان النفيس حفظه الله تعالى وأبقاه .

ثم قد طبعت هذه الخطب على النسخة المقابلة على عدة نسخ ، والمحررة في الحادي عشر من شعبان سنة ٥٨٩هـ ، والمكتوب عليهاما صورته : قُوبل ديوان الخطب بأسره بالأصل المسموع ، وأصلحتُ ما أدركهُ النظر من غلط الناسخ وما سها فيه ابن نباتة من الألفاظ ، موقعاً على حواشيه به وكتبه أبو اليُمن الكندي .

ثم جميع حقوق طبعه عائدة لملتزمه الفقير إليه تعالى عبد الباسط الانسي [٢] * .

---

(١) نفسه : ٤٧٣ -٥٢٧ .

(٢) نفسه : ٥٢٨ .

* وقد رأيت من هذا الشرح نسختين بالمكتبة الظاهرية بدمشق عند زيارتي لها قبل سنوات ، ونسخة أخرى في المجمع العلمي العراقي ببغداد ، وأما النسخة المصورة التي احتفظ بها فقد أخذت عن نسخة محفوظة بمكتبة الجامعة الأردنية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث
دراسة موضوعات الديوان

أولاً : الاتجاه السياسي :

- الجهـــــاد

ثانياً : الاتجاه الديني :

- الوعظ والاعتبار
- المواقيت
- موضوعات دينيّة أخرى

ثالثاً : الاتجاه الاجتماعي :

- النقد الاجتماعي
- المناسبات الاجتماعية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كانت خطب ابن نابتة مسجدية المكان ، يُلقى غالبها في يوم الجمعة ، ولما كان الخطيب متديّناً ورعاً ، فقد اصطبغت خطبه على تعدد موضوعاتها بطابع ديني عام، بدا جلياً للناظر من أول وهلة .

وجاءت الخطب قصيرة ، تهدف إلى وعظ الناس وإرشادهم ، ودعوتهم إلى التمسُّك بطاعة الله ، وحثهم على العمل للآخرة ، والتزام آداب الإسلام وأخلاقه ، وتحذيرهم من الغفلة والمعاصي ، ودعوتهم إلى الجهاد في سبيل الله .

ومع ذلك فقد تضمنت ذكراً لأحداث معاصرة ، ومناسباتٍ عدّة عاشها الخطيب باعتباره أحد أفراد المجتمع ، فأشار إليها في خطبه ، وكان هدفه من وراء كل ذلك النهوض بالأمة وإصلاحها لما فيه خيرها في الدنيا والآخرة .

واتّسع الديوان ليشمل موضوعات متعدّدة ، تتصل مع بعضها بروابط وشيجة، ومع ذلك فقد أمكن وضعها تحت أُطر عامة واتجاهات رحبة ، تجمع شتاتها وتُقرّب بعيدها ، فاتّسقت أمورها وانتظمت في اتجاهات ثلاثة هي الاتجاه السياسي، والاتجاه الديني ، والاتجاه الاجتماعي .

أولاً : الاتجاه السِّياسي

لقد تأثر الخطيب ببيئته وعصره ، حيث الصراع المستمر ضد الروم ، ومن هنا برزت النزعة السياسة في خطب ابن نباتة في أدبه الجهادي ، الذي دعا فيه إلى الجهاد في سبيل الله ، واستنهاض الأمة بكل طاقاتها ، والدعوة إلى الوحدة والتضامن ، ونبذ الفرقة ، والاختلاف ، والالتفاف حول القيادة ، وتوطيد دعائم الأمن .

وفي أدبه الجهادي وصف الخطيب البطل سيف الدولة الحمداني ، وجنود المسلمين ، كما تحدث عن العدو ، وصوّر رحى المعارك .

وهذه هي المحاور العامة التي اكتمل بها أدب الجهاد عند الخطيب وفيما يلي البحث فيها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجهاد :

وهو باب عظيم ، وميدان رحيب ، خاضه الخطيب فأحسن فيه مُفصّلاً ومرغّباً، وقد رأيت أن أتناول هذا الموضوع بالدراسة بعد تقسيمه إلى مواد ، يتم عبرها التعريف بالجهاد الذي أراده الخطيب لتحديد مفهومه ، وفضائله ، وأنواعه ، والغاية المنشودة منه ، ثم بيان الوسائل التي اتخذها الخطيب في التحريض عليه، والدعوة إليه ، وبيان عوامل النصر على الأعداء ، والحديث عن البطل ، والمعركة ، والعدو .

ويقصد الخطيب بالجهاد الحرب المقدسة ضد الروم ، لِنَيْل رضا الله تعالى والدفاع عن الدين والعِرض والممتلكات . وقد شكّل هذا الموضوع مضمون إحدى وعشرين خطبة ، منها ثماني عشرة متوالية جُمعت في الديوان تحت عنوان "خطب الجهاديّات" * والثلاث الأخر كانت متفرقة [١] .

وغايته عند الخطيب التقرُّب إلى الله تعالى وطاعته ، وإعلاء شأن الإسلام فوق الأديان بإحراز النصر على الأعداء ، لتحقيق الأمن والسعادة في الدنيا والآخرة ، ويتّضح هذا المفهوم للجهاد عند الخطيب في قوله "إنّ الجهاد باب الجنة الأعظم ، وطريقها الأقْوَمَ ، من سَلَكهُ أمِنَ المهالك ، ومن أدْرَكَهُ قَطَنَ الممالك ، ومن شمّر له كُفِيَ الفاقرة ، ومن أهْمَلَه خَسِرَ الدنيا والآخرة ، فَخُسْران دنياه الذلُّ والعار ، وخُسران أُخراه الخِزْي والنار » [٢] وأكدّ على ذلك بقوله " ألا وإنّ الجهاد كنز وفّر الله منه أقسامكم ، وحِرزٌ طهّر الله به أجسامكم ، وعِزٌّ أظهر الله به إسلامكم" [٣] وهو أَقْصَدُ الطُّرق إلى الله ، وأثبت قواعد الإيمان ، وأوسع أبواب الرضوان ، وأرفع درجات الجِنان ، وهو السبيل الذي يكون الموت فيه حياة ،

---

* انظر الديوان : خطب الجهاديات ١٧٧-٢٤٠ .

(١) نفسه : ١١١-١١٥ و ١٢٢-١٢٥ و ٢٧٧-٢٧٨ .

(٢) نفسه : ١٩٦ ، والفاقرة : الداهية التي تكسر الفقار أي الظهر ، المصدر نفسه بشرح طاهر الجزائري .

(٣) نفسه : ١٨٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والهلاك فيه نجاة ، والمنهل الذي إن وُرِدَ لم يُظمأ بعده [١] .

وفي هذا بيان عِظم فضل الجهاد وسموّ منزلته . ولذلك حثّ عليه مرغبا فيه، ذاكراً مآل المجاهدين في الدنيا والآخرة بقوله : وإنّ من ناصحَ الله فيه لَبَيْنَ منزلتين مرغوب فيهما ، مُجْمَعٍ على تفضيلهما ، إما الظّفر في العاجل ، وإمّا الفوز بالشهادة في الآجل ، وأكْرَهُ المنزلتين إليكم أعظمها نعمة عليكم" [٢] ، ولهذا ألزم الله فرض الجهاد على جميع فئات المسلمين شيوخاً وشباباً ، فأعزّ من لزمه وأعانه ، وأذلّ من أهمله وأهانه [٣] ، وفي هذا تأثّر من الخطيب بقوله تعالى : ﴿ قُل هل تربّصون بنا إلاّ إحدى الحُسْنَيَيْن ونحن نتربّص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ، فتربّصوا إنّا معكم متربّصون ﴾ [٤] .

وبالمقابل حذّر من النكوص عن الجهاد مُبيّناً عاقبة ذلك بقوله "فمن شمّر وأخلص نال رُتَبَ الأبرار ، ومن أدبر ونكصَ آل بالعار إلى النار ، خالداً في دار البَوَار ، وما للظالمين من أنصار" [٥] ، وفي هذا إشارة إلى قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولّوهم الأدبار * ومن يولّهم يومئذ دُبُرَهُ إلاّ متحرّفاً لقتال أو متحيّزاً إلى فئةٍ فقد باء بغضبٍ من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾ [٦] .

وقد ميّز الخطيب للجهاد أنواعاً ، فجهاد الأقوياء يكون بالنفس أو المال أو بهما معاً ، وفي الترغيب بذلك قال الخطيب " ألا فأوجبوا - رحمكم الله- صفقة بيع النفوس لمشتريها ، وأقرضوا الأموال من يُضاعفها لكم ويُزكّيها ، وابْذُلوا الأرواح في سبيل من يحرسها عليكم ويقيها ، ولا تبخلُنّ فإنّ أمره نافذ فيها" [٧] ،

---

(١) انظر الديوان : ١٩٠ ، ١٢٢ ، ٢٢٩ .

(٢) نفسه : ١٩٠ .

(٣) انظر نفسه : ٢٢٩ .

(٤) القرآن الكريم ، سورة التوبة ، اية ٥٢ .

(٥) الديوان ١٩٤ .

(٦) القرآن الكريم ، سورة الأنفال ، الآيتان ١٥ -١٦ .

(٧) الديوان : ٢٣٤ -٢٣٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقول " وأنفقوا في سبيل الله أنفسكم وأموالكم" [١] ، وفي هذا تأثّر بقول الله تعالى في الآيتين ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلّكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ [٢] ، وقوله تعالى ﴿ إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة ، يُقاتلون في سبيل الله فيَقْتُلون ويُقْتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم﴾ [٣] .

وجهاد الضعفاء من القاعدين وغيرهم يكون بالدعاء ، إذ يجأرون إلى رب الأرض والسماوات في قمع الأعداء ونصر المجاهدين [٤] .

وهناك الجهاد المعنوي الذي لا غنى عنه ، لأنّه يتقدم جهاد الأقوياء ويرافقه ، وهو جهاد النفس ، ويكون بإخلاص النيّة ، وإصلاح السريرة ، واليقين ، ثم بلزوم الطاعات ، وكبح جماح النفس عن شهواتها واتباع هواها ، وارتكاب المعاصي ؛ وفي ذلك يقول الخطيب " واعلموا أنه لا يصلح الجهاد بغير اجتهاد ، كما لا يصلح السفر بغير زاد ، فقدّموا مجاهدة القلوب ، قبل مشاهدة الحروب ، ومغالبة الأهواء ، قبل محاربة الأعداء ، وبادروا بإصلاح السرائر ، فإنها من أَنْفس العُدد والذخائر " [٥] ، ويقول " فسابقوا إلى الجهاد بقلوب نقيّة ، ونفوس أبيّة ، وأعمال رضيّة ..." [٦] ، وعندها يكون المسلمون قد نَصَروا الله تعالى على أنْفسهم فاستوجبوا نَصْرَه على أعدائهم .

ولمّا كان النّصر على الأعداء أحد أهمّ غايات المجاهدين في حَرْبِهم ضد الأعداء ، فقد أخذ الخطيب – في دعوته إلى الجهاد ، والتحريض عليه – يُبيّن العوامل

(١) الديوان : ١٨٧ . وانظر ١٢٥ ، ١٨٢ ، ٢٠١ ، ٢٣١ ، ٢٣٧ .

(٢) القرآن الكريم ، سورة الصف ، ١٠-١١ . وهي في الديوان أيضاً ، ص ١٨٣ .

(٣) نفسه ، سورة المائدة ١١١ . وانظر : ١٨٤ ، ١٩٤ ، ٢١١ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ .

(٤) نفسه : ١٨٣ ، ٤٠٠ .

(٥) نفسه : ١٨٣ .

(٦) نفسه : ١٨٩ ، ١٩٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والشروط التي يتوجب عليهم الأخذ بها ، لتقوية أنفسهم ، وتحقيق ما يَصْبُون إليه من نصر مؤزّر على عدوّ الله وعدوّهم ، ومنها تقوى الله تعالى وطاعته ، والصبر والثبات ، والابتعاد عن المعاصي ، والاتحاد والتضافر ، والأخذ بالأسباب .

وتقوى الله تعالى مطلوبة في كل الأحوال ، سِرّاً وإعلاناً ، لأنها أقوى أسباب النّصر وأوكدها ، ولن تقلّ فئة يكون تقوى الله شعارها ، لأنه تعالى مع المتقين [١] .

ويؤكد الخطيب على ذلك في الدعوة إلى الجهاد بقوله : « فاصطحبوا طاعته وتقواه ، فإنهما نِعم المصطحب ، بهما تُنال درجات السموّ ، ويُدال لمن لزمهما من العدوّ » [٢] ، وقوله : « إنّ تقوى الله خير سبيل ، من لزمها أدّتْهُ إلى خير مقيل .. بها يُوَقّى الوليّ حذره ، ويُولّي العدوّ دُبُرَهُ ، ويَنْصُر اللهُ من نَصَرَهُ ... » [٣] .

وتحصيل مثل هذا الشرط يترك أثره للعيان ، فقد رأى الناس نتائج إقبالهم على طاعة الله ، وتركهم سُبُل الإضاعة ، كيف أدّت بهم إلى إصلاح شأنهم ، وتحسين معاقلهم وأوطانهم [٤] .

وهذا يُذكّرنا بوصية عمر بن الخطاب لسعد بن أبي وقاص -رضي الله عنهما- ومن معه من الأجناد ، وفيها : « أما بعد ، فإنّي آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ؛ فإن تقوى الله أفضل العُدّة على العدوّ ، وأقوى المكيدة في الحرب » [٥] ، ويبدو استلهام الخطيب لمعانيها واضحاً .

ويلحق بهذا الشرط ضمناً إخلاص النية ، واليقين وحُسنُ الثقة بالله ، فأيُّ عدّة أعدُّ من الإخلاص واليقين في جهاد الأعداء ؟ وأيُّ جُنّة أوقى من إصلاح ضمائر القلوب وادراع مدارع الواثقين ؟ [٦] .

---

(١) انظر الديوان : ٢١٦ ، ٢١٦ ، ١٨٧ ، ٢٣٣ .

(٢) نفسه : ٢٣٤ .

(٣) نفسه : ٢٣٥-٢٣٦ .

(٤) انظر نفسه : ٢٠٠ .

(٥) العقد الفريد : ٩٢/١ .

(٦) انظر الديوان ١٨٣ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما أوصى الخطيب بحسن الثقة بالله ، وحذر من الثقة بغيره ، لأنها تورث الفشل ، وتقذف في القلوب الوجل ، وذكر أنّ الضمائر لو صَفَتْ من كدر نفاقها ، وأنّ السرائر لو انكفأت إلى الثّقة بخلاّقها لغير الله الأحوال إلى الأفضل ، فأعْذَبَ من الحياة مُرُّ مذاقها ، وحكّم سيوف المجاهدين في قُلَلِ الأعداء وأعناقها ، ولذلك يتساءل الخطيب في حثه على الجهاد : أين أهل العزائم والنيات ؟ وأين الثقة بضمان الرحمن [١] .

وأمّا الصّبر والثبات فشرط وثيق الاتصال بالذي سبقه من تقوى الله وطاعته ، ولذلك يُبيّن الخطيب في دعوته إلى الجهاد أن الله اشترط على المجاهدين التقوى والصبر ، وضمن لهم المعونة والنصر ، مشيراً إلى قوله تعالى في الآية التي أوردها الخطيب ﴿ بلى إن تصبروا وتتّقوا ، ويأتوكم من فورهم هذا ، يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين ، وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلاّ من عند الله العزيز الحكيم ﴾ [٢] .

ويوصي الخطيب بالصبر والثبات في كل الأحوال ، فبهما يتحصّن المجاهدون من كيد العدو ،ويثقون بعاجل النصر [٣] ، وفي ذلك إشارات منه إلى قول الله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾[٤] وقوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا﴾ [٥] ، ولذلك يتساءل قائلاً : أين أبناء الصبر والثبات ؟ [٦] .

وفي دعوته إلى الجهاد يحذّر الخطيب من المعاصي ، وهي كثيرة ، منها كفران النعمة ، واتّباع مُضِلاّت الأهواء ، والطّمع ، والجُبْن ، والغَدْر ، والتَوَلّي يوم الزّحْف ، والغُلُول في الأسلاب ، وانتهاك الحرمات ، وانتشار الفواحش والظلم ،

(١) انظر الديوان : ١٨٩ ، ١٩٣ ، ١٩٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٣٠ .

(٢) نفسه ١٨٩ ، والآية من سورة آل عمران ١٢٥ .

(٣) انظر نفسه ١٨٣ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ١٩٣ ، ٢٣٣ .

(٤) القرآن الكريم ، سورة آل عمران ، آية ٢٠٠ .

(٥) نفسه ، سورة الأنفال ، آية ٤٥ .

(٦) انظر الديوان : ٢٣٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والتنازع ، والفتن ، وغير ذلك مما يكون قبل الحرب أو أثناءها أو بعد انتهائها .

ولِشِدّة خطر المعصية ، رَهّب الخطيب مُحذّراً من الوقوع فيها ، لأنّ أثرها السيء لن يقتصر على ما قد يحدث في الدنيا من هزيمة ، وذلٍ ، وقتل ، وانتهاكات، وطمس لنور الإسلام ، وزوال للنعم ، وقحط ، وغلاء ، وحَجْبٍ لِقَطْرِ السماء ، وحجب للدعاء ، وإنما سيتعدّاه إلى الآخرة ، حيث غضب الله تعالى ، ولعنته ، ودخول النار .

وفي مثل ذلك يقول الخطيب "أما ترون نتائج الغدر بعد الوفاء ؟ وعواقب اتباع مضلات الأهواء ؟ كيف أدّتكُم إلى ظهور الأعداء ، وحجبت عنكم قطر السماء، ولوّحت لكم بأمارات القحط والغلاء ، وأشرفت بكم على عظيم البلاء " [١] ، ويقول " ولكن قلّ نصرُكم إياه فَقَلّ لكم النّصير ، ونبذتم كتابه وراء ظهوركم فخذلكم الظهير ، واعتصمتم بحبل غيره فكَبُرَ عندكم الصغير ، وأفشيتم الفواحش ففشا فيكم التقصير ، ... وأهملتم النفير إلى أعداء الله فاتصل إليكم منهم النفير ، وأتيتم في ناديكم المنكر ، فأتاكم من الله النكير" [٢] ، ويُبين العلة في عدم إجابة الدّعاء ، وهي صورة تتكرر في واقع الأمة رابطاً ذلك بالمعصية في قوله « وقال الجاهلون : ما لنا ندعو الله فلا نُجاب ؟ أجل ، إن الألسُن بالدعاء ناطقة ، ولكن القلوب للأهواء موافقة ، فالدعاء لذلك محجوب ، والرجاء منكوب ...» [٣] .

ووصية الخطيب للمجاهدين بالابتعاد عن المعصية ، تُذكّرنا بوصية عمر بن الخطاب لسعد بن أبي وقاص – رضي الله عنهما- ومن معه من الأجناد ، وفيها «وأمرك ومن معك من الأجناد أن تكونوا أشدّ احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوفُ عليهم من عدوهم ، وإنما يُنصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة » [٤] ، ويظهر تأثر الخطيب واضحاً

---

(١) الديوان : ٢٥٧ .

(٢) نفسه : ٢٢١ .

(٣) نفسه : ٢٢٠ .

(٤) العقد الفريد : ٩٢/١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بمعانيها .

وفي تحريض الخطيب على الجهاد دعوة للاتحاد والتضافر ، وذلك بالتعاون على ما يُرضي الله ورسوله ، والالتفاف حول القيادة وطاعتها ، ونبذ الفرقة والخلاف والتنازع والفتن ، وبذلك يتم إرهاب العدو ، وتحقيق وعد بالله بالنصر ، كما جاء في قوله تعالى ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾ [١] ، ويؤكد الخطيب على ذلك بقوله " وسدّدوا ثغركم باتفاق أخلاقكم وآرائكم ، يُعْزِزكم اللّه ، وينصركم على أعدائكم» [٢] .

ويُحذّر الخطيب من الاختلاف والتنازع ، مؤكداً أنّ في ذلك هتكاً لستور النعم، وبتكاً لأسباب الرجاء ، وإيذاناً بحلول البلاء ، لأنّ الأمم السالفة إنما هلكت بتشاحنها ، وأهوائها المختلفة [٣] .

ويُبيّن خطر الفتنة مبيناً أثرها ، ومحذراً منها ، وداعياً إلى نبذها ، واتقاء شرها ، فهي نار شديد ضِرامُها ، جائرةٌ أحكامها ، مذمومة أيّامها ، تُغير النِّعَم ، وتُعجل النقم ، وتقطع وشائج التواصل ، وتصير بأهلها إلى البغضاء والتخاذل ، فتصبح الآراء سخيفة ، والأحكام ظالمة ، والأهواء مختلفة ، والأحقاد مكتنفة ، وتوصدُ أبواب الرشاد ، حتى يكون القريب بعيداً ، وذو العشيرة والأهل وحيداً ، ويطمع العدو في أهلها ، ولذلك شدد الخطيب في التحذير منها وسلوك سُبُلها ، ودعا إلى لزوم كلمة التقوى ، وترك نخوة الحميّة ، ودعوة الجاهلية ، لأن الله جعل المسلمين إخواناً ، وأمرهم أن يكونوا على البر والتقوى أعواناً [٤] .

ويبدو تحذير الخطيب من الفتنة وخطرها متأثراً بقوله تعالى ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، واعلموا أنّ الله شديد العقاب﴾ [٥] .

---

(١) القرآن الكريم ، سورة آل عمران ، آية ٩٣ .

(٢) الديوان : ٢٤٠ .

(٣) انظر نفسه : ٢٣٩ .

(٤) نفسه : ١١٢ ، ١١٣ .

(٥) القرآن الكريم ، سورة الأنفال ، آية ٢٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويؤكد الخطيب أنّ اختلاف الأمة سبب في هزيمتها ، فظهور الأعداء يُخبر عن خبث السرائر ، واختلاف الأهواء [١] ، ولذلك يذكر الناس بما عهدوه أيام الاتحاد والتضافر بقوله " أو لم تكونوا بستور عوافي الله مستورين ، وفي بحور نعمائه مغمورين ، وعلى أعدائه وأعدائكم منصورين ، أيام كنتم بالتضافر على ما يُرضيه مشهورين ؟ » [٢] .

ويعُدّ الخطيب الالتفاف حول القيادة شكلاً من أشكال التضافر والوحدة ، ولذلك يحثُّ على لزوم طاعة أولي الأمر ، ونُصْرَتهم ، والدعاء لهم بطول العمر ، والتأييد ، والنصر على الأعداء ، ونجده يكرر ذلك في خطبة واحدة مرتين ، بقوله : « وأخلصوا الضمائر في طاعة أولي الأمر » ، وقوله : « واعرفوا حقوق علمائكم وكبرائكم ، والزموا طاعة ولاتكم وأمرائكم » [٣] ، وفي هذا إشارة من الخطيب إلى قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ [٤] ويذكّرهم بحديث رسول الله : أمتي كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً [٥] .

وفي دعوته إلى الجهاد يحث الخطيب على الأخذ بالأسباب المادية ، باعتباره من عوامل النصر ، ويكون ذلك بتجهيز الجيوش وتدريبها ، وزيادة أعدادها ، وتوفير السلاح ، وتحصين المعاقل ، وحفر الخنادق ، وجمع الأموال للإنفاق والشراء، وغير ذلك .

وفي ذلك يقول الخطيب «فأرهبوا عدوّ الله بتضافر الكلمة على إرغامه ، واستعداد العُدّة له عند إحجامه وإقدامه» [٦] ويقول «واحتموا منه بشاكي السلاح» [٧] ويقول « والاقتداء في حفر الخندق بسُنّة رسول الله جُنّة واقية من

(١) الديوان : ١٢٣ .

(٢) نفسه : ٢٢٣ .

(٣) نفسه : ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

(٤) القرآن الكريم ، سورة النساء ، آية ٥٩ .

(٥) انظر الديوان : ١١٤ .

(٦) نفسه : ١٩٧ ـ ١٩٨ .

(٧) نفسه : ٢٠٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المحذور ، .... وأظهروا لأعدائكم العُدَّة » [١] ، وفي كل هذا إشارة إلى قوله تعالى : ﴿وأعِدُّوا لهم ما استطعتم من قُوَّة﴾ [٢] .

وبعد قراءة متأنية يستنتج الباحث أنّ الأخذ بالأسباب المادية ، قياساً إلى عوامل النصر الأخرى هو بمثابة الفرع إلى الأصول ، وذلك بسبب ما يلي :

١ - قلة الشواهد التي ساقها الخطيب عليه قياساً إلى العوامل الأخرى .

٢ - عدم ربط الإعداد المادي بالنصر بشكل مباشر ، إذ يكتفي بالتوجيه إلى الإعداد المادي دون أن يُصرِّح ولو بعبارة واحدة تفيد أنّ النصر مرتبط بمثلِ هذا الإعداد ، فيما يُشير بوضوح أن العوامل الأخرى شرط لا غنى عنه لتحقيقه ، بل إنّ توفر الأسباب المادية دون غيرها ، لا يحول دون وقوع الهزيمة المنكرة ، وهذا ما أراد الخطيب توجيه الناس إلى إدراكه بأخذ العبرة والاتعاظ ممّا حدث لأهل الثغور من المسلمين عندما وصف أفاعيل العدو بهم على وفرة عَدَدهم وكثرة استعدادهم قائلاً :« وإن لم تنصروا الله نصرهُ عليكم، كدأبه فيمن رأيتموه من أهل الثغور ، الذين أحلّ بهم دواهي الأمور ، ولقد كانوا أكثر منكم جهاداً ، وأوفر عدداً واستعداداً ، أبلاهم الله بما شيب رأس الوليد ...» [٣] .

فالنصر كما يرى الخطيب من اللّه على الأعداء يكون لعباده المؤمنين الذين نصرُوهُ على أنفسهم بطاعتهم له ، وإيمانهم به ، لا بكثرتهم وعتادهم ، فمن وصل حبل الله وصلهُ ، ومن أخْمَلَ حقّه أهمله ، ومن قَعَدَ عن نصرته خذله ، ومن كان لله كان الله له ، وما قلّت فئة كان تقوى الله شعارها ، ولا قلت عُصبة والملائكة أنصارها [٤] .

ويستدل الخطيب مدعماً رأيه بإيراد آيات من كتاب الله تعالى مثل

---

(١) الديوان : ٢٠٠ .

(٢) القرآن الكريم ، سورة الأنفال ، آية ٦٠ .

(٣) الديوان : ٢٢٦ - ٢٢٧ .

(٤) نفسه : ٢١٦ - ٢٢٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

﴿ولينصرن الله من ينصره﴾ [١] وقوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم ﴾ [٢] وقوله تعالى ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمناً ..﴾ [٣] .

ويرى الخطيب أنّ نصر الله تعالى نعمة ورحمة لأوليائه من أهل التوحيد ، ومِنّةٌ منه وفضل لا حول لهم ولا قوة به ، وفي ذلك يقول : «ولقد أنعم الله عليكم نِعماً شيّد بآخرها أوّلها ، ... من فتوح سببها لكم وسهلها ، ... أمدكم فيها بمعونته صبراً ونصراً ، وأمكنكم من نواصي الكفرة قَتْلاً وأسْراً ، ... وأنتم تعلمون أنكم لم تستوجبوا ذلك بأعمالكم ، ولم يَجْرِ مثالُه في طُرُق أمالكم .. » [٤] ولذلك يحثّ المسلمين على شكر هذه النعمة ، والمحافظة عليها ، وعدم التفريط بها ، حتى لا تنقلب النعمة نقمة ، وفي ذلك يقول « فالله الله - عباد الله - أن تُخربوا النعمة بمعاول العصيان ، أو تعرضوا مصونات الحُرَم للهتك والهوان ، أو تؤثروا دار المخاوف على دار الأمان ، فيجوز عليكم عدوّكم قصبات السَّبْقِ يوم الرّهان » [٥] .

وأما الهزيمة فمن الله تعالى لعِلّة ترجع إلى تقصير المسلمين ، وتوانيهم عن الجهاد ، ومعصيتهم لله ورسوله ، وغفلتهم ، وتفرقهم ، وحبّهم الدنيا ، وفي ذلك يقتبس الخطيب من القرآن قول الله تعالى : ﴿أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثْلَيْها قلتم أنّى هذا ؟ قل : هو من عند أنفسكم إنّ الله على كل شيء قدير﴾ [٦] .

غير أنه يُوضّح أنّ الهزيمة من عند الله لِحِكمَةٍ يُريدها ، فهي ابتلاء ، وامتحان، وتمحيص ، وفي ذلك يقول : « فما لِهوانِكم وإكرامهم أوْطَأهُم الله دياركم، ولكن لقوله : ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو

(١) انظر الديوان : ١٩٠ . والآية في سورة الحج : ٤٠ .

(٢) نفسه : ١٨٣ ، ١٨٧ ، والآية في سورة محمد : ٧ .

(٣) نفسه : ١٩٢ . والآية في سورة النور : ٥٥ .

(٤) نفسه ٢١٤-٢١٥ . وانظر ٢٧٨ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

(٥) نفسه : ٢١٦ ، وانظر ٢٢٣ .

(٦) انظر نفسه : ٢٣١ ، والآية من سورة آل عمران ١٦٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أخباركم [١] ، وهكذا يرفع الخطيب الروح المعنوية للمجاهدين إذ لن يصيبهم إلاّ ما كُتب لهم ، ولا ينبغي أن يهنوا أو يحزنوا ، لأنهم الأعْلَوْنَ ما داموا مؤمنين .

وفي تحريض الخطيب على الجهاد ، نجده يستنهض الأمة بكل طاقاتها ، بعد أن تأخذ بعوامل النصر لمقارعة الأعداء ، وفي ذلك يقول « فانفروا - رحمكم الله - جميعاً وثباتٍ ، وشنوا على أعدائكم الغارات ، وتمسكوا بعِصَمِ الإقدام ومعاقل الثبات ، وأخْلِصوا في جهاد عدوكم حقائق النيّات» [٢] ، ويقول «فانفروا - رحمكم الله - رجالاً وركْباناً ، وشيوخاً وشُبّاناً ، مشمرين غير مقصرين ، مقبلين غير مدبرين ، مُجِدّين في الطّلب غير راكنين إلى الهَرَب» [٣] ، وفي هذا تأثر بقوله تعالى ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ [٤] .

كما نجده يُحرض على الاجتهاد واستغلال الفرص واغتنامها ، والمبادرة إلى جهاد الأعداء ومواصلة التشمير ، قبل أن تعوق العوائق ، فَحَبْلُهُم مُنْقَطِع ، وشَعْبُهُم مُنْصَدِع ، ووقتهم متكدر ، ومقاتلهم مكشوفة ، مؤكداً أن الهجوم خير من الدفاع ، إذ إنّ قَمْع العدو في بلده أوان إحجامه أيسرُ من دفع مددِه عند إقدامه ، وقعود المسلمين عن جهاد العدو يعني نهوضه إليهم ، وعدم نصرهم لله يؤدي إلى نصره لأعدائهم [٥] .

وفي تحريض الخطيب على الجهاد ، نراه يدعو إلى الاعتبار بالآخرين ، كما حصل لأهل الثغور الذي أحَل الله بهم على يد العدو دواهي الأمور ، بسبب تقصيرهم [٦] .

---

(١) الديوان : ١٩٨ ، وانظر ١٩٣ ، والآية من سورة محمد : ٣١ .

(٢) نفسه : ١٨٣ .

(٣) نفسه : ١٨٧ .

(٤) القرآن الكريم ، سورة التوبة ، آية ٤١ .

(٥) انظر الديوان ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٧ ، ٢٢٦ .

(٦) نفسه ، ٢٢٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما نراه في تحريضه على الجهاد يزهد في الدنيا ، ويُحذّر منها مذكراً بمآلها في مثل قوله « ولا تكونوا من الذين اتخذوا الدنيا مَعْقِلاً ورَضُوا بالعجز والتخلف موئلاً ، فأسلمتهم الدنيا إلى الخذلان ، وقادهم العجز إلى الذل والهوان ، فلم يحصل لهم من الدنيا ما أملوه ، وفاتهم من الآخرة ما أهملوه » [١] ، وقوله « ولا تنوا في أمر المعاد كما ونيتم في أمر الجهاد ، حتى فجأكم عدوّكم قبل الاستعداد فبلغ من مكروهكم أقصى المراد » [٢] .

ونراه يذكّر بالموت مبيّناً أنْ لا علاقة للجهاد بتقديمه أو تعجيله ، وفي هذا حَفْزٌ للمجاهدين حتى ينطلقوا لقتال عدوهم ، وفي ذلك يقول « شمّروا للجهاد عن ساق العزم الجَلِيّ ، ... فإنه - والله - لا قرّب أجَل أحدِكم الإقدام ، ولا زاد في عمره الإحجام ، وإنما هي آجال محدودة ، وأنفاس معدودة » [٣] ، ويبدو الخطيب هنا متأثراً بقوله تعالى ﴿ وما كان لنفسٍ أن تموت إلاّ بإذن الله كتاباً مؤجلاً﴾ [٤] .

ويسعى الخطيب في تحريضه على الجهاد إلى استثارة الغيرة ، والنخوة ، والحمية في قلوب المسلمين ، كما في قوله « ولو لم يكن - عباد الله - في الجهاد ثوابٌ في المآل ، ومرضاة لذي الجلال ، إلا الغَيْرة على الحُرم والأطفال ، والحميّةَ على النّعم والأموال ، والأنفة من غلبة الكفرة الأنذال ، لكان في ذلك ما يشغل عن غيره من الأعمال ، ويَزْجُرُ عن التلوُّم والاعتذار » [٥] ، وفي ذلك يتساءل : « أين أهل العزائم والنيات ؟ أين أبناء الصبر والثبات ؟ أين المحامون عن الحُرم المصونات ؟ أين الطالبون شرف المحيا والممات ؟ أين الناشئون تحت خفق البنود والرايات ؟ أين المنعوتون في سورتي الأحزاب والحجرات ؟ » [٦] مشيراً في سورتي الأحزاب

---

(١) الديوان : ١٨٦ .

(٢) نفسه : ٢٢٣ .

(٣) نفسه : ١٨٥ ، ١٨٦ ، وانظر ١٩٦ ، ١٩٧ .

(٤) القرآن الكريم ، سورة آل عمران ، آية ١٤٥ .

(٥) الديوان : ٢٢٦ .

(٦) نفسه : ٢٣١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحجرات إلى قوله تعالى ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾ [١] ، وقوله تعالى ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ﴾ [٢] .

وفي التحريض على الجهاد ، نرى الخطيب يُقلل من شأن العدو ، إذ لاينبغي للمؤمنين أن يخافوا عدوّهم ولو طبّقت الغبراء جنوده ، وشرّقت الفضاء بنودُه ، لأن النّصر من عند الله للمؤمنين ما نصروه ، فلم يستنكف أهل التوحيد وحملة القرآن عن قتال عدوهم ؟ ولمَ يستسلمون لأهل الجحود وعَبَدَة الصُّلبان ؟ [٣] ولذلك يأخذ الخطيب في تقريع المتخاذلين والفارّين وتعنيفهم ، فهم أقلُّ قدراً من الطّيْر ، وأدنى منزلة من البهائم ، ذلك أنّ البهائم تُناضل عن ذمارها ، والطير تموت حمية دون أوكارها ، بلا كتاب أُنزل عليها ، ولا رسول أُرسل إليها ، وأما هؤلاء فيهربون من عدوهم ويدرعون العجز والفشل ، ويرضون لأنفسهم العار والذل والهوان ، إذ يمدُّون لِحُكم عدوّهم خواضع الرقاب ، وتطيب نفوسهم لحريمهم المستباح ، ويطأطؤون للذلّ الصّراح رؤوسهم ، كأنهم النساء وعدوهم الرجال ، أو كأنّ دين عدوّهم الحق ودينهم الضّلال [٤] .

ولا ينسى الخطيب تأجيج مشاعر المسلمين ، عن طريق الموازنة والمقارنة بين العقيدة الدينية للعدو والمسلمين ، فالحرب بينهم دينية ، ولذلك يصف الروم بعداوتهم لله ورسوله وصدّهم عن سبيله ، وولائهم للشيطان الذي استخفهم لدعوته فاستجابوا له ، ويذكر أنهم أهل العناد والكفر ، وعبدة الصليب الذين أشركوا بالله وجعلوا له أولاداً ميّتين وشركاء مربوبين ، وعبدة الصليب .

ثم يوازنهم مع المسلمين إذ ليس لهم بصائر كبصائرهم ، ولا يأملون أن

---

(١) القرآن الكريم ، سورة الحجرات ، آية ١٥ .

(٢) نفسه ، سورة الأحزاب ، آية ٢٣ .

(٣) انظر الديوان : ١٨٦ ، ١٩٣ ، ١٩٧ .

(٤) نفسه : ١٨٨ ، ١٨٩ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يصيروا إلى مصائرهم ، لأن المسلمين أهل التوحيد والحق ، وحملة القرآن المجاهدون في سبيل الله تعالى [١] .

ويستغل الخطيب مجيء نفير خراسان القادم بعد استنجاد المسلمين واستغاثتهم لما حلّ بحلب والثغور سنة ٣٥١هـ ، فيذكر لُطْفَ الله تعالى وتدبيره ، ويصف كثرة النفير ونيات جنده المخلصة ، والأماكن التي وَفَدوا منها ، والمشاقّ التي تحملوها والطرق التي سلكوها . وذلك ليجعل منهم قدوة للمتقاعسين ومثلاً يُحتذى للمتخاذلين ، وليكونوا سبباً في بذل المزيد من الجهد ، وفي ذلك يقول الخطيب «وأزاحَ عِلَلَكُم بتضافر إخوانكم الأنجاد ، الذين أمّوا نُصرتكم من أقطار البلاد ، جعلوا مقدماتهم صدق نياتهم ، وساقاتهم طهارة طوياتهم ، فأتوكم شعثاً من كل فج عميق ، ... ابتغاء وجه ذي الجلال ، والتماساً للشرف الأكبر يوم المآل ، وإعذاراً من الله إليكم أيها الغافلون ، واستظهاراً بالحجة عليكم لينظر كيف تعملون » [٢] .

ويذكر ابن نباتة في خطبه البطل ، وهو الأمير سيف الدولة،فيمتدحه ويُعدد مناقبه ، ويصفه بأنه المجاهدُ في سبيل الله بنفسه وماله ، والمدافعُ عن دينه ومِلة نبيه وفارس الدين وحارسه المشمّر في إعزازه ورفع ذكره ، والجامعُ لشمله بعد تفرّقه ، والقامع لأعدائه في كل محل ووطن ، فهو قطب رحى الجهاد في البر والبحر ، الذي لا يطيب لعينه الرقاد حتى يتم له تحقيق ما يرضاه الله تعالى ، وهو ركن الإيمان ومَعْقِله ومَلْجؤه وموئله [٣] .

ويصف شجاعته وجرأته وصبره ، فهو شهاب الحرْب الزبون ، وخائض غمرات المنون ، الذي يخوض لُجَجَ الأهوال ، ويقبض مُهَجَ الأبطال ، وهو الليث الممارس ، والكميّ المداعس ، والهمام المِحْرَب ، وصاحب اللواء المعقود ، والبلاء المحمود ، والبأس المشهود ، وهو سيف الله المنقطع القرين [٤] .

(١) انظر الديوان : ١٨٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٦ ، ٢٠٩ ، ٢١٣ ، ٢٧٧ ، ٤٤٥ ، ٥٥٦ .

(٢) انظر نفسه : ٢٠٤ ، ٢٠٦ .

(٣) نفسه : ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣٢٢ .

(٤) نفسه : ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣٢٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويصف تفرده بالبطولة بين نظرائه ، فهو حارس كافة المسلمين وهم رقود ، والقائم بنصر دين الله وهم عنه قعود ، كما يذكر قيادته وما تركته من أثر على المسلمين ، فقد أعزّهم بعد الإذلال ، وأمّنهم بعد الخوف ، فأصلح الفساد ، وسكن النفوس ، وقمع الفتن والأعداء ، ورفع المجاهدين ، وعضد المؤمنين بعد أن كانوا قلة مستضعفين ، ويذكر أخلاقه وكرمه وعدله فقد شَمِلهم بإحسانه ، وغمرهم بامتنانه، وتابع لهم بذله ، وبسط فيهم عدله ، ووكل رعايتهم أبناءه [١] . ويذكر ابن نباتة أوصافاً أخرى تناسب سيف الدولة فهو عنده سيف الله القاطع والمهند والصّارم ، وشهابه السّاطع والثاقب ، وسهمه المسدد وفارس دينه المؤيد ، وحِزْبه الغالب ، وحقُّه الواجب ، ذو الوجه الأزهر ، والنسب الأطهر ، واللقب الأشهر [٢] .

ويصف الخطيب سيف الدولة بأنه نعمة الله السابغة على أوليائه ونقمته البالغة على أعدائه ، ولذلك نراه يطلب من المسلمين شُكْر هذه النعمة والمحافظة عليها ، وذلك بطاعته ونصرته ، والدعاء له بطول العمر والتأييد ، والنصر على الأعداء [٣] .

وقد خصص ابن نباتة في ديوانه فصولاً تتضمن الدعاء للولاة وعموم المسلمين، وهي مما يُدعى به في الخطبة الثانية [٤] .

وعندما يذكر جيوش المسلمين وجندهم يذكرهم بالهزائم التي ألحقوها بالروم، وما فعلوا فيه من قتل وإذلال ، فهذه رُبقُ الإسار في أعناق الزَّراور والبطارق ، وأحكامهم نافذة في أَعِزّاء الدَّماسق ، ورَهْبَتهم مشتّتَة جموع الفيالق ، وذكرهم شائع في المشارق والمغارب ، وسيوفهم تطال أعناق الأعداء متى شاؤوا ، ولذلك دعاهم إلى مواصلة النفير ، واغتنام الفرص ، فحبلُ العدو منقطع ، وأسواره مثلّمة ، وأظفاره مُقَلّمة ، وفي الوقت نفسه حَذَّرهم من العدو المتربِّص

---

(١) الديوان : انظر ١٢٨ .

(٢) نفسه : ١٢٨ .

(٣) انظر نفسه : ٢٣٩ - ٢٤٠ ، ٢٧٨ ، ٢٨٦ ، ٣١٥ .

(٤) نفسه : فصول الأدعية للولاة ، ٣١٣-٣٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وصَوَّرَه بالنار تحت الرماد ، إذ لو أمْكَنَتْهُ فرصةٌ من المسلمين لما أغْفَلَها ، ولو استوت له عليهم كَرَّةٌ لشمر لها [١] .

وتجسيداً للصراع الديني بين المسلمين والروم ، فقد وصفهم الخطيب بأنهم أعداء الله ورسوله ، الصادون عن سبيله ، المكذبون بتنزيله ، الذين جعلوا له أولاداً ميّتين وشركاء مربوبين يأكلون الطعام ويخافون الأسقام ، وهم أهل الجحود، والعناد ، والكفر ، والغدر ، وأولياء الشيطان ، وعبدة الصلبان [٢] .

كما نراه في ذكر جند المسلمين يصف الغوث القادم من خراسان بكثرة جُنده ، وصدق نياتهم ، ويتحدث عن المشاق التي تحملوها ، والغايات التي ينشدونها ، فقد جاؤوا من أقطار البلاد كتائب وعصائب ، راجلين وراكبين ، شُعْثاً من كل فج عميق ، قد جعلوا مقدماتهم صدق نياتهم ، وساقاتهم حُسن طوياتهم ، مخاطرين بغوالي المهج ، مستقصرين بُعد السفر ، مستشعرين جزيل الأجر ، ابتغاء وجه الله تعالى ، والتماساً للشرف الأكبر في المعاد [٣] .

وبالمقابل يصف جند المسلمين عند الهزيمة والفرار ، قد نكصوا عن عدوهم على الأعقاب ، وتركوا ما رغّبهم الله فيه من جهاد عدوه وعدوهم ، ومدُّوا لحكمه خواضع الرقاب ، واستكانوا فلا يُحرك أحد منهم ساكناً أنفة أو غضباً لله والإسلام، ولا يطلبون ثأرهم ، أو يستحيون من غلبة عدوهم على بلادهم ، وتملكه حصونهم وديارهم [٤] .

وعندما يذكر فتوحاتهم ، يُذكرهم بطاعتهم لله وتضافرهم ، وطاعتهم لولي أمرهم ، ويصف أفعالهم بقادة عدوهم وجنده ، ورهبتهم في كل مكان ، وذكرهم على كل لسان [٥] .

---

(١) الديوان : ٢١٢ ، ٥١٥ .

(٢) نفسه : ١٩٧ ، ٢٠٦ ، ٢٧٧ ، ٤٤٥ .

(٣) نفسه : ٢٠٤ -٢٠٦ .

(٤) نفسه : ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٦ .

(٥) انظر نفسه ، ٢١٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا ينسى الخطيب أن يوجه الناس إلى المشاركة في دعمهم والدعاء لهم ، ولذلك خصص ابن نباتة فصولاً يدعو بها لجيوش المسلمين وولاتهم ، يقول بها في الخطب الثواني [١] .

وعندما يتحدث الخطيب عن العدو ، فإنه يصف كثرتهم فهم كسحاب ممتد الأطناب ، قد طبقت الغبراء جنودهم ، وشرقت الفضاء بنودهم ، وهم في مثل عدد النجوم والقطر ، قد ملؤوا البرّ والبحر . ويصف طاعتهم وولاءَهم لقيادتهم واستجابتهم لدعاتهم ، إذ قد استخفهم الشيطان داعياً فلبّوه إلى باطله [٢] .

ويتحدث الخطيب عن انتصارات العدوّ ، وعلوّه على بلاد الإسلام وسطوته ، فقد بلغ سَيْلهم من بلاد المسلمين أعلى الزُّبى ، وطمّ بحرهم الوهاد منها والرُّبا ، ودبت في ديارهم منه عقارب الخراب ، فهو يتملّك البلاد ، ويحتنك السواد ، ونفيره يتواصل ، وزحفه لا ينقطع ، وهذا قائدهم قد دوخ الأقطار ، وفتح الأمصار ، وأخرب الديار متجاوزاً في بَغْيه وعتوّه كلّ مقدار ، حتى ارتعدت منه فرائص الإسلام ، وطاشت لفرقته عقول الأنام ، وهو وجنوده كالداء الذي لا تزيله أضاليل الرُّقى ، قد فعلوا الأفاعيل الشنيعة بالمسلمين التي يشيب لها رأس الوليد ، فقد أطفأوا من صدور أكثرهم نور التوحيد ، وقتلوا غالبهم ، وظلّ من بقي منهم أسيراً ، أو فاراً مصيره التشتيت والتبديد ، وتركوا ديارهم عبرة للقريب والبعيد ، وهم في كل ذلك لا يأبهون بالمسلمين ، وقد أمنوا أن تَحفِزَ أحدهم الأَنَفَة إليه ، أو يصول غضباً لله والإسلام عليه [٣] ، ولهذا يُحذر الخطيب المسلمين من عدوهم ، ويخوّفهم إياه ، حفزاً لهم على أن يقدُروا له قدرهُ ، فلا يستهينوا ، ولا يتوانوا ، وليعلموا مآل المنهزمين وذلّهم ، فلا يركنوا إلى الدّعة ولا يُهادنوا .

وحتى لا يترك الخطيب اليأس يتسرّب إلى نفوس المجاهدين ، فإنه يشدُّ من عضدهم ذاكراً أن الله تعالى معهم مهما كثرت أعداد عدوهم ، فالنصر من عنده

---

(١) الديوان : ٢١٣-٢٣٠ .

(٢) نفسه : ١٨٨ ، ١٩٣ ، ١٩٧ .

(٣) نفسه : ١٨٨ ، ١٩٣ ، ١٩٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢٦ ، ٢٣٠ ، ٢٣٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لهم، والهزيمة من عنده لأعدائهم [١] ، ويُقلّل من شأن العدوّ ، فهم جسوم ماثلة وجثث كافرة ، تتضمن قلوباً ماحلة طائرة ، نَعَقَ بها الشيطان فاستخفها ، ووعدها فأخلفها ، ولو مّستها صوارم المسلمين المخلصة ، لتهافتت تهافت الفراش [٢] .

ويتحدث الخطيب عن المعركة ، فيذكر أدواتها ، وأسلحتها من سيوف ، ورماح ، وخيولٍ ، ونِبالٍ ويُبين شدة المعركة وأهوالها ،وصَخَبها وغُبارها ، والتقاء الجيوش ونزول الفرسان ، ويستخدم الخطيب في وصف المعركة ألفاظاً تناسبها ، في مثل قوله « في مُخْتَطَفِ الأرواح ، ومُخْتَلَفِ الرماح ، عند هَيْقَعة الصوارم ، وشَغْشَغَة اللّهازم ، وهَيْنَمَة الغَماغِم ، وزَمْزَمَة الهَماهِم ، وافتِضاض الفَلاصِم ، عند ارْفِضَاض الجَماجم ، وكَرّاتِ الخَيْل في هبوات كاللّيل ، ولَمْع البواتِر في نَقْع الدياجِر واعْتِناقِ القساطِل عند اصْطِفاقِ الجحافِل » [٣] .

ويَصِفُها بصورة تمتلئ بالحركة في موضع آخر بقوله « عند اغبرار الأفق ، واحمرار الحدق ، وانهمار العرق ، وارتكابِ طبقٍ عَنْ طبق ، وازدِلافِ الزُّحوف ، والتفاف الصفوف ، واختلاف السيوف ، والانصراف من الحتوف إلى الحتوف ، إذا تداعتِ الأقران إلى النزال ، وأبْطَل حُكم الصوارم حُكْم النبال ، وحَسُنَ التَّجاهل باللمم البجال ، وحامت عُقاب المنايا على الأبطال ، وتَسَاقَت الكُماة بينها كؤوس الآجال ، وفصمت بحقائقها عرى الآمال ، وسلت النفوس عن الأولاد والأموال...»[٤] ، وبعد وصفه للمعركة يحث على خوضها إذ الجنة موجودة تحت ظلالها [٥] .

وهكذا وجدنا الخطيب يستغل الترغيب والترهيب باعتبارهما طريقين يؤثر عبرهما في الجماهير داعياً إلى الجهاد ومحرّضاً عليه ، فهو يُرغّب في الجهاد مبيناً فضله ، ومآل المجاهدين في الدنيا والآخرة ، رابطاً النصر بالله ، ويذكر عوامله من

---

(١) الديوان : ١٩٣ .

(٢) نفسه : ١٩٧ .

(٣) نفسه ١٩٣- ١٩٤ .

(٤) نفسه ٢٣٦- ٢٣٧ .

(٥) نفسه ٢٢٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تقوى الله وطاعته والصبر والثبات ، والأخذ بالأسباب المادية ليأخذ المجاهدون بها، ثم نراه يدعو إلى الوحدة والتضافر وطاعة أولي الأمر ، واغتنام الفرص في الهجوم على الأعداء الذين يريدون القضاء على الإسلام وأهله ، ويستنهض الأمة بكل طاقاتها وإمكاناتها ، لأن الموت حقّ لا يُقدمه الجهاد ولا يُعَجِّله ، كما يُقلّل الخطيب من شأن العدو فالنصر من عند الله ، والهزيمة ابتلاءً وتمحيص ، ويدعو إلى الزهد في الدنيا ، وتذكُّر الموت ، والاعتبار بالآخرين .

لقد عكس لنا الخطيب إخلاصه في الدعوة إلى الجهاد والتحريض عليه ، وبرزت في أدبه الجهادي سمات واضحة منها الموازنة والمقابلة ، وهذا طبيعي لأنه يعتمد فيه الترغيب والترهيب ، والمقارنة بين المجاهدين والمتخاذلين ، والمسلمين والعدو ، والنصر والهزيمة ، وغير ذلك .

وقد ترتب على ذلك بروز سمة التكرار في المعاني والتراكيب والألفاظ ، مما قلّل من الابتكار في هذا الباب ، ولم يجعل له حظاً من الابتداع إلا في الصور ، كما أنّ ما فيه جاء مستلهماً من كتاب الله تعالى وسُنّة نبيّه ومن خُطَبِ المتقدمين ووصاياهم .

ومن سمات الأدب الجهادي عندالخطيب كذلك الواقعية ، فهو لا يتحرّج من ذكر الهزائم ، وذكر أفاعيل العدو ، والتّعريض بالمتخاذلين الفارّين ، والإشارة في خطبه إلى هزائم المسلمين أكثر منها إلى انتصاراتهم ، مما يُعدُّ ظاهرة ملفتة للنظر ، إذ قلّما نجد في أدبنا العربي في هذا الجانب من بلاد المسلمين تركيزاً على الهزيمة ووصفها .

ولا يعني ذلك أن نعُد خطب ابن نباتة من الأدب الانهزامي ، بل إنه يربط الهزيمة بمعصية المسلمين لله ورسوله ، ويجعلها ابتلاء وتمحيصاً لهم ، ويستغلها لحشد الطاقات وإشعال العواطف ضد العدو ، ولذلك ينبغي أن نعدُّ خطبه في الأدب المقاوم ، إذ لا يدعو إلى البكاء ، وندب الحظ ، أو الخنوع والرضا والتسليم بعلو الأعداء ، ولا ينفك عن الدعوة إلى استنهاض الأمة بكل ما أوتِيَتْ من قوة .

و يركز الخطيب في وصفه البطولة على صورة البطل الفرد ، وهو القائد

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والأمير سيف الدولة الحمداني ، فيمتدحه صادقاً ، ويُعلي من شأنه ، ويدعو الناس إلى طاعته ونصرته والدعاء له ، فهو نعمة سابغة من الله ينبغي شكرها ، لأنه حارس الدين والدنيا ، المتكفل دون نظرائه بصد العدو والدفاع عن دين الله ، وهي صُوَر متكررة يُمتدح بها القادة ، فيما تقلّ الإشارات إلى جنود المسلمين ، وفي الحديث عن العدو تتم الإشارة إلى كثرة عَدَدِه ، وإبراز عقيدته الدينية ، وذِكر أفاعليه الشنيعة ، وهي صور متكررة في وصف العدو وذمه .

وعند ذكر المعركة يصف الخطيب جوّ المعركة العام ، ولا يذكر أحداثاً على غرار ما نجده عند المتنبي وغيره من الأدباء والشعراء ، ولعلّ قِصَر خطب ابن نباتة ، ومراعاته أحوال المستمعين إليه قد حال دون خروجه عن المعهود من أمر أدب الجهاد في خطب المساجد ، ولكن العبرة والفائدة المرجُوّة منه إنما تكون بما تركته هذه الخطب من أثر واستجابة في نفوس المستمعين ، ولقد أفْلَحَ الخطيب في هذا الأمر ، حتى قيل إنه لما كان يخطب بالناس في أمر الجهاد ، كان أكثرهم يخرج إلى الغزاة بعد أن ملؤوا الجامع استجابة وتأثراً بكلامه [1] ، وهكذا يكون الأدب الجهادي للخطيب قد أدى دوره في عصره . وأمّا التأثر به عند الناس في غير عصره ، فيكتفى فيه بالرجوع إلى اهتمامهم بالخطيب وديوانه من حفظ وشرح معارضة وغير ذلك مما ذكرناه عند البحث في مكانة الخطيب ، وهذه المظاهر تُبرز القيمة الأدبية لفن الجهاد عن الخطيب إذ يصلح للتمثل به .

كما تبرز القيمة التاريخية لهذا الأدب في الإشارة إلى أحداث ومناسبات تاريخية حصلت في ذلك الوقت مثل الانتصارات والهزائم وقدوم وفود الاستنجاد والغوث ، وحفر الخندق وغير ذلك ، ويفيد الرجوع إليه في أخذ العبرة مما حدث للأقدمين .

---

(١) انظر (نخبة تاريخية) كاتار : ٢٨٥ نقلاً عن تاريخ الفارقي وهذا النص غير موجود في القسم المطبوع منه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانياً : الاتجاه الديني :

وهو الاتجاه العام السائد في الديوان ، وقد شغلت موضوعاته الحيز الأكبر منه ، وتشابكت معه في سلسلة متّصلة يؤدّي بعضها إلى الآخر ، كما ارتبطت بموضوعات الديوان في الاتجاهات الأخرى الساسية والاجتماعية ، ولم يعدم الخطيب وسيلة أو فرصة إلا وأشار إليها في سياق كلامه .

وأهم هذه الموضوعات الوعظ والاعتبار ، ويكون بذم الدنيا ، وذكر الموت ، والمعاد ، ثم المواقيت وفيه بيان فضائل الشهور ومناسباتها ، ثم موضوعات تتصل بالتوحيد وفضل الرسول صلى الله عليه وسلم والدعاء .

ولما كان هدف الخطيب وعظ الناس وإرشادهم فقد شكّلت هذه الموضوعات أساساً ينطلق منه الخطيب في إقناع الناس ، وحثهم على الالتزام بأوامر الله تعالى والعمل للآخرة قبل فوات الأوان .

أولاً : الوعظ والاعتبار :

ويُعدُّ هذا الموضوع أحد الأهداف الأساسية التي سعى إليها الخطيب في كلامه، للتأثير في الناس وإقناعهم بضرورة طاعة الله تعالى ، وفِعْل الخير قبل فوات الأوان .

والكلام في ذم الدنيا ، وذكر الموت ، والمعاد ليس جديداً على الخطيب أو الناس ، لأن هذه الأفكار مطروحة منذ أمدٍ بعيدٍ جداً ، وللأنبياء والصالحينوالوعاظ والزهاد فيها كلام كثير ، إلى جانب ما جاء في الكتب السماوية ، وما ورد على ألسنة الشعراء والأدباء ، وقد تأثر ابن نباتة بالسابقين في ألفاظهم ومعانيهم ، وطريقة عرضهم لهذه الأفكار .

وفيما يلي البحث في هذه الأغراض التي اتخذها الخطيب وسيلة لوعظ الناس .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ذمُّ الدُّنيـا :

وقد تطرق الخطيب في حديثه عن الدنيا وذمّها إلى إبراز الأفكار التالية :

١ - **زوال الدنيا وسرعة رحيلها بالموت ، وربطها بالآخرة** ، فهي الطريق الموصلة إليها ، فقد أدبرت الدنيا وآذنت بانقلاع ، فيما أقبلت الآخرة وأشرفت باطلاع، وهي ليست للناس بدار باقية ، والرحيل عنها لا شك فيه[١]

وفي ذلك يقول الخطيب « فإنكم من الدنيا على رحيل عاجل ، ومن الموت على خطب فظيع شامل »[٢] ويقول « إن الدنيا محال يقتضيه زوال ، يقتفيه مآل، يحتذيه وبال » [٣] .

٢ - **وصف أحوالها والتحذير منها** ، ويلجأ الخطيب إلى ذلك باستخدام أساليب متعددة كالموازنة والتقسيم والمقابلة وإبراز عنصر التضاد ، كما في قوله « وأحذركم داراً دوائرها دائرة ، وتجارتها بائرة ، وآفاتها راشقة ، وآياتها ناطقة ، المتعزز بها ذليل ، والمتكثر بها قليل ، من وثق بها خذلته ، ومن اعتصم بها أسلمته ، ومن طلبها فاتته ، ومن تجنبها أتتهُ ، سلامتها منوطة بالسقم ، وشبابها يعود إلى الهرم ، لا تمنح سروراً إلا أعقبته ثبوراً ، ولا تسمح بصفو إلاّ شابته تكديراً » [٤] ، وهذا تأثر بكلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – في وصفه الدنيا عندما قال : ما أصِفُ من دار أوّلها عناء ، وآخرها فناء ، في حلالها حساب ، وفي حرامها عقاب ، من صحَّ فيها أمِنْ ، ومن مرض فيها ندم ، ومن استغنى فيها فُتِن ، ومن افتقر فيها حزن » [٥] .

---

(١) انظر الديوان : ٨ ، ٤٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٩١ .

(٢) نفسه : ١٤ .

(٣) نفسه : ٢٦ .

(٤) نفسه : ٢٧٦ .

(٥) الكامل في الأدب : ١٩٩/١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويذكر تقلّب الدنيا ، وفعلها بأهلها ، ومآل من يركن إليها ، ويتساءل مستنكراً : « من ذا وثق بها فلم تخُنهُ ؟ أم من ذا اعتز بها فلم تُهِنهُ ؟ ، فبقاؤها معدوم ، وفناؤها محتوم ، وسائلها محروم ، ونائلها مسموم ، قد حلّت على الأمم السابقة عقد نظامها ، وسلّت عليهم سيوف انتقامها ، فأسكنتهم القبور بعد القصور ، وخوت منازلهم بعد عمرانها ، فأصبحوا عبرة لمن بعدهم ، وديارهم مُخبرة عمّا أصابهم »[١] .

٣ - **الحثّ على الزهد بها ، والدعوة إلى العمل للآخرة** ، وفي ذلك يقول «اكدحوا للآخرة كدحاً ، واضربوا عن الدنيا صفحاً ، فقد فوُقتْ إليكم سهام شتاتها ، وطبقت عليكم غمام آفاتها ، وأرْتكُم آثار وقائع المنون ، فيما سلف من القرون ، فلا تستطيلوا عباد الله مدة الانتظار ، وقدموا في الإقامة عُدّة السّفار ...»[٢] .

ويبدو تأثر الخطيب واضحاً لفظاً ومعنى بقول علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- في الحديث عن زوال الدنيا وضرورة العمل للآخرة ، إذ يقول الخطيب : إن الدنيا قد أدبرت وآذنت بانقلاع ، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع ، فتزودوا من دار المحال ، لدار المآل ، وخذوا من الحياة الفانية المنكّدة للحياة الباقية المؤبدة »[٣] ، فيما يقول أمير المؤمنين - رضي الله عنه - إن الدنيا قد ارتحلت مدبرة ، وإن الآخرة قد ارتحلت مقبلة ، ولكل واحدة منهما بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا »[٤] .

ويحث الخطيب على سلوك سبل الزهاد ، والمبادرة في فكاك الرهون قبل أن تغلق ، وإدراك النفوس قبل أن تزهق ، والتشمير للعمل قبل أن يقطع الفوت دون ذلك ، ويحول الموت بين المرء وما يتمناه[٥] .

---

(١) الديوان : ٤٤ .

(٢) نفسه : ٢٤٢ ، ونوّق السهم : صوبه ، شرح الجزائري الديوان .

(٣) نفسه : ٥٦ .

(٤) عيون الأخبار ١/٣٨٠ ، ٣٨١ .

(٥) انظر الديوان : ٢٧ ، ١٠٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويوجه نصائحه في بيان العلاقة بين الدنيا والآخرة مزهداً بقوله « ولا تشتغلوا بالدنيا اشتغال من لا يجد عنها تحويلاً ، وارفضوها فليست لكم مقراً ولا مقيلاً ، واعملوا للآخرة ، فإنها خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً» (١) .

كما يلجأ الخطيب في التأكيد على غرضه إلى تضمين كلامه آياتٍ من كتاب الله تعالى ، في إشارة منه إلى ضرورة الاعتبار بالسابقين الذين كانوا أهل المعاقل المنيعة ، والمنازل الرفيعة ، والأبنية العجيبة ، والأفنية الرحيبة ، والوجوه المنعمة ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ كم تركوا من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم * ونعمةٍ كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها قوماً آخرين * فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا مُنظرين ﴾ (٢) .

الموت :

حرص الخطيب في حديثه عن الموت على إبراز الأفكار التالية :

١ - **حتميته ، وإحاطته بالجميع** ، فلا مفر منه ، ويبدو تأثرُ الخطيب في هذا المعنى واضحاً بما جاء في القرآن الكريم من قوله تعالى ﴿ كُلُّ نفس ذائقة الموت ﴾ (٣) وقوله ﴿ كُلُّ من عليها فان ﴾ (٤) ، وقوله ﴿ كُلُّ شيء هالك إلا وجهه ﴾ (٥) ، ولذلك يؤكد الخطيب على ذلك بقوله « واعلموا أنّ الموت بحرٌ لا بد أن تلجوامده ، ومنهلٌ كتب الله على كل حيٍّ وِردَهُ » (٦) وقوله « أتطمعُون في بقاء الأبد ؟ كلا ، والواحد الصمد ، إن الموت لبالرصد ، لا يُبقي منكم على أحد » (٧) .

---

(١) الديوان : ٢٤٨ .

(٢) القرآن الكريم : سورة الدخان : الآيات (٢٥-٢٩) . انظر الديوان : ٣٩ ، ٢٢ .

(٣) القرآن الكريم : سورة آل عمران ، آية ١٨٥ .

(٤) نفسه : سورة الرحمن ، آية ٢٦ .

(٥) نفسه : سورة القصص : آية ٨٨ .

(٦) الديوان : ٢٤٤ .

(٧) نفسه : ١١ ، ١٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والموت يهجم على الناس ، وليس بينه وبين أرواحهم حاجز ، وكُلُّهم عنده سواء ، فلا فرق بين نبي أو دعيّ ، ولا بين فقير أو غني ، ولذلك يُبرز الخطيب حادثة وفاة الرسول-صلى الله عليه وسلم - دليلاً حياً على صحة ما يقول ، وليكون فيه العبرة للناس أجمعين ، فيقول : «عمّ الفناء فما إلى بقاء سبيل .... ولو ردع الموت شرف أصيل ، أو دفع القدر قدرٌ جليل . لكان أول ناج بكماله الرسول » [١] ، وهنا يبرز من جديد تأثر الخطيب بما جاء في القرآن من قوله تعالى مخاطباً رسوله ﴿ إنك ميتٌ وإنهم ميتُون ﴾ [٢] ولذلك يجزم الخطيب أن رُسُل المنون قضت أن لا يُفلت أحد من شباكها [٣] .

٢ - وصفُ الموتِ وأفعاله ، والخطيب في وصفه الموت يلجأ إلى التشخيص والتجسيم مصوراً قربه وسطوته وأسلحته ، وما يتركه من أثر على الفرد والجماعة والأمم ، ويبدو الخطيب في صوره هذه متأثراً بالتراث الإسلامي والعربي .

فمن وصفِهِ للموت وشدة قُربه يقول : واعلموا أن الموت معصوب برؤوسكم ، ومُنشِبٌ مخالبه في نفوسكم » [٤] وهو تأثر بقول الشاعر أبي ذؤيب الهذلي .

وإذا المنيّة أنشبت أظفارها ألفيت كُلّ تميمةٍ لا تنفع [٥]

كما يصف فعله بالناس مجسماً : « ألا وإن الموت قد فغر لابتلاعكم فاه ، وامتدت لقبض أرواحكم يداه ، وأحاط بقاصيكم ودانيكم رداه ، فلا يُصوت بأحد منكم إلا كانت نفسه صداه ، وكأن قد ترك الديار بلا قع من عُمارها ، وسلك الوحشة في نواحيها وأقطارها ، وهتك الحلائل بعد طول استتارها ، وألحق طويل الأعمار بقصارها » [٦] .

---

(١) الديوان : ١٤٠ ، ١٤١ .

(٢) سورة آل عمران ، آية ١٤٤ .

(٣) انظر الديوان : ٤٠ .

(٤) نفسه : ٢٠ .

(٥) ديوان الهذليين : القسم الأول ، ص ١ .

(٦) الديوان : ٨٤ ، ٨٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويتابع الخطيب وصف الموت ، وأثره ، وعلاقته بالآخرة ، فيقول : فإنه الآخِذُ بالكظائم ، و الجابذُ إلى مورد العظائم ، كاشف أغطية القيامة ، وأول أندية الحسرة والندامة ، قاطعُ العلائق ، ومبيد الخلائق ، ومحقّ الحقائق ، وأفَظُّ حادٍ وسائق ، مستحثُّ الآخرة ، وباب الحافرة ، الموت المفرق بين الأحباء ، الذي أعيا دواؤه على الأطباء ، فأسرعْ به مُنفقاً ما ادّخر ، ومُلحِقاً من غبر بمن دثر، حتى لا يدع وصيداً إلا قرعه ، ولا مشيداً إلاّ ضعضعه ، ولا شملاً إلا صدعه ، ولا وصلاً إلا قطعه ، ولا معاراً إلا ارتجعه ، ولا جباراً إلا صرعه» [1] .

وتتكرر المعاني التي يطرحها الخطيب في وصفه الموت وأفعاله ، كما يُلاحظ التكرار في التراكيب والألفاظ ، فالموت مفرقٌ للجماعات وهو المفرق بين الأحباء والمبيد للخلائق ، والقاطع للعلائق ، وهو باب لا بُد من دخوله ، وضيف لا ريب في نزوله ، وهاجم لا مدفع لحلوله ، وصارم لا مطمع في كلوله، لا يبقي ولا يذر ، ولا ملجأ منه ولا وزر ، قد حقق على كل الأنام إيقاعه، فلم يملك أحد منهم دفاعه ... [2] الخ .

٢ - **صورة القبر** : ويلجأ الخطيب إلى إجراء المقابلة والموازنة بين ما كان عليه الإنسان قبل الموت ودخول القبر ، وما آل إليه ، ثم يشير إلى التغيرات التي تطرأ على الجسم ، وما يُلاقيه الإنسان من أسئلة تتوجب الإجابة ، والربط بين القبر والقيامة ، وفي كل ذلك يبرز التأثر بالتراث الإسلامي والإيمان بالمغيبات .

يقول الخطيب في ذلك : « فذوت من شُبانهم الأغصان النواضر ، وخلت من شيوخهم المشاهد والمحاضر ، وعُدِمت من أجسامهم تلك الجواهر ، وطفئت من وجوههم الأنوار الزواهر ، وابتلعتهم الحفر والمقابر ، إلى يوم تبلى السرائر، فلو كشفتم عنهم أغطية الأجداث ، بعد ليلتين أو ثلاث ، لرأيتم الأحداق على الخدود سائلة ، والألوان من ضيق اللحود حائلة ، وهوام الأرض في نواعم

---

(١) الديوان : ١١٦ ، ١١٧ .

(٢) نفسه : ١٤ ، ١١٦ ، ٢٤٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأبدان جائلة ، والرؤوس الموسدة على الأيمان زائلة ، يُنكرها من كان بها عارفاً ، وينفر منها من لم يزل لها آلفاً ، رقدوا في مضاجع هم بها داخرون ، وهمدوا في مصارع يُفضي إليها الأولون والآخرون »[١] .

ويبدو الخطيب متأثراً بكلام قاله أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز لأحدهم ، لما رآه متعجباً من ابيضاض شعره ، ونحول جسمه وتغيّر لونه ، قال رضي الله عنه : أما والله لو رأيتني في القبر بعد ثالثة ، وقد سالت حدقتاي على وجنتاي ، وسال مِنخاري صديداً ودوداً ، لكنت أشدّ نكرة »[٢] .

كما يبدو متأثراً بالأحاديث النبوية في قوله واصفاً الميت في القبر «وجاورَ أمواتاً ، وعاد رُفاتاً يودّ أنْ لم يكن شيئاً مذكوراً ، عند معاينته منكراً ونكيراً ، يا لها محنةً أعْدمتِ الألباب ، ومسألة ألزمت الجواب ، ... إذا سئل عن ربه الذي عبده، ودينه الذي اعتقده ، ونبيّه الذي أرشده ، وعمره فيما أنفده »[٣] .

ويُعظّم الخطيب من شأن القبر ، فهو منزل مظلم الأرجاء في بطن الأرض بلا أبواب يمتلئ بالوحشة ، وتجول في جهاته الآفات ، ومساحته أربعُ أذرعٍ في ذراع ، يطول نوم النّازل فيه إلى يوم القيامة[٤] .

٤ - الاعتبار بالسابقين والدعوة إلى العمل للآخرة : يدعو الخطيب إلى النظر في أحوال الناس والأمم الماضية ، والوقوف على آثارهم وديارهم وقبورهم ، لتبيّن فعل الموت بهم ، والنظر إلى منازلهم ، والتفكر في مآلهم ، وما أخذوه من دنياهم، حتى يصل الإنسان إلى غايته التي وُجد من أجلها ، فيعمل على الخلاص بنفسه ، قبل فوات الأوان .

---

(١) الديوان : ١٠٢-١٠٣ .

(٢) عيون الأخبار : ٣٢٥/١ .

(٣) الديوان : ١٠٩-١١٠ .

(٤) نفسه : انظر : ٤١ ، ٥٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن دعوته إلى النظر في أحوال السابقين قوله : ألا أسرحوا ثواقب الأسماع والأبصار ، في جميع الجهات والأقطار ، هل ترون في جموعكم إلا الشتات ؟ أو تسمعون في ربوعكم إلا فلانٌ مات ؟ أين الآباء الأكابر ؟ أين الأبناء الأصاغر ؟ عثرت -والله- بهم الجدود العواثر ، وأبادتهم السنون الغوابر ... واختطفتهم من المنون عقبان كواسر ..» [١] .

وبعد هذه المقدمات التي ساقها الخطيب ، نراه يوجه الناس وينصح لهم بالجدّ والاجتهاد في الطاعة وعمل الخيرات ، والابتعاد عن المعاصي ، ويحذّرهم الغفلة وطول الأمل ، وفي ذلك يقول : «فخذوا -رحمكم الله- من شباب إن فات أعجزكم لحاقه ، ومن شيب فراق حياتكم فراقه ، وبادروا والقول يُسمع ، والمعذرة تنفع ، وفي الخلاص مطمع ، وفي العمر مستمتع ، قبل أن يغلق الرهن بما فيه ، يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه» [٢] .

وهنا يبرز أثر القرآن الكريم ، كما يبرز أثر الحديث في قوله موصياً «فأجِدّ أيها الغافل مركبك فإنّ البحر عميق ، وأعدّ أيها الراحل زادك فإن الطريق سحيق، وأخلص العمل فإن الناقد بصير ، وبادر المهل فإنّ العمر قصير ، ولا تكن ممّن يعمر الدنيا بخراب نفسه ، ويذكر يومه بنسيان أمسه ، ... فانتبه أيها الراقد من وسن الطّبَع ، والتمس الأمان ليوم الفزع ...» [٣] .

ولا يزال الخطيب يذكر الموت ، ويحثّ على تذكره ليكون دافعاً إلى تذليل جوامح النفوس وزجرها عن المعصية،كما في قوله «قلقلوا القلوب عن مراقد غفلاتها ، واعدلوا بالنفوس عن موارد شهواتها ، وذللوا جوامحها بذكر يوم مماتها» [٤] ، ويدعوهم إلى زيارة المقابر لأخذ العبرة بقوله «فرحم الله امرءاً مال إلى عرصاتهم ، وأطال المسألة عن حالاتهم ، فجعل الفكرة فيهم له خطاباً ، والعبرة

---

(١) الديوان : ١٠٢ .

(٢) نفسه : ١٢ .

(٣) نفسه : ٢٩-٣١ .

(٤) نفسه : ٦٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بهم عنهم جواباً» [١] .

المَعَاد «مشاهد القيامة وأهوالها» :

إنّ الإيمان بالغيب ركن أساسي من عقيدة كل مسلم ، وعلامة على إيمانه ، وفي ذلك ، قال تعالى : «ذلك الكتاب لا ريب يه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب..» [٢] ، ومما يدخل في باب الإيمان بالغيب ، الإيمان باليوم الآخر ومشاهده .

وينطلق الخطيب متأثراً بالقرآن الكريم ، وما ورد في السنة النبوية ، في الكلام عن الساعة والنفخ في الصور ، والبعث والمحشر ، والحساب ، وذكر الجنة والنار ، وغير ذلك من مشاهد القيامة في وعظه للناس ، وحثّهم على العمل للآخرة ، وترغيبهم في الجنة ، وترهيبهم من النار .

وأبرز الأفكار التي يعرضها الخطيب في طرحه لهذا الموضوع ما يلي :

١ - **وصف القيامة** : وفي ذلك يقول «في يوم تُنْسف فيه الجبال ، وتَكِعُّ منه الرجال، وتُخرج الأرض ما فيها ، وتُهطع الأموات لداعيها ، فهناك أزفت الآزفة ، ورجفت الراجفة ، وتطايرت الكتب ، وكشفت الحجب ، وتشققت السماء ، وأشفقت الأنبياء ، وانتثرت الكواكب ، وعظمت المصائب ، وبدت العورات ، وانسكبت العبرات ، وخشعت الأصوات ، وعُدّت الجنايات ، واشتدّ اللزام ، واحتدّ الخصام ، وطاشت الألباب ، وخضعت الرقاب ، ووضع الكتاب ، وحُرّر الحساب ، واستوى فيه العبيد والأرباب ، وحُشر العالم في صعيد ، وقالت جهنم : هل من مزيد ، وتعلّق المظلومون بالظالمين ، وقام الناس لرب العالمين ..» [٣] .

وهذا الوصف مأخوذ من كتاب الله وسنة نبيه ، ويُنظر في ذلك إلى قوله تعالى ﴿ ويسألونك عن الجبال ، فقل : ينسفها ربي نسفا ﴾ [٤] ، وقوله في الأرض

---

(١) الديوان : ١٣١ .

(٢) القرآن الكريم ، سورة البقرة ، ٢ ، ٣ .

(٣) الديوان : ١٥ . وانظر : ٤ ، ٥ ، ١٨ ، ١٩ ، ٦٩ ، ٧٠ .

(٤) القرآن الكريم : سورة طه ، الآية ١٠٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

﴿ وألقَت ما فيها وتخلّت ﴾ [١] وقوله ﴿ يومئذ يتّبعون الداعي لا عِوَج له ﴾ [٢] وقوله ﴿ أزفت الآزفة * ليس لها من دون الله كاشفة، [٣] وقوله ﴿ يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة ﴾ [٤] ، وقوله ﴿ فمن أوتي كتابه بيمينه ... ومن أوتي كتابه بشماله ﴾ [٥] وقوله ﴿إذا السماء انشقّت ﴾ [٦] وقوله ﴿ وإذا الكواكب انتثرت ﴾ [٧] وقوله ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا ﴾ [٨] وقوله ﴿ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ [٩] وقوله ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يُغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحدا ﴾ [١٠] وقوله ﴿وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا ﴾ [١١] وقوله ﴿ يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد ﴾ [١٢] وقوله ﴿ يوم يقوم الناس لربّ العالمين ﴾ [١٣] .

٢ – **التهويل من أمرها** : كيف لا ، وهي انقلاب كوني ، لا يبقى شيء فيه على حاله، ولقد هوّل الله تعالى من أمرها بقوله في الساعة : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عمّا أرضعت وتضع كل

---

(١) القرآن الكريم ، سورة الانشقاق : ٤ .

(٢) نفسه ، سورة طه : ١٠٨ .

(٣) نفسه ، سورة النجم : ٥٧ ، ٥٨ .

(٤) نفسه ، سورة النازعات : ٦ ، ٧ .

(٥) نفسه ، سورة الحاقة : ١٩ ، ٢٥ .

(٦) نفسه ، سورة الانشقاق : ١ .

(٧) نفسه ، سورة الانفطار : ٢ .

(٨) نفسه ، سورة طه : ١٠٨ .

(٩) نفسه ، سورة الزمر : ٣١ .

(١٠) نفسه ، سورة الكهف : ٤٩ .

(١١) نفسه ، سورة الكهف : ٤٧ .

(١٢) نفسه ، سورة ق : ٣٠ .

(١٣) نفسه ، سورة المطففين : ٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ [١] ، ولذلك يقول الخطيب «أجل لقد حَزَبهم من القيامة أمر وجِلوا منه وأشفقوا ، ...وعاينوا من الأهوال ما ودّوا معه أنهم لم يُخلقوا» [٢] ، ويؤكد على ذلك بقوله «فإنّ صيحة تُشقّق القلوب عن حبّاتها ، وتُلحق الأحياء بأمواتها ، لأهْلٌ أن يُطيش العقول ذكر ميقاتها ، وتَذْهَل النفوسُ عن ملذة حياتها ، ... فكيف ومِنْ ورائها صيحة العَرْض الجامعة أهل السماء والأرض ؟!» [٣] .

٢- **الحث على العمل للآخرة** : تتكرّر المعاني التي يطرحها الخطيب حول هذا الغرض ، فلا بد من استغلال الوقت ، لأنّ الإنسان لا يدري متى يأتيه الموت ، والموت حقّ لا مفرّ منه ، وكذلك الحساب على ما اجترح الإنسان في دنياه ، ومن هنا يجب الإسراع في التوبة ، والرجوع إلى الله تعالى ، وعمل الخيرات ، يقول الخطيب «فبادروا-عباد الله-والطرق إلى الله واضحة ، والتجارة في سبيله رابحة، وحياض العمل مُتْرَعة ، ورياض المَهَلِ مُمرِعة ، وفي النجاة مطمع ، وفي الحياة مستمتع ، قبل أن تغلق أبواب الرجاء ، وتتحقق أسباب القضاء ، ويحول الموت بين الأمل والآمل ، ويطول الندم من المستوطن الراحل ، عند حصوله في المعاد على الحاصل ، وأسَفِه على ما ليس إليه بالواصل ، فاعملوا -رحمكم الله- قبل أن لا تجدوا إلى العمل سبيلاً ، وامْهدُوا لنفوسكم في الآخرة مقيلاً ، فإنه والله ما بعد الدنيا دار ، إلا جنة أو نار» [٤] .

وفي هذا تأثر بقول الرسول -صلى الله عليه وسلم- : أيها الناس ، إنّ لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم ، وإنّ لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم ،... فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الممات ، فوا الذي نفس محمد بيده ، ما بعد الموت من مستعتب ، ولا بعد الدنيا من

---

(١) القرآن الكريم ، سورة الحج : ١ ، ٢ .

(٢) الديوان : ١٠٠ ، ١٠١ .

(٣) نفسه : ٤٢٠ .

(٤) نفسه : ٢٠١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

دار إلا الجنة أو النار »[1] .

ويحث الخطيب على سلوك سبُل العبّاد والطائعين ، الذين رفضوا الدنيا ، وأقبلوا على الآخرة فبوّأهم الله جنّته ، فيقول : «ألا فاسلكوا سبيل من هذه سبيله، وأدركوا مقيل من تلك الدار مقيله ، قبل أن يشتمل الهدم على البناء ، والكدر على الصفاء ، وينقطع من الحياة حبل الرجاء ، وتكون المنازل تحت أطباق العراء، قبل أن يقول الشيخ الكبير : واشيبتاه ، ويقول الكهل الخطير : واخجلتاه، ويقول الحدث النضير : واحسرتاه ، ويقول الطفل الصغير : وا أمتاه »[2] .

٤- **الترغيب في الجنة والترهيب من النار** : وذلك عن طريق وصفِهما ، وبيان أحوال الناس فيهما ، وإجراء المقارنة بين أوضاعهم فيهما ، ليكون دافعاً للناس إلى اختيار الخاتمة السعيدة ، والسعي إلى الوصول إليها ، وتجنّب الخاتمة السيئة، والابتعاد عن كل ما يُقرّب منها ، ويبدو الخطيب متأثراً بما جاء في القرآن الكريم ، وما ورد في السنة النبوية في وصف الجنة والنار سواءً في المعاني أو التراكيب والألفاظ ، ومن ذلك قول الخطيب في وصف النار والتحذير منها «بادِروا بلحاق التوبة قبل استحقاق دار الخيبة ، يا لها داراً ، معدوماً رخاؤها ، محتوماً بلاؤها ، مظلمةً مسالكها ، مُنْبَهَمةٍ مهالكها ، مخلّداً أسيرها ، مؤبّداً سعيرها ، متناهياً تغييرها ، عالياً زفيرها ، وكم يومئذ من شاب يُنادي في نار جهنم : واشباباه ، وامحاسن وجهاه ، وكم يومئذ من كهل ينادي في نار جهنم : واكهلاه ، واقلّة حيلتاه، وكم يومئذ من شيخ ينادي في نار جهنم: واشيخاه ، واكبرسنّاه ، وكم يومئذ من امرأة تنادي في نار جهنم : وافضيحتاه ، وامصيبتاه ، شراب أهلها الحميم ، وعذابها أبداً مقيم ، الزبانية تقمعهم ، والهاوية تجمعهم ، لهم فيها بالويل ضجيج ، ولِلَهبها فيهم أجيج ، أمانيّهم فيها الهلاك ، ومالهم من أسرها فكاك ، قد شُدّت أقدامهم إلى النواصي واسودّت وجوههم بذلّ المعاصي ، يُنادُوْن من فجاجها وشعابها ، بُكيّاً من ترادف عذابها ، يا

---

(١) الكامل في الأدب : ٢٧١/١ .

(٢) الديوان : ١٠٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مالك : قد حقّ علينا الوعيد ، يا مالك : قد أثقلنا الحديد ، يا مالك : قد سال منا الصديد ، يا مالك : قد حمي علينا الوقيد ، يا مالك : قد نضجت منا الجلود ، يا مالك : أخرجنا منها فإنّا لا نعود ، فيجيبهم مالك بعد زمان: هيهات هيهات ، لات حين أمان ؛ ولا خروج لكم من دار الهوان ، اخسؤوا فيها بغضب الرحمن ..» [١] .

فأهل النار مخلدون في عذابها ما شاء الله لهم ، قال تعالى ﴿ إنّ المجرمين في عذاب جهنم خالدون * لا يُفتَّرُ عنهم وهم فيه مبلسون *﴾ [٢] ، وقال تعالى ﴿والذين كفروا لهم نار جهنم لا يُقضى عليهم فيموتوا ولا يُخفف عنهم من عذابها ، كذلك نجزي كل كفور ﴾ [٣] .

وفي طلب أهل النار الخروج منها واستحالة ذلك قال تعالى ﴿ وقال الذين في النار لخزنة جهنم : ادعوا ربكم يُخفف عنا يوماً من العذاب * قالوا : أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟ قالوا : بلى ، قالوا : فادعوا ، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال *﴾ [٤] وقوله تعالى ﴿ ونادَوْا يا مالك : ليقضِ علينا ربُّك ، قال : إنكم ماكثون ﴾ [٥] وقوله تعالى ﴿قالوا : ربنا غلبت علينا شقوتنا ، وكنا قوماً ضالّين* ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنّا ظالمون * قال : اخسؤوا فيها ولا تكلّمون *﴾ [٦] .

ويصف الخطيب أهل الجنة ونعيمها مرغّباً فيها بقوله «فوجوههم من النعيم نضرة ، وأنديتهم على الدهر المقيم خَضِرة ، ورائحتهم من طيب النسيم عطرة ، وقلوبهم بجوار الغفور الرحيم مستبشرة ، وقد ذهب عنهم الحَزَن ، وباينتهم المحن، ونُزِعت من صدورهم الإحن ، وطاب لهم المقيل الوطن ، في دار اتّسعت أقطارها ، وأينعت ثمارها ، واطّردت أنهارها ، وتميّدت أشجارها،وغرّدت أطيارها ، ونهدت

---

(١) الديوان : ٣٤٥-٣٤٦ .

(٢) القرآن الكريم، سورة الزخرف : ٧٤ ، ٧٥ .

(٣) نفسه ، سورة فاطر : ٣٦ .

(٤) نفسه ، سورة غافر : ٤٩ ، ٥٠ .

(٥) نفسه ، سورة الزخرف : ٧٧ .

(٦) سورة المؤمنون : ١٠٦-١٠٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أبكارها ، وعُلّيت مجالسها ، وحُلّيت عرائسها ، واختالت وصائفها،وتوالت لطائفها ، وأشرقت قبابها ، وأدهقت كؤوسها ، وحَسُنت بدائعها ، وأمِنَت فجائعها ، قد كاشفهم الجواد بمحض الوداد ، وأوجب لهم المزيد على المراد ،... فرحم الله امرءاً مهّد لنفسه مهاداً ، وأعدّ لسفره زاداً ، واقتحم إلى الله أقصدَ الطريقين ، واغتنم صحبة أسعد الفريقين ، فإنه إن لم يكن إلى ذلك النعيم المقيم اشتياق ، فليكن من ذلك العذاب الأليم إشفاق » [١] .

ويبدو تأثر الخطيب بما جاء في كتاب الله تعالى من قوله ﴿ إنّ للمتقين مفازاً * حدائق وأعناباً * وكواعب أتراباً * وكأساً دهاقاً * لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً *﴾ [٢] وقوله تعالى ﴿ وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة *﴾ [٣] وقوله تعالى ﴿ وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنّا الحَزَن ، إنّ ربنا لغفور شكور * الذي أحلّنا دار المقامة من فضله لا يمسّنا فيها نصَبٌ ولا يمسنا فيها لغوب *﴾ [٤] .

* المواقيت :

أنشأ ابن نباتة خطبه الجمعية الدينية الموسومة في ديوانه بخطب المواقيت ولواحق المواقيت لوعظ الناس ، وإرشادهم ، وتذكيرهم بفضائل شهور السنة وأيامها [٥] .

وكان الخطيب يلفت النظر في خُطَبِ المواقيت إلى دخول العام الجديد ، والترغيب في استقبال الشهور بالطاعات عند دخولها ، والتفكر في المناسبات والأيام التي تمرّ فيها ، والتنبيه إلى فضائلها حثّاً للناس على إدراك الخير الوافر قبل فواتها الذي هو فوات للعُمْر .

---

(١) الديوان : ٣٤٧-٣٤٩ .

(٢) القرآن الكريم ، سورة النبا : ٣١-٣٥ .

(٣) نفسه ، سورة القيامة : ٢٢ ، ٢٣ .

(٤) نفسه ، سورة فاطر : ٣٤ ، ٣٥ .

(٥) انظر الديوان : خطب المواقيت (١٣٣-١٧٣) . خطب لواحق المواقيت (٣٣١-٤٧٢ وحتى نهاية الديوان) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأما الخطب التي جُمعت تحت عنوان لواحق المواقيت ، فموضوعاتها متعددة، وتتصل بذكر يوم القيامة والنار والموت وذم الدنيا والنكاح وعدد من المناسبات ، وعلى الرغم من أنّ عناوين أكثرها يشير إلى إلقائها في شهر كذا ، فإنه لا صلة لها من قريب أو بعيد بالحديث عن الأوقات والشهور وفضائل الأيام باستثناء ثلاث خطب منها ، إحداها في وداع شهر رمضان ، والأخريان لعيدي الفطر والنحر [١] .

وعليه ستدخل هذه الخطب الثلاث في دراستنا هذه باعتبارها من خطب المواقيت ، فيما أُلحقت بقية خطب لواحق المواقيت بموضوعات أخرى لدراستها .

ويلاحظ في خطب المواقيت ولواحقها ما يلي :

١ - عدم تخصيص أي خطبة لشهر صفر ، ولم أجد لذلك مبرراً .

٢ - تباين عدد الخطب المخصصة للشهور ، فبعض الشهور خصّصت له خطبة واحدة فحسب ، مثلما هو الحال في شهري محرم وجمادى الأولى ، وبعضها خُصّصت له خمس ، كما في شهري ربيع الأول وذي القعدة ، والجدول التالي يوضّح عدد الخطب المخصصة لكل شهر والصفحات التي وردت بها في الديوان ، وفيه أنّ عدد خطب المواقيت ولواحقها ثلاث وثلاثون خطبة .

رقم الشهر	اسمه	عدد الخطب المخصصة له	صفحاتها
١	محرم	١	١٣٣-١٣٦
٢	صفر	×	×
٣	ربيع الأول	٥	١٣٦-١٤٢ ، ٣٣١-٣٤٣
٤	ربيع الثاني	٢	٣٤٤-٣٤٩
٥	جمادى الأولى	١	٣٤٩-٣٥٢
٦	جمادى الثانية	٤	٣٥٢-٣٧٢
٧	رجب	٣	١٤٣-١٥٠
٨	شعبان	٣	١٥١-١٥٩
٩	رمضان	٤	١٥٩-١٦٨ ، ٣٩٣-٤٠٠
١٠	شوال	٢	٣٧٢-٣٧٥ ، ٤٠٠-٤٠٩
١١	ذو القعدة	٥	٣٧٥-٣٩٢
١٢	ذو الحجة	٣	١٦٨-١٧٣ ، ٤٠٩-٤١٨
		المجموع : ٣٣ خطبة	

(١) انظر الديوان : (٣٩٣-٤١٨) وعليه تمتد الخطب الداخلة في هذه الدراسة على خمس وستين صفحة من الديوان.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد ركّز ابن نباتة على إبراز الأفكار التالية في خطب المواقيت :

١ - فضائل الشهور والأيام وبيان ميزاتها :

فالشهور يَفْضُل بعضها بعضاً لحكمة أقرّها الله تعالى وأرادها ، وذلك لتحقيق الخير العظيم لعباده الطائعين ، إذ جعلها ميداناً يتسابق فيه المخلِصون لنيل المزيد من عطاياه ، نماءً للصالح من أعمالهم ،ونعمةً منه تعالى وتفضُّلاً وإكراماً لعباده [١] .

وإذا كانت شهور السنة يفْضُل بعضها الآخر ، فكذلك أيّامها ولياليها ، للغاية نفسها ، وفي ذلك يقول الخطيب «إنّ الله -وله الحمد- اختار من السنة أياماً شرّفها، ومواقيت بيّنها لكم فعرّفها ، جعلها الله لِزَلّلِكُمْ ممْحاة ، ولصالح أعمالكم مَنْماة ، دلالة على قصد السبيل إليه ، وكفالة بالمزيد لمن رغب فيما لديه» [٢] .

ولذلك أخذ الخطيب يُعدّد فضائل الشهور وأيامها ، ليذكّر الناس بها ، وينبّههم إلى ما يتوجب عليهم تجاهها ، مستلهماً أدلته من التراث الإسلامي والعربي ، ففي حديثه عن رمضان وفضله ، يبدو التأثر بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية واضحاً في كلامه ، إذ إنّ شهر رمضان عند الخطيب سيد الشهور لأنه أعظمها عند الله قدراً ، وأعلاها لديه ذِكراً ، فقد أنزل فيه كتابه ، وفتح أبواب السماء فيه للداعين ، وخصّه بصيام النهار ، وقيام الليل ، واختار فيه ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر ، وجعلها سلاماً حتى مطلع الفجر ، فلا يدركها داعٍ بإنابة إلا ظَفِر بتعجيل الإجابة ، والملائكة فيه تهبط بصكاك الفكاك والعتق من النار ، فيما المساجد تغصّ بالمصلين ، بعد أن صُفّدت مردة الشياطين وغُلّت ... [٣] .

وفي فضل رجب يقول : ألا وإنّ شهركم هذا شهْر حرام ، فضّلته الجاهلية وشرّفه الإسلام ، افتتح الله به ثلاثة أشهر كرام ، فضّلها على شهور السنين

---

(١) انظر الديوان : ١٤٣ ، ١٤٤ .

(٢) نفسه : ١٦٩ .

(٣) نفسه : ١٥٩-١٦٨ ، ٣٩٣-٤٠٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والأعوام ، فَرجبٌ أول شهور البركة ، المنقذة من كل فتنة وهلكة ...» [١] . وهنا نلحظ الإشارة إلى فضل الأشهر الحرم ، التي وردت في قوله تعالى : ﴿ إنّ عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حُرم ، ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهنّ أنفسكم ...﴾ [٢] .

كما يذكر في فضل محرّم أنه أول شهور السنة بالتحريم ، وأحقّها بالتفضيل والتقديم ، والمخصوص في اليوم العاشر بثواب جزيل وافر ، ذكره الأنبياء وصامه الصالحون والعلماء ، فصيامه يَعْدل صيام سنة مقبولة [٣] ، وهذا تأثر واضح بما جاء في السنة النبوية من الترغيب في صومه [٤] .

وفي ذكر ليلة النصف من شعبان يقول الخطيب « .. أطْنَب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في وصفه ، ورغّب في قيام ليلة نصفه ، فتأهبوا -رحمكم الله- لقصدِها ، وشمّروا لاغتنام وِرْدها ، فكم طليق فيها من وثاق الذنوب ، وحقيق بِنَيْلِ كُلِّ مطلوب ، يُنْزِلُ الله تعالى فيها صكاك الأرزاق ، ويُعجّل لبركتها فكاك الأعناق » [٥] .

واليوم الأول من شوال يوم عيد الفطر ، وهو يوم عظيم فرضه الله تعالى وختم به شهر الصيام ، وافتتح به شهور الحج ، وعظّم حرمته ، ونشر فيه رحمته ، وبسط بركته ... [٦] .

وكذلك الأيام العشر الأولى من شهر ذي الحجة ، التي جعل الله فيها لأهل طاعته من الحجاج مشهداً جامعاً ، يكون لدعائهم فيها مجيباً سامعاً ، وقد خُتمت بيوم النحر ، وهو عيد الأضحى الذي فرضه الله تعالى على المسلمين ، وفيه كان

---

(١) الديوان : ١٤٤ .

(٢) القرآن الكريم ، سورة التوبة : ٣٦ .

(٣) الديوان : ١٣٥ .

(٤) انظر مثلاً : صحيح سنن الترمذي : ٢٨٨/١ . صحيح سنن ابن ماجة : ٢٩٠/١ .

(٥) الديوان : ١٥٥ . وفي فضله انظر مثلاً : صحيح سنن ابن ماجة : ٢٣٣/١ .

(٦) نفسه : ٤٠٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ابتلاء سيدنا إبراهيم بذبح ولده إسماعيل ، ثم أتبع هذه الأيام بأيام النَّفْر ، التي تسعى فيها الوفود الحاجّة لبيت الله من كل إقليم ، مُلبيّة بدعاء أبيها إبراهيم في تأديتها مناسك الحج [١] .

٢- النُّصح والإرشاد :

ويُكثر الخطيب في خطب المواقيت من الإشارة إلى الموت واقترابه ، وانقضاء العمر ، وزوال الدنيا ، ويُذكّر بالآخرة مؤكداً على ضرورة الاعتبار بمن سبق ، ومرغباً في فعل الخيرات ، والاجتهاد في اغتنام العمر ، ومرهّباً من ارتكاب المعاصي التي قد تتضاعف أوزارها .

ويصف الخطيب ما يتركه مرور الليالي والأيام ، وانقضاءُ الشهور والأعوام ، من أثر على الناس والديار ، فالجديد يَبْلى ، والمشيد يُهْدَم ، والقويّ يضعف ، والمعمور يخرُب ، والموت يقرُب ، إذ كلما مضت من الحياة مُدّة ، دنا الإنسان من الموت أكثر [٢] .

ولذلك يحرص الخطيب على إرشاد الناس ويوصيهم بالإقلاع عن الذنوب ، والرجوع إلى الله ، قبل أن يحول بينهم وبين ذلك حائل ، فالموت طالبٌ لا يَغْفَل ، وسالب لا يُمهِل ، وبعده نار تلفح ، ومقام يفضح ، و قضاء فَصْل ، وحَكَم عَدْل ، وهم لا محالة واردون موارد أقوام سلفوا واختُطفوا من أولادهم وديارهم وأموالهم ، وتركوا كل ذلك وراءهم ، فالويل للمغترّين الجاهلين ، والساهين الغافلين ، الذين يأملون الفوز بالبطالة ، ويرتكبون الذنوب بالجَهَالة ، فلا يستمعون للذّكر ولا ينتفعون بشرف يوم ولا شهر ، حتى تنقضي أعمارهم ، وتُحصّل في أعناقهم أعمالهم ، فيلتمسون العودة فلا يقدرون عليها [٣] .

---

(١) انظر الديوان : ١٦٩ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ .

(٢) نفسه : ١٣٤ .

(٣) نفسه : ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٥٥ ، ١٥٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويراوح الخطيب بين الترغيب والترهيب في وصف نتائج الأعمال ، ليجدّ الناس في الخلاص ، وليزدادوا طاعة لربهم في كل الأحوال ، فيقول معظّماً لشهر رجب ومذكّراً بحرمته ليقدّر الناس قدره «وكونوا على حذر منه في المؤتنف ، فإنّ المذنب في هذه الشهور لا يُمهَل ، وعقوبته تتقدم وتُعجّل» [١] . ويقول فيه «وأحد الأشهر الحرم ، المنقذة من حلول النقم ، شهر منزلته عظيمة ، وحرمته قديمة ، الحسنة فيه جزيل أجرها ، والسيئة فيه ثقيل وزرها» [٢] .

ويلفت الخطيب النظر إلى ضرورة الاعتبار بالسابقين ، والاتّعاظ بموت سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- ، فلا أحد على الأرض مخلّد ، ولا من الموت مهْرب ، ولما كان الأمر كذلك وجب إعداد جوابٍ شافٍ للسؤال عند الحساب ، والتزوّد بالخير والأعمال الحسنة ليوم الرحيل [٣] .

وهكذا يؤكد ابن نباتة في خطب المواقيت أهمية الزمن في حياة المسلم ، لأنه محاسب على ما اجترح ، ومطالب باستغلاله والتزود فيه لمآله ، لأنّ الموت قاطع للأعمال ، وحقّ على كل الأنام ، وفي هذا دعوة من الخطيب للجدّ والاجتهاد ، وبذل المزيد من الاستعداد ليوم الحساب .

*** موضوعات دينية اخرى :**

وهي موضوعات تشكل أركاناً أساسية في البناء الفني لخطب الديوان ، وهي :

١ - الثناء على الله تعالى بما هو أهله :

وهذا الباب يُعدّ جزءاً أساسياً في مقدمة خطب الديوان ، يبتدئ فيه الخطيب بحمد الله تعالى والحديث عن ذاته وصفاته ، وأسمائه ، ووحدانيّته ، وغير ذلك مما فيه ثناء على الله وتمجيد له كما في الكلام عن تنزيهه عن الشركاء أو الظلم ،

---

(١) الديوان : ١٤٤ .

(٢) نفسه : ١٤٦ .

(٣) نفسه : ١٣٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتفرّده بالحكم والأمر ، وافتقار جميع المخلوقات إليه ، وردّ شُبَهِ وافتراءات أصحاب العقائد الباطلة ، والحديث عن عِلْمه تعالى ، وقدرته ، ومشيئته ، وإرادته ، ورحمته ، وحلمه ، وعفوه ، والدعوة إلى خشيته ، وتقواه ، والتوكل عليه وشكره ...الخ . وهذا الباب ركن أساسي من أركان الخطبة ، ولا يجوز التنازل عنه ، أو إهماله في مثل خطب ابن نباتة الدينية المسجدية ، وفي التقيد به التزام بسنّة الخطباء السابقين الذين تعلّموا ذلك من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، واقتداء حسن بهم ، وهو خير طريق يسلكه الخطيب في التمهيد لدخول الموضوعات التي يريد طرحها للمستمعين .

ومجمل المعاني التي يطرحها الخطيب مستمدّ من العقيدة الإسلامية بمصادرها والعلوم الشرعية بفروعها ، ذلك أنها عقيدة التوحيد ، القائمة على فهم وإدراك معنى لا إله إلا الله على حقيقتها .

يقول الخطيب في مقدمة خطبة له «الحمد لله الذي جعل الحمد فاتحة كتابه ، وأول ما جاء به القرآن في نظامه ، ... والحمد لله ذي الجبروت والرفعة ، واللاهوت والمنعة ، العالم بمكنون الأسرار ، والمحتجبُ بكبريائه عن إدراك الأبصار ، والمتعالي على كل حَدٌّ ومقدار ، الذي لا تحيط به صفة واصف ، ولا تحويه معرفة عارف ، الأول الذي لا تُدْرَكُ أزليّته ، والآخِرُ الذي لا تنقضي أبديّته ، والملك الذي لا تبلى بهجته ، والديّان الذي لا تُدفع حُجّته ، ذي الأسماء العليّة ، والآلاء السنيّة ، والأيادي المتضاعفة ، والمنن المترادفة ، المحيطُ علمه بما في البرّ والبحر ... الذي عجزت الأقوال عن تحصيله ، وعزّبت الألباب عن تمثيله ، وبعدت الأمثال عن شِبْهه ، وحارت الفطن في تكييف كنهه ، وعنت الوجوه لكرم وجهه ، علاّم خفيّات الغيوب ، ستّار مفظعات الذنوب ، فرّاجُ نازلات الكروب ، ... والحمد لله القديمِ السابقِ الذي لا غاية لسبقه ، الحكيمِ الخالقِ الذي لا تفاوت في خلقه ، الكريمِ الرازقِ الذي لا يكدى مضمون رزقه ، الحقّ المبينِ الذي لا تقوم الأعمال بكُنْه حَقّه ، ... عَظُم حِلْمه عن المذنبين فعفا ، وعمّ تجاوزه من أسقط وهفا ، ... تعالى ربنا عن أقوال الجاحدين ، وتقدّس مجده عن ضلال الملحدين ، ... فلك الحمد على ما خصصتنا به من

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

معرفة وحدانيتك ، وباعدتنا عن قول من جحد بك ، وكفر بعظمتك، وجعل لك أولاداً ميّتين ، وشركاء مربوبين ، يأكلون الطعام ، ويخافون الأسقام ، ويلحقهم النفع والضُّر ، ويصيبهم الخير والشر ، صامتين لا ينطقون ، وفقراء لا يُرزقون .. وكيف يستنكف من هو عبد مربوب ، ومخلوق بأجله مطلوب، يُشبّهه من عَبده بالصّلبان، ويَدّعي فيه القتل بالكذب والبهتان ؟ إنه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة ، ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار ...»[1] .

ويُلحظ أثر علم الكلام والمصطلحات العقديّة في هذه المقدمة ، مثل الجبروت ، واللاهوت ، والأزليّة ، والكُنْه ، والتمثيل ، والكيفية ، والتشبيه ، والقِدم ، والوحدانية ..الخ .

والقارئ في مقدمات خطبه ، لا يملك إلا أن يُسلّم بحسن سَبْكِها وصياغتها ، لما ترتاح إليه النفس عند سماعها ، رغم أنه لا تجديد فيها عن النمط المعهود ، وهذا أمر ليس للخطيب به يدان ، فالسُّنَّة تقتضي الاقتداء بمن سبق ، وعدم الخروج عن نهجهم سيما في هذا الباب ، وهذه المقدمة وأمثالها ، مما نسمعه من خطبائنا في أيامنا هذه .

٢- ذكر الرسول والصلاة عليه :

وهذا الباب يُكمل مع الذي سبقه مقدمة جميع خطب الديوان ، إذ يبتدئ الخطيب فيه بشهادة أنّ محمداً رسول الله ، ثم يذكر فضله ، ومآثره ، وقد يتحدث عن نسبه ، وصفاته وأخلاقه ، وشفاعته ، وتأييد رسالته وانتشارها وغير ذلك ، وينتهي بالصلاة والسلام عليه وعلى آل بيته وأتباعه .

والإشادة برسول الله في مقدمات الخطب سنّة علّمنا إياها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- واقتفاها من بعده الخطباء ، وهم على أثرها حتى يومنا هذا مقتدون ، ولا يجوز بحال إهمالها في مثل هذه الخطب الدينية .

---

(١) انظر الديوان : ٤٣٥-٤٤٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي سيرة الرسول وأخلاقه ووفاته ، القدوة الحسنة والعبرة التي ذكّرنا الله تعالى بها في كتابه بقوله ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أُسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾ (١) . كما أنّ في الصلاة عليه طاعة لله ، وثواباً منه ، والتزاماً بأمره ، كما في قوله ﴿ إنّ الله وملائكته يُصلّون على النبي ، يا أيها الذين آمنوا ، صلّوا عليه وسلّموا تسليما ﴾ (٢) .

ولذلك عقد الخطيب بالإضافة إلى ما ورد في مقدمات خطبه من صلوات ، فصولاً كاملة جمعها تحت عنوان : فصول الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم- في الخطب الثواني يميناً وشمالاً» (٣) .

وفي الإشارة إلى نسب الرسول يذكر الخطيب شرفه بقوله : نقّله الله في الأصلاب الشراف ، والأرحام النُطاف ، حتى أَخْرَجَهُ من مُصَاصِ عبدالمطلب بن هاشم بن مناف » (٤) ثم يعتزّ بنَسَبِه فهو -صلى الله عليه وسلم- من أَطْيبِ العرب لباباً ، وأثقبها شهاباً، وأَنْجَبِها عِراباً، وأعذبها خطاباً، وأمنَعِها حجاباً، وأرحَبِها جَنَاباً» (٥).

ثم يذكر مبعثه ودعوته وجهاده ، فقد أرسله الله عند انتشار الفساد في أقطار البلاد ، فشمّر في طاعة ربه ، وخاض المكاره ، ونهض بما حُمِّل من الرسالة ، حتى نقض معالم الكفر والضلالة ، ودحض شقاشق الزيغ والجهالة ، ومحض النصيحة في المقالة ، حتى تألّق مصباح الدين ، وأشرق إيضاح اليقين ، وعُبِد الله في كل فجّ ، وجُهِر باسمه في كل مكان (٦) .

وعندما يتحدث عن مآثره وخصائصه ، يذكر أنه كان بالمؤمنين حفيّاً ، ومبعوثاً إلى خير الأمم ، وقد خَتَمَ الله به الرسل ، وأَوْضَح به السُّبُل ، وأزاح به

---

(١) القران الكريم: سورة الأحزاب : ٢١ .

(٢) نفسه ، سورة الأحزاب : ٥٦ .

(٣) انظر الديوان : ٢٨٧-٣٠١ .

(٤) نفسه : ٢٣٥ .

(٥) انظر نفسه : ٢٢ ، وانظر : ١٦٠ .

(٦) انظر نفسه : ٢٢ ، ٢٣ ، ٦٣ ، ٢٢٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العِلَل ، وأبطل بملّته الملل ، وأنزل كرام الملائكة لنصره ، وجعله حاديَ الأنبياء في الإمامة ، وهاديهم المقدّم يوم القيامة ، وخصّه في المعاد بشرف الشفاعة ، وأول من تنشقّ عنه بطن الأرض يوم القيامة [١] .

ومما يُستغرب من الخطيب قوله «وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالسيف مُعْلِماً» [٢] وقوله «وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بدِيْنٍ مرتضى ، وسيفٍ منتضى» [٣] وقوله «وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله مُصْلتاً بالحُسَام ، ... حتى أذلّ عبدة الأصنام ، وألّف القلوب بتشذيب الهام» [٤] . وذلك لأن الخطيب يعرف أنّ الله أرسل رسوله بالحق بشيراً ونذيراً ، وداعياً إليه بإذنه وسراجاً منيراً ، غير أنه يبدو مدفوعاً في مقدمات خطبه إلى مثل هذا الكلام ، لأنّ موضوعاتها كانت في الجهاد والحثّ عليه ، ولذلك قد يبدو هذا الوصف لرسول الله منسجماً مع الغاية التي يقصد إليها الخطيب .

وفي حديث الخطيب عن وفاة الرسول ، يذكر نزول الملائكة لقبض روحه ، وتغيّر حاله ، ومعالجته سكرات الموت ، وكلامه مع ابنته فاطمة ، والخطيب يريد من ذلك لَفْت النّظر إلى أنّ أحداً لن ينجو من الموت ، إذ لو كان شرَفٌ يؤخّره ، أو قَدْر يدفعه لتمّ ذلك لرسول الله ، وفي ذلك دعوة للاعتبار ، وحث على العمل للآخرة ، والتوبة والرجوع إلى الله ، فرسوله مبشّر بالجنة وهو صاحب الشفاعة ، وله من الفضائل في المعاد الكثير ، فماذا يفعل المذنبون المصرّون على معاصيهم ؟ وماذا ينفع اللاّهين الجاهلين المشمّرين للدنيا إذا نزل بهم الموت ؟ [٥]

ومكانة الرسول عالية في قلب الخطيب ، ولذلك نجده يتوسل به في الدعاء إلى الله في أحايين كثيرة ، منها قوله :"فنسألك اللهم ببلاغه عنك ، وقربه منك ،

---

(١) انظر : الديوان : ١٣٨ ، ١٥٤ ، ٢١١ ، ٣١٤ ، ٣٢٥ ، ٣٤٤ .

(٢) نفسه : ٢٢٥ .

(٣) نفسه : ٢٢٢ .

(٤) نفسه : ٢٠٧ .

(٥) انظر : نفسه : ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجاهه المقبول لديك ، وحقه الذي لا يخيب من توسّل به إليك ، أن تجعل القرآن لنا إلى كل خير قائداً ...» [١] .

ومن فصول الصلاة على النبي ، أَقْتبِسُ قول الخطيب «اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد ، صلاة دائمة بدوامك ، اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد ، صلاة كفيلة بفضلك وإنعامك ، اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد ، ما تعاقَبَت الأوقات، اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد ، ما دامت الأرض والسماوات» [٢] .

وليست الصلاة على النبي جديدة على الناس ، لكنّ تخصيص فصول لها تتكرر في الخطب الثواني ، كما فعل ابن نباتة قد يبدو من أبواب الابتداع والتجديد فيها .

٣- الدعاء :

ولا تستقيم الخطبة عند ابن نباتة دونه ، وكذا بقية الخطباء أيام الجمع ، وقد يَرِدِ الدعاء في كلام ابن نباتة في الخطبتين الأولى والثانية ، وهو ليس شرطاً في الأولى ، ويكون إذا جاء فيها موجزاً يتلاءم مع موضوعها ، وفي الثانية مُطوّلاً ، متعدد الجوانب ، يتصل بالدعاء لرسول الله والملائكة المقرّبين والأنبياء المرسلين ، وأهل الطاعة أجمعين،ثم يُخصّص الدعاء للخليفة والولاة ، والأمراء ، وقادة الجيوش ، وعموم المسلمين بالنصر على الأعداء ، والمعونة ، والمغفرة ، والرحمة ، وغير ذلك .

ومن إحدى الخطب في ذكر النار ، يدعو الخطيب قائلاً : أعاذنا الله وإياكم من شرّها ، وأجارنا وإياكم من بَرْدِها وحَرّها ، وجعلنا وإياكم لأمره متّبعين ، وبزَجْرِه منتفعين» [٣] .

---

(١) الديوان : ٤٤٩ ، وانظر : ٤٦٧ .

(٢) نفسه : ٢٩٨- ٢٩٩ .

(٣) نفسه : ٣٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأما الخطب الثواني ، فقد أعدّ الخطيب لها فصولاً في الأدعية للولاة وعموم المسلمين * ومن بعضها قوله « اللهم عمّ بالصلاح والتوفيق ، رعايا المسلمين ورُعاتهم ، وأمراءهم وولاتهم ، وحكّامهم وقضاتهم ، وعلماءهم وهداتهم ، وعُمّالهم وكفاتهم ، وأيّد اللهم بعونك أنصارهم وحماتهم ، واجمع فِرقهم وأشتاتهم، واحرس اللهم فرسانهم وكُماتهم ، وأنِل رحمتك ورضوانك أحياءهم وأمواتهم ..» [١] .

ومن آخر في دعائه على العدو يقول : اللهم ارمهم بسهمك الصائب ، وأحرِقهم بشهابك الثاقب ، ومزّقهم بجندك الغالب ، وبدّد شملهم في جميع المسالك والمذاهب ، ولا ترفع لهم أبداً راية ، واجعلهم لمن خلفهم آية » [٢] .

ومن صور الدعاء عند الخطيب التوسل ، ويكون بالنبي أو الخيرة الأبرار من خلقه تعالى ، وفي ذلك يقول في الاستسقاء «فنتوسل إليك بالخيرة الأبرار من خلقك ، أن تنشئ لنا سحاباً غدقاً مدراراً ، هنيئاً انهماره ، عاماً ابتكاره ، ...» [٣] ، ويقول في الدعاء في آخر ليلة من رمضان : «نتوسل إليك بمحمد سيد المنتجبين ، وبعترته الخيرة الأبرار الطيبين ، أن تجعلنا في هذه الليلة من المرحومين ، وأن لا تردّنا بالخيبة محرومين ...» [٤] .

٤ – المناسبات الدينية :

وهي كثيرة منها يوم عاشوراء ، وذكرى وفاة الرسول ، وليلة النصف من شعبان ، وشهر رمضان ، وليلة القدر ، والأيام العشر من ذي الحجة ، وعيدي الفطر والنحر ، وقد أشرت إلى هذه المناسبات في موضوعي المواقيت والموت .

---

* انظر : فصول الأدعية (٣١٣-٣٣٠) .

(١) نفسه : ٣١٤-٣١٥ .

(٢) نفسه : ٣٢٦-٣٢٧ .

(٣) نفسه : ٢٦٢ .

(٤) نفسه : ٤٦٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويدعو الخطيب إلى تذكّر هذه المناسبات ، وبيان فضلها ، والاعتبار بما جرى فيها ، مؤكداً على ضرورة استغلالها ببذل المزيد من الطاعات ، واجتناب المعاصي ، للحصول على الأجر والثواب ، والفوز بالجنة والنجاة من النار ، ويُنبّه الخطيب إلى ما يتعلق بهذه المناسبات من سُنن مُتّبعة ، أو محظورات مُجْتنبة .

وهناك مناسبة مميّزة تتعلق بختم القرآن في رمضان ، وقد وضع الخطيب لها خطبتين هما أطول خُطَبِه وآخرها جميعاً ؛ أولاهما تُعرف بالفاتحة ، والثانية تعرف بالقَعْسريّة [1] .

ويتطرّق الخطيب فيهما إلى وصف القرآن ، والحث على تلاوته ، وتدبّر معانيه ، ويُبيّن فضله ومكانة قُرّائه وواجباتهم ، ثم يتوجه إلى الله بالدعاء أن يكون القرآن شفيعاً لصاحبه في الآخرة ، ودستوراً للمسلمين في دنياهم يصلح أحوالهم ويجمع شملهم ، ومن ذلك قوله : «وقد أنزل الله -جلّ جلاله- عليكم كتاباً، جعل أمثاله عِبَراً لمن تدبّرها ، وأوامر هدى لمن استبصرها ، وشرع فيه واجباتِ الأحكام ، وفرّق فيه بين الحلال والحرام ، فقال -جلّ ثناؤه- : «ما فرّطنا في الكتاب من شيء» ، فعليكم-أيها الناس-بكتاب ربكم فاتلوه حقّ تلاوته ، وتدبّروا حقائق عباراته ، وتفهّموا عجائبه ، وتبيّنوا غرائبه ، فإنه يردّ الجائر إلى قَصْده ، ويَهدي الحائر لرشده ، يشفي سقم القلوب ، ويُنقّي درن الذنوب ، ... فقُرّاء القرآن حَمَلة سرّ الله المكنون ، وحَفَظة عِلْمه المخزون ، خلفاء أنبيائه وأمناؤه ، وهم أهل الله وأخصّاؤه ، وخيرته وأصفياؤه ، فما أحقّ من علم كتاب الله أن يَزْدَجِر بنواهيه ، ويذكر بما شُرِح له فيه ، وأن يخشى الله ويتّقيه ، ويُراقبه ويَسْتَحْيِيه ، فإنه قد حُمّل أعباء الرّسل فَحَمَل ، وصار شهيداً في القيامة على من خالف من أهل المِلل ، ألا وإنّ الحُجّة على منْ عَلِمَهُ فأغفله أوْكد منها على من قصّر عنه وجَهِله ، ومن أوتي القرآن فلم ينتفع ، وزُجر بنواهيه فلم يرتدع ، وارتكب من المآثم قبيحاً ، ومن

(١) انظر الديوان : خطبة الفاتحة (٤٣٥-٤٥٥) وسميت بهذا الاسم لمقدمتها ، وفيها : الحمد لله الذي جعل الحمد فاتحة كتابه .

الخطبة القعسرية (٤٥٥-٤٧٢) وسميت بهذا الاسم إشارة إلى قوله في وصف الله بأنه ذو العز القعسريّ أي القوي الشديد . انظر : شرح الديوان : ٤٥٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجرائم فضوحاً ، كان القرآن عليه شهيداً مقبولاً ، ولقي بما فرط منه في الآخرة حزناً طويلاً ، ... اللهم أرشدنا لِحِفْظِه ، وأعِذْنا من نَبْذِه ورفْضِه ، وقِلاه وبُغْضِه ، ولا تجعلنا ممّن يدفع بعضَه ببعضه ، اللهمّ أَعِذْنا به من ذميم الإسراف ، ورَضْ به نفوسنا على العدل والإنصاف ، وذلّل به ألسنتنا على الصدق والاعتراف ، واجمعنا به على مسرّة الائتلاف ، واحشرنا به في زمرة أهل القناعة والعفاف ، اللهمّ شرّف به مقامنا في محل الرحمة ، واكنفنا به في ظل النعمة ، واجمعنا به بحبل العصمة ، وبلّغنا به نهاية المراد والهِمّة ، وبيّض به وجوهنا يوم القتر والظلمة »[1].

* لقد عكس لنا الخطيب في موضوعاته الدينية إخلاصه ، وورعه وتقواه ، وبرزت في خطبه هذه سمات واضحة منها الموازنة والمقابلة ، وهذا طبيعي لأنه يعتمد فيها على الترغيب والترهيب ، والمقارنة بين الجنة والنار ، والحي والميت ، والزاهد والطمِع ، والدنيا والآخرة وغير ذلك .

كما برزت سمة التكرار في المعاني والألفاظ ، وكان الخاطب يستلهم من كتاب الله تعالى وسنّة نبيه ، وأقوال الزهاد وغيرهم ، ولعل هذا هو السبب في قلة الابتكار والابتداع عند الخطيب ، فلا نجد له إضافة إلا في تخصيص فصول محددة للصلاة على رسول الله في الخطب الثواني ، أو تخصيص خطب صالحة لأيام الجمع طوال شهور السنة ، وهي إضافات في مجملها شكلية لا جوهرية .

---

(١) انظر : الديوان : ٤٤٦-٤٥٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثالثاً : الاتجاه الاجتماعي والأخلاقي :

وهذا الاتجاه مسيس بالاتجاه الديني ، فالدين والأخلاق جزء من حياة المجتمع ، وهما منه بمنزلة الروح من الجسد ، ولذلك تتشابك موضوعاتهما لتصب في غاية واحدة لا يزال الخطيب يسعى إليها حثيثاً . وهذا الاتجاه مطروق أبداً عند الخطباء ، لأنهم يعيشون فيه مع واقع وأحداث معاصرة ، يتأثرون بها كغيرهم من أفراد المجتمع ، ولذلك يحرصون بحكم عملهم على الإفادة منها في الوصول إلي مبتغاهم الذي جعلوه وُكْدهم ، والمتمثّل بإصلاح الناس ، ودفعهم إلى العمل والطاعة والابتعاد عن الشرور والمعاصي ، لينالوا الخير الوافر في الدنيا والآخرة .

وقد بحث الخطيب في خطبه موضوعات عدّة تتصل بالمجتمع ومشاركته أفراحه وأتراحه ، وأهمها :

* **النقد الاجتماعي :**

وأقصد به إبراز الواقع الاجتماعي والأخلاقي والديني لأفراد المجتمع الذي يعيش فيه الخطيب ، مع الإشارة إلى مآخذه عليهم ، وذكره لمواطن الخلل فيهم ، والتنبيه إليها ، وقد حرص الخطيب في ذلك على ما يلي :

١ - التهكّم والسّخرية والتعريض بالمجتمع المتردّي وأفراده .

٢ - بيان العِلل والأسباب التي أدت إلى حالة التردّي وآثارها .

٣ - عرض الحُلول ، وتقديمها عن طريق الوعظ والإرشاد ، والحث على مكارم الأخلاق .

٤ - الإشادة بطائفة من أبناء المجتمع الذين زهدوا في الدنيا ، وطمعوا في الآخرة، والدعوة إلى سلوك مسلكهم .

وهكذا نتبيّن غاية الخطيب وهدفه السامي الذي سعى إليه ، والمتمثل في الإصلاح الاجتماعي للأمة ، وذلك للنهوض بها حتى تتبوأ المكانة التي تستحقها ، لأنها خير أمة أخرجت للناس .

وينتقد الخطيب مُعدّداً الأعراض المرضية التي يعاني منها أفراد المجتمع على تباينهم ، فقد سطعت فيهم جمرات الظلم والاعتداء ، وارتفعت بينهم رايات

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الغوغاء ، واتبع الناس دعاة الجهل والملذّات ، وشاع بينهم النفاق والرياء ، فهم يُظهرون توكّل البَرَرة الأتقياء ، ويُضمرون أعمال الفَجَرة الأشقياء ، وقد تركوا الوفاء بالعهود ، وأتوا في نواديهم المنكرات بلا خوف ولا حياء ، وانتشرت الفاحشة والفسوق بينهم، واعتمدوا على غير الله ، وركنوا إلى الشهوات والملذات، ونافسوا في تحصيلها ، وأقبلوا على الدنيا ، ونافسوا في تحصيلها ، وتركوا الآخرة ، وعَزَفُوا عن سنن الأخيار والصلحاء ، وأضاعوا حقوق الله بالتضافر على إبطالها ، وأهملوا المواقيت والجُمع، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، وتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأهملوا النفير إلى أعداء الله ، ونكصوا عنهم على الأعقاب [١] .

ويذكر الخطيب أثر هذه المعاصي على المجتمع ، فقد أصبح أفراده فرصة للمُفْتَرِس ، ونهزة للمُخْتلِس ، وهانوا على أنفسهم وعلى غيرهم ، فهم لا يرقبون إلا يد غاشم تخطفهم ، أو ريح عدو هاجم تنسفهم ، وبلادهم يَفُكُّ العدو عُراها ، ويدكّ أركانها ، ويتملك أرضها قاطناً ، ويحتنك سوادها آمناً ، فحياتهم مُرّة ، وعيشتهم منكّدة ، ودعاؤهم محجوب ، ورجاؤهم منكوب [٢] .

وبعد تعداده للمظاهر السلبية التي شملت الأمة أمراء ومأمورين ، وبيان أثر ذلك في حياتهم ، يأخذ بالتساؤل مستنكراً عن الدوافع والأسباب الكامنة وراء ذلك، مؤكداً أنها غفلة لا بد أن تجد اليقظة إليها سبيلاً ، ولذلك يحثّ على الإسراع بالإنابة قبل أن يقطع الموت الحياة ، وفي ذلك يقول : إنّ سُبل العافية عافية لقلّة سُلاّكها ، وإنّ عِلَل القلوب فاشية مُؤْذِنة بهلاكها ، وإنّ حُلل الذنوب بادية على سوقة الأمة وأملاكها ، وإنّ رُسُلَ المنون قاضية أن لا يُفْلت أحد من شِبَاكها ، فما للعيون ناظرة لا تبصر ؟ وما للقلوب قاسية لا تفكر ؟ وما للعقول طائشة لا تشعر ؟ وما للنفوس ناسية لا تذكر ؟ أغرّها إنظارها وإهمالها ؟ ... كلا ، ولكن شملت الغفلة فاستحكمت على القلوب أقفالها ،... أفيظن ظانٌ أنّ الله خلق الخلق ليهمله ؟ أم بدأ

---

(١) انظر الديوان : ٢١٩ ، ٢٢١ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ .

(٢) انظر : نفسه : ٢١٩ ، ٢٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العالم ليُغفله ؟ كلا ، ليبعثنّ من أماته ليسأله ، عن الرسول ومن أرسله ، وعن القرآن ومن أنزله ...» [١] .

ويعظ الخطيب الناس موصياً ، ومُسْدياً النصائح ، مرشداً إلى الخروج من هذا الواقع المتردّي ، فلا بُد من التوبة ، والزهد في الدنيا ، والعمل للآخرة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والنفير إلى أعداء الله ، والتحلّي بمكارم الأخلاق وآداب الإسلام ، واجتناب المعاصي ، والخطيب يتخوّل المستمعين بالموعظة ويذكرهم بالموت والمعاد ليكون في كلامه حثّ لهم على الإسراع في العمل ، قبل فوات الأوان، وفي ذلك يقول الخطيب «اتعبوا للراحة ، واعملوا للرفاهة ،... فأفيقوا -رحمكم الله- من سُكر الشهوات ،واحذروا أن يستفزّكم الشيطان في الهَفوات ، وطهّروا درن الذّنوب بفيض العَبَرات ، ويسّروا حُزُن القلوب بذِكر يوم الحسرات» [٢] ويقول «فما لنا لا يأخذ الأقوياء منا على أيدي الضعفاء ، والعلماء على أيدي السفهاء ، فبادروا-عباد الله-فُسْحَة المهل ما دام مبذولاً ، وواصلوا صحة العمل ما دام مقبولاً ، وأقلِعُوا ما دام حبل الحياة موصولاً ..» [٣] ، ويوصي منظّماً حياة الناس في أخلاقهم ومعاملاتهم بضرورة طاعة الله فيما أمر من برّ الوالدين ، وصِلَة الأرحام ، ووفاء المكاييل ، والعدل في قسمة المواريث ، واللّين في معاشرة النساء ، وحُسن الصحبة والضيافة للجيران ، وأبناء السبيل ، ويدعو إلى إفشاء التحية وكظم الغيظ ، ودفع الحسنة بالسيئة ، وتجنّب مقارفة الزنا ، ومعاقدة الرّبا ، وقذف المحصنات ، والتزيّن بأعمال الرياء ، وأكل أموال الناس بالحرام ، ونهى عن اللّمز والهَمْز والنميمة والكبرياء ، وسوء الظنّ بالأبرياء ، والطعن على الأئمة الصلحاء، وحضّ على تأديب الأهْلين ، والتنفّل بإطعام المساكين ، والاستغفار للسلف الماضين ، وحذّر من الخمر لأنها أوْبق مصائد الشيطان ، ورأس الإثم والعدوان [٤] .

---

(١) الديوان : ٤٠- ٤١ .

(٢) نفسه : ٣٥٠- ٣٥١ .

(٣) نفسه : ١٢٥ .

(٤) انظر : نفسه : ٣٧٠- ٣٧١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وذكر الخطيب بعض طوائف المجتمع كالمتصوفة مُبْرِزاً أخلاقهم ومعاملاتهم، فهم الأبدال وأولو الأحلام الذين زهدوا في الدنيا وقنعوا بالقليل ، وتركوا الطمع وقمعوا الأهواء ، وابتعدوا عن رذائل الأخلاق ، والتزموا طاعة ربهم مخلصين ، فقاموا الليل ، وصاموا النهار ، وبكوا على ذنوبهم ، وأكثروا من الذكر ، ولذلك أيّدهم الله وسدّد خطاهم ، وسترهم بستور الاختصاص في أكناف بلاده ، وتَوَّجهم بالكرامات ، وجعل مثواهم الجنة .

وشجّع الخطيبُ الناسَ في وعظه وإرشاده على سلوك مسلكهم والاقتداء بهم لينالوا رضى الله وثوابه [1] .

* المناسبات الاجتماعية :

وأقصد بها المناسبات والأحداث العامة التي عاشها الخطيب مع معاصريه ، وأثّرت في نفوسهم ومجرى حياتهم ، فأشار إليها في ديوانه ، وخطب بها لغاياتٍ يُريدها ، وفائدةٍ يرجو الوصول إليها باعتباره خطيباً واعظاً لا مؤرخاً ، ولأنه أحد أفراد مجتمعه ، يشعر بهم في أفراحهم وأتراحهم وأمانيّهم ، ولا يريد لهم إلا الخير والفلاح في الدنيا والآخرة .

ومن هذه المناسبات ما يتعلق بالتهنئة برجوع الأمير أو التقليد بالولاية ، ومنها ما يتصل بالتعزية أو النكاح .

فعند رجوع الأمير سيف الدولة وقدومه ، يَعُدّ الخطيب ذلك نعمة كبرى تستحق الشكر ، ويأخذ بتعداد مناقبه ومآثره ، والدعاء له بالتمكين ، والنصر على الأعداء ، وفي ذلك يقول «واعلموا أنّ أظْهَرَ نعمة جُلّلتموها ، وأكبرَ مِنّة خوّلتموها ، قدوم معزّكم بعد الإذلال ،... ومُنقِذكم من الفزع ، ومؤمّنِكم بعد الجزع،... الأمير سيف الدولة أبي الحسن ، ذي الراية المنصورة ،.. لا سلّبه الله ما خوّله ، وبلّغه من الدنيا والآخرة أمله ،... فسُوسُوا -عباد الله- هذه النِّعَم بِشُكرها فمثلها يُساس ،... واجأروا إلى الله في إطالة بقائه ، ودوام عزّه ونعمائه ،

(١) انظر : الديوان : ٩٧-٩٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وادّحاض شُناته وأعدائه ...» [١] .

وعند قدوم الأمير أبي المكارم بن سيف الدولة سنة ٣٥٢هـ لتولّي ميافارقين، فإنه يُبشّر بهذا التقليد ، ويدعو إلى شكر هذه النعمة ، والإخلاص في الدعاء بحفظ الوالي وأبيه ، وتوفيقِهما إلى ما فيه خير الإسلام والمسلمين ، فيقول : «فواصلوا حمْده ولا تعبدوا إلا إياه ، فمِنْ سِنيّ عوارِفِه ، ومشهور نَعْمائه ، وخفيّ ألطافه ، ومأثور آلائه ، حراستكم بحارس الدنيا والدين ،... الأمير سيف الدولة أبي الحسن،.. ومن تمام إحسانه إليكم ، وعامّ امتنانه عليكم ، تشريفكم بإيداع مهجته ، وردّ أموركم إلى سليله وصَفْوتِه ، الأمير أبي المكارم ، ابن سيف الدولة الصّارم ، فأبشروا -عبادالله- بالعِزّ المؤبّد ، والسّلطان المجدّد ،... فهو جوهرة من ذلك البَحْر،... ونِعمة واجبٌ شُكْر مُنْعِمها ، فاشكروا الله على ما خوّلتموه ،... فقد أمدّكم الله بضيغمه وابن حُسَامِه ، فارغبوا له جميعاً في حراسة دولته ، ودوام أيامه ، اللهم اشْدُد ببقائه عِصَم أهل التوحيد ، وعرّفْه وسائر المسلمين بركة هذا التقليد ، وألْبِسه جُنن التقوى والبأس الشديد ..» [٢] .

وعندما يتحدث عن ولاية أبي المعالي بن سيف الدولة لميافارقين سنة ٣٥٤هـ بعد وفاة أخيه أبي المكارم ، يُحْسِن بالإيجاز في التعزية بفقد الأول ، والإطالة بالتهنئة بقدوم الثاني ، ويَعُدّ ذلك ابتلاءً من الله يتوجّب الصبر ، ونِعمة منه تتوجب الشكر ، ويُبشّر بهذه الولاية ، داعياً الله إلى توفيق الوالي ، وفي ذلك يقول : «الحمد لله شُكْراً على ما أوزعنا عليه شُكْراً ، وصَبْراً وتسليماً لما ألْهَمَنا عليه صَبْراً ، الذي أسْبل علينا من كِفايته سِتْراً ، وأبْدَلَنا من بعد عُسْر يُسْراً ،... واشكروا سَوالفَ نِعَمِه ، يُمْدِدكم بمزيدها ،... واجأروا إلى الله في إسباغِها عليكم وتمهيدها ، فما استأثر بأولى نِعْمَتَيْهِ إلا ليَخْتَبِر صبْركم ، ولا ظاهَرَ عليكم أُخْراها إلا ليبلو شُكْركم ، فاحمدوه على الدائِرِ المسلوبِ صبراً ، وعلى الحاضر المجلوب شُكراً ، فقد رَأَب الصّدع ، وأحْسن الصّنْع ، وأجْزَلَ المثوبة ، وجَبَرَ المصيبة ،...

---

(١) الديوان : ٢٨٣-٢٨٦ .

(٢) نفسه : ٢٧٩- ٢٨٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فكونوا – عبادالله – بآلاء الله عارفين ، ولنعمائه واصفين ،... فاسألوا الله حراسة بَحْرٍ مَنَحَكُم جَوَاهِرَه ، ووكل برعايتكم قلبه وناظره ، الأمير فلان بن فلان ، وممّا أحيا به ذكر بلائه الخالي ،... إكرامكم بولاية مهجته الأمير أبي المعالي ، فالآن قرّ في دياركم الخِصْب إن شاء الله شاملاً ، وكرّ إليكم الإقبال كاملاً ... فزُمُّوا –عباد الله– نِعَمَ الله عندكم بحسن رعايتها ، ولا تهملوا سياستها في جميع أوقاتها ،... اللهم أجِلّ فلان بن فلان من معالي الأمور محلّ أهل العناية ، وتغمّده من رأفتك بأخصّ رعاية وأكمل كفاية ، وعرّفه وسائر المسلمين بركة هذه الولاية ،...» (١) .

وفي خطبة من ديوانه ، نلمح إشارات إلى وفاة ست الناس أخت الأمير سيف الدولة سنة ٣٥٢هـ ، وقد جعل ابن نباتة موضوع خُطْبَتِهِ في تَصرُّف الزمان بأهله والمعاد وذِكْر الموت ، ولم يُصرّح في تعزيته بالحديث عن أخت الأمير ، وذلك لطبيعة المقام الذي يقفه الخطيب أمام الناس يوم الجمعة ، وتحرّجاً من التصريح بذكرها لأنها أنثى ، إذ كان ذلك عيباً في زمنهم ، ويُؤكّد ابن نباتة في خطبته على أنّ الموت حَتْم على جميع الناس أياً كانت مناصبهم ومراكزهم ، فيقول في مقدمتها : الحمد لله الذي اختار البقاء لنفسه وارتضاه ، وقدّر الفناء على خَلْقِه فقضاه ، وحكم فيهم بعدله فأمضاه ، ويسّر كُلاً لما خُلِق له وأرضاه ، فساوى بالموت بين القويّ والضعيف ، وجعل التراب مآلاً للدنيّ والشريف ، عَدْلاً منه سابقاً في أقضيته ، ووعداً صادقاً في بريّته ..» (٢) ، وفيها يدعو إلى الزهد في الدنيا ، والاعتبار بالسابقين ، والاستعداد للمعاد .

* وأما النكاح فقد خصص له ابن نباتة ثلاث خطب متوالية * ، وجاءت قصيرة مسجوعة ، ينتقل فيها بعد حمدالله تعالى والثناء عليه والصلاة على رسوله إلى لبّ الموضوع ، فلا يقول أيها الناس وذلك لمراعاة المقام .

---

(١) الديوان : ١٢٥-١٢٨ .

(٢) نفسه : ٣٥ .

* خطب النكاح ، انظر : الديوان : ٤٢٨-٤٣٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم يتحدث عن حِلِّ النكاح ، فهو مما أباحه الله وحلّله وأمر به وأذن فيه ، ويذكر فضله والحِكمة منه ، فقد رفع الله به عن الناس إصْرهم ، وجَبَر كَسْرهم ، وسدّ به فقر ذوي الفاقة ، وأحكم بإبرامه متباعد الأنساب ، وأعاد ببركته قُلَّ التناسل كثراً ، وأصار بيُمْنه نَجس الوليد طُهْراً ، وأعلى به من نصّ كتابه ذِكْراً فقال تعالى ﴿ وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً ﴾ (١) .

ويَشْرَعُ بعد ذلك في عدّ مناقب الخاطِب ، فهو من أفضل الناس حَسَباً ووَفْراً ، ومن أكْمَلِهم أدباً وستراً ، قد عُرِف خبره ومخبره ، وارْتُضي تصرّفه في مذاهبه وماتيه ، وابْتُلي ظاهره وما يخفيه (٢) .

ويذكر رغبة الخاطب في فلانة بنت فلان ، ويحدّد الصّداق الذي دفعه لها ، ويُعلي من شأن الفتاة وأهلها ، فالخاطب يرى أنّ ما يدفعه قليلٌ نَزْر ، إذا ما قيس بما يبذله أهل المخطوبة له (٣) .

ثم يوصي بقبول طلب الخاطِب ، وعدم رَدّه ، وشدّ الأزر بمصاهرته ، ويدعو بالتوفيق والسّداد ، ويستغفر الله لنفسه والحاضرين وعموم المسلمين (٤) .

وتتكرر المعاني التي يطرحها الخطيب في خطب النكاح ، مع تغييرٍ في الألفاظ والتركيب ، والمعاني مستمدة من كتاب الله تعالى،ومن خطبه السابقين وما جرت عليه العادات والتقاليد في المجتمعات الإسلامية آنذاك .

* وفي ختام الحديث عن الاتجاه الاجتماعي يرى الباحث أنّ موضوعاته ليست جديدة ، فقد عرض لها الأدباء من قبل في نتاجهم الذي تركوه لنا ، وهي تخلو من الإضافات والابتكارات في الموضوع ، وقد يكون الخطيب معذوراً في ذلك ، إذ ليست كل المشاهدات والمناسبات قابلة للطّرح والتعليق أمام عامة الناس ، في مكان

---

(١) انظر الديوان : ٤٢٩ ، ٤٣١ ، ٤٣٤ . والآية من القرآن الكريم ، سورة الفرقان : ٥٤ .

(٢) نفسه : ٤٣٠ ، ٤٣٤ .

(٣) نفسه : ٤٣١ ، ٤٣٤ .

(٤) نفسه : ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كالمسجد ، وفي يوم كالجمعة ، غير أنه يُعدّ للخطيب إخلاصه وصراحته وصدقه وحرصه على مصلحة المسلمين ، وواقعيته في انتقاده للمظاهر السلبية عندهم ، وفيما ذكره الخطيب فائدة للدّارسين في عصرنا تتمثل في بيان حالة المجتمع وصورته في زمن الخطيب ، وأخذ العبرة مما جرى لهم ، والاستفادة من التوجيهات والنصائح التي وجههم الخطيب إليها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الرابع

الدراسة الفنية

- التجربة الأدبية
- البناء الفني للخطب
- اللغة والأسلوب
- الفنون البديعية
- الصورة الأدبية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التجربة الأدبية :

صحيح أنّ التعبير عن التجربة لا يشترط المشاهدة والمشاركة والمعاناة الواقعية [١] ، إذ يستطيع الأديب البارع أن يصف الحدث الذي يعرض للآخرين ويُبَيّن ما يتركه من أثر في نفوسهم كأنه أحد الأفراد الذين عاشوا الحدث واقعاً وشاهدوه عياناً .

ولكن مثل هذا الأديب الذي أوتي هذه المقدرة ، ومُنح هذه الموهبة لو أتيح له مشاهدة الحدث وعيشه ، لكان دون شك أكثر واقعية ومقدرة في التعبير عن أحاسيسه ومشاعره تجاهه ، ولكان نتاجه وكلامه أبلغ تأثيراً في نفوس الناس عند قراءتهم له ، أو استماعهم إليه .

لقد عكس لنا ابن نباتة في خطبه الواقع الذي عاشه مع أبناء مجتمعه في تلك الفترة الزمنية والبقعة المكانية التي أمضى حياته فيها ، وقد شهدت أحداثاً كثيرة وتغيرات متعددة أثرت بشكل كبير في الواقع السياسي والاجتماعي لحياة الأفراد على اختلافهم .

وقد أمضى الخطيب القسم الأكبر من حياته في ظل دولة الحمدانيين المتاخمة لإمبراطورية الروم المعادية ، وفي هذه البيئة حيث الصراع المستمر مع الروم، بدأت التجربة بالتشكل مبكرة عند الخطيب ، ففي ميافارقين - موطن ولادته ونشأته- ترقب منذ نعومة أظفاره غارات الروم ، وشاهد أفاعيلهم ، ورأى ما يُعدّه أبناء بلدته من وسائل الدفاع والحماية ، وتأثر بالجو الديني الذي ساد المنطقة حيث وفود المتطوعين من المجاهدين ، وعمران المساجد بالوعاظ والمبتهلين وغيرهم.

وبعد أن تبوّأ منزلته العالية لدى الخاصة والعامة حينما صار خطيب سيف الدولة ، أخذ يُجسد هذا الواقع في خطبه ، مشيراً في العديد منها إلى الأحداث والمناسبات الجارية آنذاك ، فها هو يذكر الجهاد ويُسكن الناس لاضطرابٍ وقع بهم وخوفٍ عند فتح العدوّ حلب في ذي القعدة سنة ٣٥١هـ [٢] بعد أن عمل فصولاً من

---

(١) بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية : ٢٢٩ .

(٢) الديوان : ١٩١-١٩٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قبل ذكر فيها قدوم "نجا" من الشام وأمن البلد به في رجب من السنة نفسها ، ثم وقعاته بالروم على باب حصن زياد ، وظفره بهم بعد خمسين حملة كانت بينهم في يوم السبت لستٍ بقين من شعبان من السنة نفسها [١] .

وها هو في خطبة جهادية أخرى يذكر حفر الخندق حول سور ميافارقين وذلك يوم الجمعة لعشر خلون من صفر سنة ٣٥٢هـ [٢] . ثم يعمل خطبة يذكر فيها تصرف الزمان بأهله والمعاد ، مشيراً إلى وفاة ست الناس أخت الأمير سيف الدولة، وكانت قد توفيت ضحى يوم الخميس لليلة بقيت من جمادى الأولى سنة ٣٥٢هـ [٣] .

ويضع ابن نباتة خطبة يذكر فيها مقتل الدمستق قائد الروم الذي فتح حلب، وكان مقتله في شعبان سنة ٣٥٢هـ [٤] .

ويذكر الخطيب في فصل آخر ولاية أبي المكارم ديار بكر، وكان قد خطب به يوم إقامة الدعوة له ، وهو يوم الخميس لعشر خلون من شهر رمضان ٣٥٢هـ [٥] .

وفي خطبة جهادية يذكر الخطيب موافاة نفير خراسان فيقول مقدماً للخطبة في الديوان ما يلي : وكانت موافاتهم يوم الاثنين لعشر خَلَون من ذي القعدة سنة ٣٥٢هـ ، وذلك لليلة بقِيَتْ من تشرين الآخر ، وعدّتهم ثمانية آلاف فارس وراجل في أحسن ما يكون من العُدّة ، والجهازات ، والبُنُود التي كان فيها ما طوله خمسون ذراعاً في الهواء ، والبخت ، والعُدَد التي لم يُرَ مثلها ، ونزل بعد ذلك في يوم الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة خلت من هذا الشهر وهو أول كانون الأول «نجا» فتى الأمير سيف الدولة في أربعة آلاف فارس وراجل ، في أعظم ما يكون من العُدّة . وذلك على فاقة شديدة من أهل ديار بكر إلى الغوث ، وإشفاقٍ وخوفٍ من العدو خَذَلَهُ الله،فعملت هذه الخطبة أذكر فيها موافاة الجيوش من الشرق والغرب،

---

(١) الديوان : ٢٧٥-٢٧٨ .

(٢) نفسه : ١٩٩-٢٠٢ .

(٣) نفسه : ٣٥-٣٩ .

(٤) نفسه : ٢٣٨-٢٤٠ .

(٥) نفسه : ٢٧٩-٢٨٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأذكر نِعَم الله في ذلك وأحرض على الجهاد ، وخطبت بها في يوم الجمعة لأربع عشرة خلت من ذي القعدة سنة ٣٥٢هـ [١] .

ومن هنا كان الخطيب صادقاً فيما يقول ويصف صدقاً واقعياً ، لأنه ابن الأحداث ومعاصرها ، وصدقاً تاريخياً يؤكّده المؤرخون ، وصدقاً فنيّاً يتجلّى في تعبيره عن مكنونات نفسه التي تتدفق منها مشاعره وأحاسيسه التي هي مشاعر المسلمين وأحاسيسهم تجاه ما يحيق بهم من أخطار .

ومما يدل على صحة قولي ذلك التأثر الذي كان يتركه كلام الخطيب في مستمعيه ، حتى إنّ اكثرهم كان يخرج إلى الغزاة من الجامع بعد أن يُنهي الخطيب كلامه [٢] ، ولولا صدقه لما بلغ هذا المبلغ من التأثير في قلوبهم .

ولا يعني هذا أن الخطيب كان صادقاً فيما تناوله من موضوعات تتعلق بالجهاد ، وحرب الروم ، وولايات الأمراء فحسب ، وإنما تعدّاه -أيضاً- إلى كل الموضوعات التي تعرض لها .

ومن تمام صدقه ذلك النقد الصريح الذي كان يوجهه للناس على اختلافهم، دون تفريق بين أمير ومأمور، مظهراً فيه الواقع المتردي الذي انغمس فيه الناس، حيث ارتكاب المنكرات ، والتقصير في أداء الواجبات ، ونسيان الآخرة والممات، والطمع في الدنيا وتحصيل الشهوات ، وانتشار البدع والأهواء [٣] .

وكان صادقاً في الغاية التي أفنى عمره لأجلها ، والتي تمثلت بدعوة الناس إلى الرجوع إلى الله تعالى ، وحُسن الخلق ، والعمل للآخرة ، وجهاد الأعداء ، وكان موته شاهداً على ذلك .

وكان صادقاً في وصفه العدو وسطوته وانتصاراته ، فلم يُقلّل منها، ولم يُغيّر حقائقها . كما كان صادقاً في وصفه القائد والبطل المسلم دون مبالغة أو تهويل ، فلم يجعله بطلاً أسطورياً .

---

(١) الديوان : ٢٠٢ .

(٢) نخبة تاريخية وادبية - كانار : ٢٨٥ . نقلاً من ابن الأزرق ، وهذا النص لم أجده في القسم المطبوع من تاريخ الفارقي .

(٣) انظر مثلاً ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٧ ، ٢١٦ ، ٢١٩-٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٣٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البناء الفني للخطب :

وأعني به أقسام الخطبة وأجزاءها الأساسية التي يتكون منها هيكلها العام ، وعليه فإن دراسة البناء الفني للخطبة يعني تسليط الضوء على مقدمة الخطبة وموضوعها ، وخاتمتها ، مع الأخذ بعين الاعتبار وحدة هذا البناء ، وانسجامه، وترابط أجزاء القول فيه .

ويتضمن الهيكل العام لخطب ابن نباتة التقسيمات التالية * :

١) المقدمة وتتضمن ما يلي :

أ - الحمدلة والثناء على الله تعالى بما هو أهله .

ب- الشهادتان .

ج - الصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

٢) العَرْض ويتضمن ما يلي :

أ - التخلص وهو الخروج بالقول : أيها الناس .

ب- فصل الخطبة ومضمونها ، وهو الموضوع والغرض الذي تتحدث عنه الخطبة.

٣) الخاتمة وهي نهاية الخطبة وتتكون من :

أ - الدعاء .

ب- آيات من كتاب الله تعالى تنسجم مع موضوع الخطبة وتذكّر به .

ج - الاستغفار ، وفي الديوان ما صورته : «ثم تقول : بارك الله لنا ولكم في القرآن العظيم ، ونَفَعَنا وإياكم بالآيات والذكر الحكيم ، وأستغفر الله العظيم لي ولكم ولسائر المسلمين ، وكذلك القول في آخر كل خطبة» [١] .

ومعلوم أن خطبة الجمعة تتكون من خطبتين أولى وثانية يفصل بينهما استراحة قصيرة ، غير أن الخطب الثواني عند الخطيب لا علاقة لها بموضوع

---

* ينطبق هذا على جميع خطب الديوان باستثناء خطب النكاح فهي خطبة واحدة وخطبة الاستسقاء التي تبدأ بالاستغفار .

(١) الديوان : ٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخطبة الأولى إلا في اختيار الفصول المناسبة من الأدعية . وعليه فالخطبة الثانية عند الخطيب تشمل ما يلي ** :

١) المقدمة التي تتضمن :

أ - الحمْدَلَة وهي قصيرة موجزة .

ب- الشهادتان .

ج - الصلاة على رسول الله والحث عليها .

٢) الدعاء ويكون حسب الحاجة ، وفيه :

أ - فصول الصلاة على النبي يميناً وشمالاً .

ب- الدعاء للخليفة أمير المؤمنين :

ج - فصول الأدعية للأمراء والولاة والقادة .

د - الدعاء لعموم المسلمين وجيوشهم وأسراهم .

هـ- الدعاء على العدوّ .

٣) الختام بآيات من كتاب الله تعالى .

اعتنى الخطيب بمقدمات خطبه ومَطالعها ، فابتدأها بالتحميد والثناء على الله تعالى بما هو أهله كما جرت السنة التي ترسّمها الخطباء قبله ، ولا يزالون حتى يومنا هذا ، لأن من سمات الخطبة وصفاتها المتعارف عليها ، أنها كل أمر ذي بال يستفتح بالتحميد والتمجيد ويتضمن ذكر الشهادتين ، ولا يخلو من آيات قرآنية وأمثال يُتوشح بها ، ومن هنا ذكروا في صفة الخطب التي ينقصها شيء مما سبقت الإشارة إليه أنها بتراء أو قطعاء أو شوهاء أو جذماء [١] .

** انظر الخطب الثواني في الديوان : (٣٠٢-٣١٢) ، وكذلك فصول الصلاة على النبي يميناً وشمالاً (٢٨٧-٣٠١) ، وفصول الادعية (٣١٣-٣٣٠) .

(١) البيان والتبيين : ٦/٢ . نقد النثر : ٩٥ . إحكام صنعة الكلام : ١٦٦ ، ١٦٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لكن عناية ابن نباتة لم تقتصر على حَمْدلةٍ اعتياديةٍ تُمجّد الله وتعظّمه كيفما اتفق ، إذ حرص الخطيب غاية الحرص أن تكون الجمل الأولى من حمده لله تعالى والثناء عليه موحيةً ومعبّدة للموضوع ، حتى غدا من الممكن للمستمع أن يتعرف إلى بغية الخطيب وغرضه والموضوع الذي سيطرقه من ألفاظ التحميد وعباراته التي انتقاها بعناية ، لتتلاءم مع واقع الأمة آنذاك، وما يمرّ بها من مناسبات ، أو يُحدق بها من مخاطر ، أو يجري لها من أحداث .

فها هو يقول في خطبة يذكر فيها احتباس المطر : «الحمد لله المحمود على البأساء والضرّاء ، المعبود في الأقطار والأرجاء ، المدعوّ لكشف نوازل الغمّاء ، المرجوّ عند انقطاع حبل الرجاء» [١] .

وفي أخرى يذكر فيها كسوف الشمس يقول : «الحمد لله مظهر الآيات عبراً للناظرين ، وصارف النازلات عن المتقين الذاكرين ، وموجب المزيد من نعمه للمستجيبين الشاكرين» [٢] .

وفي الخطبة الصوفية التي يذكر فيها أخلاقهم وأحوالهم يبدأ بالقول : «الحمد لله مختار من يصطفيه من عباده ، موفّق من يجتبيه لمراده ، ومؤيدهم بتسديده وإرشاده ، وساترهم بستور الاختصاص في أكناف بلاده » [٣] .

وفي أخرى يهنّىء بقدوم الوالي الجديد أبي المعالي بن سيف الدولة ، ويعزّي بأخيه الوالي الراحل أبي المكارم يقول : «الحمد لله شُكراً على ما أوزعنا عليه شكراً ، وصَبْراً وتسليماً لما ألهمنا عليه صبراً ، الذي أسبَلَ علينا من كِفايته سِتْراً، وأبْدلنا مِنْ بعد عُسْر يُسْراً ، وأعْظَمَ لمن اتّقاه وخافه أجراً ... » [٤] .

وفي أخرى يذكر فضل الأيام العشر ويوم عرفة فيقول : «الحمد لله مشرّف الأيام بعضها على بعض ، ومصرّف الأحكام بالإبرام والنقض ، ومكلّف الأنام بالقيام

---

(١) الديوان : ٢٥٦ .

(٢) نفسه : ٢٨٣ .

(٣) نفسه : ٩٧ .

(٤) نفسه : ١٢٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بأداء الفرض ... » [١] .

وفي خطبة يُشير فيها إلى وفاة ست الناس أخت سيف الدولة يقول : «الحمد لله الذي اختار البقاء لنفسه وارتضاه ، وقدّر الفناء على خلقه وقضاه ، وحكم فيهم بعدْله فأمضاه ، ويسّر كُلاً لما خُلق له وأرضاه ، فساوى بالموت بين القوي والضعيف ، وجعل التراب مآلاً للدنيّ والشريف .. » [٢] .

وفي خطبة يذكر فيها وصول الغوث ونفير خراسان يقول : «الحمد لله الوفيّ بوعده ، الحفيّ بعبده ، المليّ برِفْدِه ، العليّ في مجده ، الذي اطّلع على نهاية الضعف منا ، فقشع غيابة الخوف عنّا ، فهو وليّنا وحافظنا حيثما كنّا ، تَفَضُّلا منه على كافّتنا ومَنّا ... » [٣] .

وفي خطب يذكر فيها الموت وتصرّف الزمان والمعاد ، يقول في إحداها : «الحمد لله قاصِم الملوك والجبابرة ، وهادِم المعاقل والحصون العامرة ، ومُعفّي رسومها بالرياح السافية والسّحب الماطرة ، ورادّ جميع الخلائق إذا شاء في الحافرة » [٤] . وفي أخرى : «الحمد لله الذي هدم بالموت مشيد الأعمار، وحكم بالفناء على أهل هذه الدار ، فجعلهم أغراضاً لسهام الأقدار ، ووكّل بهم أمراضاً تزعجهم عن القرار ، وتجري منهم مجرى الدماء في الأبشار ، لا يعصم منها الاعتصام بالحذار ، ولا يخص بها الفقراء دون ذوي اليسار ، بل هي آياتُ عَدْلِ اللّه في البادين والحُضّار » [٥] .

وفي أخرى «الحمد لله البعيد مداه ، السّديد هداه ، العتيد جداه ، المبيد عداه، الذي قطع بالموت عُذْر المعتذرين ، وقمع به كِبْر المتكبرين ، وحسم به أطماع الطامعين ، وحكم به على الخلق أجمعين » [٦] .

---

(١) الديوان : ١٧١ .

(٢) نفسه : ٣٥ .

(٣) نفسه : ٢٠٣ .

(٤) نفسه : ٨٦ .

(٥) نفسه : ١٠١ .

(٦) نفسه : ٦٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي خطب الجهاد التي يذكر فيها ظهور الأعداء ويربط ذلك بخذلان المسلمين وفرارهم وعصيانهم نجده يقول في إحداها : «الحمد لله معزّ من أطاعه واتقاه ، ومذلّ من أضاع أمره وعصاه ، الذي وفّق أهل طاعته للعمل بما يرضاه ، وحقق على أهل معصيته ما قدّره عليهم وقضاه» (١) .

وفي أخرى «الحمد لله مُعِزّ من أطاعه بسلطانه ، ومُذِلّ من عصاه بخذلانه» (٢) .

وفي أخرى «الحمد لله هاتك ستور الهيبة عمّن عصاه ، ومقابل الخليقة من أعمالهم بما أحصاه ، الذي جعل العِزّ بطاعته معقوداً ، والرِّجْزَ بمخالفته موروداً ، يَصِلُ بأنسِهِ حبل من أطاعه ، ويكِلُ إلى نفسه من ترك أمره وأضاعه» (٣) .

وفي خطبة جهادية تذكر معصية المسلمين وشربهم الخمر بعد انتصارِ حققوه على العدو ، نجد الخطيب يبدأ الكلام بقوله : «الحمد لله مُسْتدرِج العُصَاة من حيث لا يعلمون ، والمملي لهم لينظر كيف يعملون ، لا يخفى عليه ما يُسرّون وما يُعلنون، حتى يأخذهم بغتة وهم لا يشعرون» (٤) .

ومن أخرى يذكر فيها ائتلاف المسلمين حاثّاً على الجهاد يقول : «الحمد لله ممزّق ظُلَلِ البلاء عند ادلهمامها ، ومُفَرّق جُملِ الأعداء بعد التئامها ، ومُبدِّد شمل الفئة الكافرة حين انتظامها ، ومؤيّد العصبة الصابرة بعزّ نصره أوان استسلامها» (٥) .

ومثل هذه المقدمات تُظهر عناية الخطيب بما يَفْتَتِحُ به كلامه ، وحرصه أن تكون مقدماته ممهدة للموضوع ، دالّة عليه ، ومعبّرة عنه ، فهي المدخل إلى ما بعدها ، وأول ما يُسمع .

وقد أجاد الخطيب في المقدمات التي ألفها أيّما إجادة ، وكانت مقدماته جديةً

---

(١) الديوان : ١٢٢ .

(٢) نفسه : ٢١٨ .

(٣) نفسه : ٢٢١ .

(٤) نفسه : ٢١٤ .

(٥) نفسه : ٢٣٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

منتقاة ، تناسب الموضوعات التي يطرحها لمستمعيه والمقام الذي يجمعه بهم .

وكان تاج الدين الكِنديّ قد انتقد افتتاح ابن نباتة خطبة وفاة النبي -صلى الله عليه وسلم- التي جاء فيها قوله : «الحمد لله المنتقم ممّن خالفه ، المهلك من أسفه ، المتوحّد في قهره ، المتفرّد بعزّ أمره» ، وعلّق على ذلك قائلاً : العجب ممن يفتتح هذه الخطبة بمثل هذا الكلام ، لولا غفلة لحقت الخطيب ، والألْيق بها أن يكون افتتاحها : «الحمد لله العادل في أقضيته فلا جوْر في قضائه ، المضي حكمه في بريّته فلا ريب في مضائه ، المتفرّد بالبقاء فلا مشارك له في بقائه ، المرجوّ روْحه فلا راحة لأوليائه دون لقائه ، وهذه السجعات غاية في المناسبة لافتتاح خطبة تُذكر فيها وفاة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-» [1] .

ويبدو الكندي معترضاً على هذا المطلع بحجة عدم موافقته المقام ، لكن الكثير من الأدباء ردّوا عليه ، ومنهم البغدادي أحد شارحي الديوان إذ يقول «إنما قال ذلك نظراً إلى قوله تعالى ﴿ فإما نذهبنّ بك فإنّا منهم منتقمون ﴾ ، وقد علّق الصفدي على هذا الرد قائلاً : وهذا الجواب في غاية الحُسن والسداد ، ولو أورد على الخطيب وهو حيّ لما أجاب بأحسن من هذا الجواب ولا أسدّ [2] .

وفي التعليق على هذا المطلع قال العكبري أحد شارحي الديوان : رأيت جماعة ممن شدا شيئاً من العلم يستخفّون ألفاظ هذه الفاتحة ، لكونها متضمنة ذكر وفاة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، لأنهم سبق إلى ذهنهم أنّ الموت نقمة وإهلاك، وهذا وَهْمٌ قبيح لا يسبق إلى ذهن من له أدنى مسكة من العقل ، بل ذِكْر هذا الفصل في وفاته -صلى الله عليه وسلم- من أحسن ما يُفتتح به مثل هذا لقصةٍ ، وذلك أن الله أرسل محمداً -صلى الله عليه وسلم- نقمة على من خالفه ، واستنصالاً لمن أغضبه، كما أرسله رحمة لمن تابعه ، واستمرّ له ذلك إلى أن تُوفّي -صلى الله عليه وسلم- ولم يتمكن أحد من الانتقام منه ، ولا من دحض شريعته

---

(١) انظر الوافي بالوفيات : ١١٥/١٩ . والخطبة في الديوان : ١٣٦ .

(٢) نفسه والصفحة نفسها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما جرى للملوك بعضهم مع بعض [١] .

وذكر بعض الأفاضل أنّ فيما ابتدأ به الخطيب هذه المناسبة لطيفة غامضة ، وهو أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان الكفار يترقبون موته لينقطع أمره ، فأهلكهم الله وانتقم منهم ، ثم لما انتظم شمل الإسلام نقل إليه نبيه عليه السلام [٢].

وقال جمال الدين إسماعيل المشهور بابن الفُقّاعي رداً على الكندي شعراً قال فيه :

تأمّلْ ما أقولُ تكنْ بصيراً ... بما ألْقَى إلينا الفاضلونا
كلامُ الشيخ في استفتاحِ هذي ... تَضمّنَ عنديَ الفتحَ المبينا
فقل للشيخ تاج الدين هَلاّ ... كشَفْتَ بفكرِكَ السّرَّ المصونا
فإنّ الشيخ ألقى القصد فيها ... إلى القرآنِ مُنْتَهلاً مَعِينا
فإمّا نَذهبنّ بكَ اعتبِرْها ... تجدْهُ قد تقصّدها يقينا
فلا تأخُذ عليهِ بعدَ هذا ... فتُحسب في عِداد الجاهلينا [٣]

* * *

ويشرع الخطيب في عرض موضوعه بعد أن يتخلّص من المقدمة بقوله : «أيها الناس» ، ولكل خطبة موضوع تتحدث عنه بشكل مكثف موجز دون استطراد أو إطالة ، وكثيراً ما كان الخطيب يدخل في لُبّه مباشرة باعتماد أساليب أدبية متعددة ، من غير تمهيد ، وكأنه قد اكتفى بما أورده في المقدمة التي حرص أن تكون ممهدة للموضوع ، ومرتبطة به ارتباطاً وثيقاً فلم يحتج إلى تقديم جديد .

ومثال ذلك قوله في إحدى الخطب يذكر الفتنة وينهى عنها : «أيها الناس : إنّ الفتنة نار شديد ضرامها ، بعيد مرامُها ، جائرة أحكامها ، دامِرة أعلامها ، مسمومة سهامها ، مذمومة أيامها ...» [٤] .

---

(١) مخطوط شرح العكبري للديوان (باريس) : ٢٩ .

(٢) شرح طاهر الجزائري : ١٣٦ .

(٣) نفسه : ١٣٦ ، ١٣٧ . وفي هدية العارفين : ٢١٣/٥ . جمال الدين إسماعيل بن محمد بن إسماعيل ، أبو الفداء الحموي المعروف بابن الفُقّامي الحنفي المولود سنة ٦٠٢هـ ، والمتوفى سنة ٦٧٠هـ .

(٤) الديوان : ١١٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن أخرى يذكر فيها الموت : «أيها الناس : إنّ الموت لكم مناجز ، ليس بينه وبين أرواحكم حاجز ..» [١] . وفيه من أخرى يقول : «أيها الناس : رحل الناس فعلامَ تعريج المثبّطين ؟ وأدلجوا في غياهب الحادثات فإلامَ سِنةُ المفرّطين ؟ وتسلّطت على الكافة يد المنون فحتّامَ غِرّة المتسلّطين ؟...» [٢] . وكذلك قوله في غيرها : «أيها الناس : تجهّزوا فقد ضُرِب فيكم بوق الرحيل ، وبرّزوا فقد قُرّبت لكم نوق التحويل ، ودعوا التمسك بخدع الأباطيل ...» [٣] .

ومن أقواله في خطب يذكر فيها تصرّف الزمان والمعاد وذمّ الدنيا «أيها الناس : سافروا في كرّ الجديدين بأفكاركم ، وتأمّلوا اختلافهما بقلوبكم وأبصاركم، هل ترون إلا معدوماً يوجد ؟ ، أو موجوداً يُفقد ؟ ، أو أهلاً يخْرُب ؟ ، أو حاصلاً يذهب ؟ ، أو آمناً يُعطب ؟ ..» [٤] . وفي أخرى «أيها الناس : أصيخوا بأسماع القلوب لِقِراع الخُطوب تسمعوا له دوياً في انتهاب الأعمار ، وتجدوه ملياً بإخراب الديار ..» [٥] . وفي غيرها «أيها الناس : إنّ الدنيا محال،يقتضيه زوال،يقتفيه مآل،يحتذيه وبال ...» [٦] . وفي أخرى «أيها الناس : إنّ الدنيا متاع ، مقامكم فيها اطّلاع ، ووَصْلُها لكم انقطاع ، وارتفاعها بكم اتّضاع ..» [٧] . وفي أخرى «أيها الناس: إنّ الدنيا قد أدبرت وآذنت بانقلاع ، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطّلاع، فتزوّدوا من دار المحال لدار المآل ، وخذوا من الحياة الفانية المنكّدة للحياة الباقية المؤبدة ...» [٨] .

ومن بعض خطبه في موضوع الجهاد يقول «أيها الناس : إنّ الجهاد باب الجنة

---

(١) الديوان : ١٣٠ .

(٢) نفسه : ١٠٩ .

(٣) نفسه : ٦٣ .

(٤) نفسه : ٢٣ .

(٥) نفسه : ١٢٠ .

(٦) نفسه : ٢٦ .

(٧) نفسه : ٩١ .

(٨) نفسه : ٥٥ـ ٥٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأعظم ، وطريقها الأقوم ، من سلكه أمِن المهالك ،ومن أدْرَكه قَطَن الممالك» [١] .

ومن أخرى «أيها الناس : إنّ الطرق إلى الله واضحة ولكنّ طريق الجهاد أقْصَدها ، وإنّ فروض الكتاب لازمة ولكن فرض قتال ذوي الإلحاد أوكدها» [٢] .

ومن خطبة يذكر فيها وفاة الرسول يقول : «أيها الناس : إنه ليس أحدٌ أكْرم على الله من نبيه ، ولا أشرف عنده من محمد نجيّه وصفيّه ، وإنه لم يُؤخَّر عند انقضاء مُدّته ، ولم يُعمّر عند حضور منيّته ..» [٣] .

وأمّا خاتمة الخطبة فتنتهي بالدعاء وآيات من كتاب الله تعالى ، فمن دعائه في خطب المعاد قوله : «جعلنا الله وإياكم ممن أحسن الارتياد لنفسه ، واستعبر باكياً على ما فرّط من يومه وأمسه ، وأطاب الزاد لحلول رمْسِه» [٤] .

ومن أخرى : «زحزحنا الله وإياكم عن دار البوار ، وأحلّنا وإياكم دار القرار ، وحمانا وإياكم من حطام هذه الدار» [٥] .

ومن دعائه في خطبه يذكر الجهاد وينتقد أفراد المجتمع : «صرف الله نفوسنا ونفوسكم عن قول المنكرات وفعلها ، وجعل الاستعداد للمردّ الأكبر شغلها ، ومَنّ علينا وعليكم بالإجابة وإن كنّا غير أهلها» [٦] .

وقد راعى الخطيب في دعائه انسجامه مع الموضوع الذي تطرّق إليه في خطبه . وكان الخطيب يختار آيات من كتاب الله تذكر بموضوع خطبته ، وتلخص الغاية المنشودة من الكلام فيه ، ولذلك كان الخطيب في غاية الحرص على انتقائه لها .

ففي الخطبة الذي ذكر فيها الفتنة وحذّر منها ، اختار من الآيات ليختمها

---

(١) الديوان : ١٩٦ .

(٢) نفسه : ٢٢٩ .

(٣) نفسه : ١٣٧ .

(٤) نفسه : ٦ .

(٥) نفسه : ١٠ .

(٦) نفسه : ٢٣٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يُحييكم واعلموا أنّ الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون * واتقوا فتنة لا تصيبنّ الذي ظلموا منكم خاصة واعلموا أنّ الله شديد العقاب *﴾ (١) .

وفي خطبة يذكر فيها ذمّ الدنيا وقيام الليل اختار قوله تعالى : ﴿ يا أيها المزّمل * قم الليل إلا قليلاً * نصفه أو انقص منه قليلاً * أو زد عليه ورتّل القرآن ترتيلاً *﴾ (٢) .

وفي خطبة ذكر فيها قدوم الوالي الجديد اختار في حثّه على حمل الأمانة قوله تعالى : ﴿ الذين إن مكّناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور *﴾ (٣) .

وفي خطبة يذكر فيها شهر محرّم مُبيّناً فضله ، وداعياً إلى العمل فيه ، اختار هذه الآية : ﴿ إنّ عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم ، ذلك الدين القيّم فلا تظلموا فيهنّ أنفسكم ، وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أنّ الله مع المتقين *﴾ (٤) .

وفي خطبة وفاة رسول الله اختار هاتين الآيتين : ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخُلد ، أفإن مِتّ فهم الخالدون * كل نفس ذائقةُ الموت ونبلوكم بالشرّ والخير فتنة وإلينا ترجعون *﴾ (٥) .

وفي خطبة يذكر فيها احتباس المطر ورحمة الله تعالى اختار الآية التالية : ﴿وهو الذي يُنزّل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد *﴾(٦).

وفي خطبة يذكر فيها كسوف الشمس ويتحدث عن خروجها من المغرب كآية

(١) الديوان : ١١٥ . الآيتان رقم ٢٤ ، ٢٥ من سورة الأنفال .

(٢) نفسه : ٥٨ . الآيات رقم ١-٤ من سورة المزمل .

(٣) نفسه : ١٢٩ . الآية رقم ٤١ من سورة الحج .

(٤) نفسه : ١٣٦ . الآية رقم ٣٦ من سورة التوبة .

(٥) نفسه : ١٣٩ . الآيتان رقم ٣٤ ، ٣٥ من سورة الأنبياء .

(٦) نفسه : ٢٢٦ . الآية رقم ٢٨ من سورة الشورى .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من علامات الساعة الكبرى ، اختار قول الله تعالى : ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك ، يوم يأتي بعد آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ، قل انتظروا إنّا منتظرون *﴾ (١) .

وفي حديثه عن الموت وحتميّته وذكر المعاد ، اختار لنا في بعض خطبه قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نفس ذائقة الموت وإنما توفّون أجوركم يوم القيامة ، فمن زحزح عن النار وأُدخل الجنة فقد فاز ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور *﴾ (٢) .

ومن خطبة يذكر فيها تصرّف الزمان والمعاد ، ويحثّ على النظر في ذلك اختار الآية التالية : ﴿ أولَمْ يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا هم أشدّ قوة وآثاراً في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق *﴾ (٣) .

وفي خطبة جهادية يذمّ الفارّين ويخوّف من تكرار ذلك ، اختار قول الله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولّوهم الأدبار *﴾ (٤).

ومن أخرى يوصي بالثبات والجدّ حاثّاً على الجهاد ، اختار قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون *﴾ (٥) .

كان ابن نباتة من الذين يؤلّفون خطبهم قبل أن يخطبوا بها ؛ وهذا ليس عيباً فيه أو نقصاً من قدره ، بل هو ممّا يستحسن للخطباء الأخذ به (٦) ، ولذلك كان حريصاً في خطبه على ما يلي :

١ - حُسن الربط بين أجزاء الخطبة وأفكارها في المقدمة ، والمضمون ، والخاتمة .

---

(١) الديوان : ٢٧٥ . الآية رقم ١٥٨ من سورة الأنعام .

(٢) نفسه : ١٠ ، ٣٨٩ . الآية رقم ١٨٥ من سورة آل عمران .

(٣) نفسه : ٥٢ . الآية رقم ٢١ من سورة غافر .

(٤) نفسه : ١٨٧ . الآية رقم ١٥ من سورة الأنفال .

(٥) نفسه : ١٨٤ . الآية رقم ٤٥ من سورة الأنفال .

(٦) إحكام صنعة الكلام : ١٦٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢ - الدقة في اختيار الألفاظ ، والتعابير المناسبة للمقدمة ، والأساليب الملائمة للدخول إلى الموضوع ، ثم انتقاء الآيات الممثلة له من كتاب الله تعالى في الخاتمة .

٣ - مناسبة كلامه ومقاله لمقتضى الحال والمقام .

ومجموع هذه الإجراءات من شأنه أن يجعل الخطبة أدعى إلى التأثير في المستمعين ، كما أنّ فيه الدليل على حذق الخطيب وبراعته ، ووفور بضاعته وصناعته .

وبدراستي للبناء الفني لخطب ابن نباتة ، أكون قد توصّلت إلى أن الخطيب راعى الوحدة في أجزاء الخطبة الواحدة ، فالمقدمة مختارة وهي ممهّدة للموضوع وأفكاره ، وتتصل به اتصالاً وثيقاً ، كما أنّ أجزاء الموضوع مترابطة فيما بينها ولا وجود للاستطراد أو الإطالة ، إذ الدخول إلى لبّ الموضوع وجوهره يكون بشكل مباشر ، وفي الخاتمة يتم التأكيد على الغاية المنشودة من الكلام في هذا الموضوع ، وذلك باختيار آيات من كتاب الله تعالى تؤكد صحة ما ذهب إليه الخطيب في طروحه التي عرضها ، وتدعو إلى الأخذ بها قولاً وعملاً .

ومن ناحية أخرى توصلت إلى أنّ الخطيب راعى الوحدة الموضوعية ، سواءً أكان ذلك في بناء الخطبة الواحدة أو في مجموع الخطب التي ينتظمها موضوع رئيسي واحد تدور في فلكه جزئيات وفرعيّات تتصل وترتبط معاً .

ومما يجدر الإشارة إليه أنّ خطب ابن نباتة جاءت قصيرة موجزة ، وهو مما يُستحبّ في الخطب الشرعية لا سيما خطب الجمعة »[1] ، وقد اتبع الخطيب في ذلك أمر رسول الله ، إذ رُوي أنّ عمار بن ياسر -رحمه الله- تكلّم يوماً فأوجز ، فقيل له : لو زدتنا ، فقال: أمرنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باختصار الخطب[2].

غير أنّ هذا الإيجاز لا يُخلّ بمعاني الخطبة وحُسن سبكها ، أو ترابط أجزائها ووضوح أهدافها .

---

(١) إحكام صنعة الكلام : ١٦٧ .

(٢) نقد النثر : ١٠٣-١٠٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم يقتصر الديوان على خطب موجزة أو مختصرة ، فقد تضمّن كذلك خطباً طوالاً لبعض المناسبات الدينية ، لا سيّما مناسبة ختم القرآن في شهر رمضان ، وقد رُوعي فيها البناء الفني على العادة التي اتبعها الخطيب في جميع خطبه .

اللغة والاسلوب :

عاش الخطيب عصره الأدبي الذي تميّز بالصنعة الفنية الزاخرة بالجناس والمحسّنات البديعية والزخارف اللفظية ، ولذلك تأثّر به في أسلوبه وألفاظه التي حاكى فيها أهل الأدب في زمانه .

وتميّزت خطب ابن نباتة من الناحية اللغوية بجزالة الألفاظ وفخامتها وقوّتها ، مع وضوح مقاصدها ، وجاءت ألفاظه وعباراته مميّزة بانسجام تركيبها وسلامته ، مع فصاحتها وحسن ترتيبها ، ودقة في انتقاء مفرداتها ، مما استدعى فيما بعد تفسيرها وشرح غريبها .

ومن مظاهر اهتمام الخطيب بتخيّر ألفاظه وانتخابها ، تجنّبه استخدام الألفاظ العامية ، وابتعاده عن استعمال الألفاظ الأعجميّة إلا نادراً في إشارته إلى أسْر الزراور والبطارق والدّماسق من قادة الروم والأكراد [١] ، وحِرصه على تجنّب استعمال المفردات النابية عن الذوق والأخلاق مراعاة للمقام ،وتجسيداً لما عُرف عنه من الصلاح والورع .

لقد عكس لنا قاموس الخطيب اللغوي تنوّع ثقافته وتأثّره ببيئته وعصره ، فمن تأثره بالصراع المذهبي عند المتأخرين في عصره ذكره لطوائفهم في خطبه مثل القدرية والجبرية ، واستخدامه لألفاظ ومصطلحات من علم الكلام وغيره مثل خلق القرآن ، والقِدم ، والماهية ، والكيفية ، والأينية ، واللاهوتية ، والتلاشي ، والجوهر والعرض ، والثواب والعقاب ، والتجسيم والحلول ، والتشبيه ، والتوحيد [٢] ، ومن معرفته بعلوم العربية استخدامه لتراكيب مثل أدوات

---

(١) انظر الديوان : ٢١٥ .

(٢) انظر نفسه : ٩٣ ، ١٩٠ ، ١٩٦ ، ٣٥٣ ، ٣٧٥ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٤٠٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإعراب، وعلل التصريف ، وحروف التعريف ، وخبر كان ، وسكون الحركات لدخول الجوازم [١] .

ومن سلامة تراكيبه وفصاحتها مراعاته في ألفاظه وعباراته القواعد النحوية والصرفية ، والتذكير والتأنيث ، والإفراد والتثنية والجمع ، ، وأدوات الربط ، وحسن سبك الجمل وغير ذلك . وقد علّق الكندي وهو أحد شراح الديوان على صحة بعض التراكيب والألفاظ في خطبه، وردّ عليه آخرون ، فمن ذلك تعليقه على قول الخطيب «سبحان من يعلم ما في السماوات العُلى ،... ومصافّ الطير في الهوا» ، وفيه : الهواء ممدود وقصرُه في الشعر ضرورة وفي غيره قبيح جداً ، وقد ردّ عليه طاهر الجزائري بقوله : المشهور أنّ قصر الممدود لرعاية الفواصل في السجع ليس بقبيح فضلاً عن أن يكون قبيحاً جداً [٢] .

ومنها تعليقه على قول الخطيب : «ونكصتم عن عدوّ الله وعدوّكم على الأعقاب،... ووطأتم لضيم المستضيم أكنافاً ، ورضيتم بإرغام المرغم آنافاً» وفيه : الصواب منكم آنافاً ، وقد ردّ على ذلك الشيخ شرف الدين عبدالعزيز الأنصاري بقوله : سياق الكلام يقتضي أنه نصَبَ آنافاً برضيتم كما نصَبَ نفوساً بطبتم ، فإذن لا حاجة إلى لفظة منكم وهذا بيّن جداً ، والله أعلم [٣] .

ومنها تعليقه على قول الخطيب «ما أَفْظَع الفقر بعد الثراء! ،... وأَوْجَعَ المنْع بعد العطاء» وفيه : الصواب أشدّ إيجاع المنع بعد العطاء لأنّ الفعل غير ثلاثي . وقد ردّ عليه أحدهم بقوله : قد جوّز سيبويه صَوْغ فِعل التعجّب من الرّباعي ، فلا مؤاخذة على الخطيب لأنه اتّبع مذهب سيبويه لقصد الترصيع» [٤] .

وقد تناسبت ألفاظ الخطيب الجَزْلة الفخمة ، وعباراته المحكمة مع الموضوعات والمعاني التي عبّر عنها ، لأنها كانت موضوعات تتّصف بالجدّ والبُعد

---

(١) انظر الديوان : ١٧ ، ١٨ ، ١٨١ ، ٣٧٥ .

(٢) نفسه : ٤٠١ الحاشية (١) .

(٣) نفسه : ٢١٩ ، الحاشية (٣) . ولم اتعرّف على الشيخ المذكور .

(٤) انظر نفسه : ٢٥٧ ، حاشية ٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عن الهزل .

وكان ضياء الدين بن الأثير قد انتقد الخطيب في استعماله لفظة اشمخرّ التي وصف بها أهوال يوم القيامة والنار في قوله «اقمطرّ وبالها ، واشمخرّ نكالها» على اعتبار أنّ هذه اللفظة مما لا يحسن بالنّاثر استعماله في الخطب والمكاتبات [١] ، وأيّده في ذلك من المحدثين طاهر الجزائري [٢] .

ولكنّ الصفدي ردّ عليه بقوله : «إنّ الخطيب -رحمه الله- كان من البلغاء الفصحاء ، الذين يوردون الكلام موارده ، ويُعطون كل مقام ما يستحقه ، لأنّ ذكر النار والقيامة أمر مهول ، ويحتاج إلى ألفاظ مفخّمة تهول السّمع ، وتُسيل الدّمع، وتقشعرّ لها الجلود ، وتنفطر لها الكبود ، ولا يليق بأوصاف النار غير هذه الألفاظ مثل : اقمطرّ ، واشمخرّ ، واسبطرّ ، وازبأرّ ، واكفهرّ، واقشعرّ ، وابذعرّ ، واطلخمّ ، وادلهمّ ، واقتحمّ ، واحتدمّ [٣] .

وأكّد الصفدي إمامة الخطيب في علوم اللغة والأدب في انتقاده لابن الأثير بعد أن عرض كلاماً له في ذمّ الدنيا بقوله : أما وقف على الخطب النباتية ورأى كلامه فيها ، فيحذو حذوه ، ويتلو تلوه» [٤] .

وقد تنوعت أساليب الخطيب تبعاً لتعدّد أغراض موضوعاتها بين إنشائي وخبري ، فمن الأساليب الإنشائية التي لجأ إليها الخطيب بُغية تنبيه المستمع ، وجلب انتباهه ، وإثارة اهتمامه ، أسلوب الاستفهام بحروفه وأسمائه ، ويظهر ذلك في كلام الخطيب مثل : أتطمعون في بقاء الأبد ؟ وهل ترون إلا معدوماً يوجد أو موجوداً يُفقد ؟ وما للهمم عن المعالي قاعدة ؟ ومن أسوأ حالاً ممّن استعبده هواه ؟ وأين أهل العزائم والنيّات ؟ وكيف يلتذّ بصفو حياة من كان

---

(١) المثل السائر : ٢٧٣/١ .

(٢) انظر مقدمة شرح الديوان للجزائري : ١٣ . والخطبة في الديوان ص٤ هكذا «واشمخرّ وبالها ، واقمطرّ نكالها ، وترادفت أهوالها ....» .

(٣) نصرة الثائر على المثل السائر : ١٣٨ .

(٤) نفسه : ١١٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الموت غايته وقصاراه ؟ وفحتّامَ وإلامَ ؟ [١] .

ومنها أسلوب النداء ، في مثل قوله : يا ذا الشيبة ، ويا حملة القرآن ، ويا أسراء الدنيا ويا قرناء الفناء ، ويا أيها الغفلة المقصّرون ، ويا أيها الحُلاّل منازل الراحلين [٢] .

ويتبع له أسلوب الندبة لإظهار التفجّع والتوجّع والحسرة في مثل قوله : وا أسفا ، وواحذرا ، وواحزنا ، ووارحمتا ، وكذلك واشباباه وامحاسن وجهاه، وواكهلاه واقلّة حيلتاه ، وواشيخاه واكبرسنّاه ، ووافضيحتاه ، ووامصيبتاه [٣] .

ومنها أسلوب الأمر للفرد والجماعة في مثل قوله : فأجدّ أيها الغافل مركبك ...، وأعِدّ أيها الراحل زادك ...، وأخلِص العمل ...، وبادر المهل . وقوله: شدوا الرحال ، ومهّدوا المآل ، وأعدّوا المقال ، وشيّدوا الأعمال [٤] ، وهي كثيرة جداً في ديوانه .

ومنها أسلوب التعجب في مثل قوله : ما أجهل من قصّر في الزاد ليوم المعاد! وما أعظم المصيبة على من فقد قلباً واعياً ! وما أقبح العجز -رحمكم الله- بنفوس طاهرة تنكل عن جهاد جثث كافرة! [٥] . وقد يؤكد ذلك بلفظة التعجب كما في قوله: فيا عجباً لغفلة مطلوب لا بدّ من إدراكه [٦] .

ومنها أسلوب القسم في مثل قوله : والله لو أمكنته فيكم فرصة لما أغفلها، وقوله أُقسم قسم صواب ، إنّ الله برحمته لأجود منه بالعقاب ، وقوله : كلا -والواحد الصمد- إنّ الموت لبالرصد ، وقوله : فوالذي بعث محمداً بالحق رسولاً ، قسماً لا تجدون له تبديلاً ، لئن نصرتم الله لينصرنّكم ، وقوله فوالذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور لتموتنّ ثم لتبعثنّ [٧] .

---

(١) انظر الديوان : ١١ ، ٢٣ ، ٧٦ ، ٢٣٩ ، ٣٧٠ .

(٢) نفسه : ٥١ ، ٦٧ ، ١٣٨ ، ٣٦٤ ، ٣٦٨ .

(٣) نفسه : ٣٤٥ ، ٣٩٨ .

(٤) نفسه : ٣٠ ، ٣٣ .

(٥) نفسه : ٧ ، ١٢ ، ١٨٦ .

(٦) نفسه : ١٢ .

(٧) نفسه : ١٢ . وانظر ١٤٩ ، ١٨٧ ، ٢٥٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومنها أسلوبا النهي والنفي في مثل قوله : لا تكونوا من الذين اتخذوا الدنيا معقلاً ، وقوله : ولا تنوا في أمر المعاد كما ونيتم في أمر الجهاد ، وقوله : وما قلّت فئة كان تقوى الله شعارها ، وقوله : لا جُنّة من القدر ، وقوله : فما من شهر رمضان في الشهور عوض ، ولا كمفترضه في غيره مفترض [١] .

ويقصد الخطيب إلى استخدام الجمل الدعائية في مثل قوله : جعلنا الله وإياكم ممن غلب هواه ، وسارع في مرضاة مولاه ، وكانت الجنة منقلبه ومثواه ، وقوله : مَنّ الله علينا وعليكم بنصره القريب ، وأدال لأهل التوحيد من عبدة الصليب [٢] .

كما يُكثر من استخدام الجمل المعترضة ، في مثل قوله : فبادروا -عباد الله- فكاك رهونكم قبل أن تغلق ، وقوله : فأطيبوا -رحمكم الله- ما تزرعون ، وقوله : إن الله -وله الحمد- اختار لكم من السنة أياماً شرّفها ، وقوله : فعليكم -أيها الناس- بتقوى الله فإنها أوكد الأسباب [٣] .

ومن السمات الأسلوبية عند الخطيب كذلك النّحت في مثل قوله : إنّا الله أيّه بكم فهل أنتم سامعون [٤] .

إنّ في تنويع هذه الأساليب وتعدّدها دلالة على ثقافة الخطيب الواسعة ، وصدق انفعالاته ، وهي مما يُكسب خطبه قوة وتأثيراً .

ومن الأسلوب التقريري الذي لجأ إليه الخطيب رغبة منه في تأكيد معنى من المعاني ، استخدامه كم الخبرية الكثيرية في وصف أهل النار في قوله : «وكم يومئذ من شاب يُنادي في نار جهنم واشباباه ، وامحاسن وجهاه ، وكم يومئذ من كهل ينادي في نار جهنم ...، وكم يومئذ من شيخ ينادي في نار جهنم ...، وكم يومئذ من امرأة تنادي في نار جهنم ...» [٥] .

---

(١) الديوان : ١٨٦ ، ٢٢٣ ، ٢١٦ ، ١٦٦ ، ٣٤٠ .

(٢) نفسه : ١٨٤ ، ٢٠٦ .

(٣) نفسه : ٢٧ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٦٩ ، ٢١٧ .

(٤) نفسه : ٢٣ ، ١٨٢ ، ٣٠٢ ، أيّه : أي قال : يا أيها .

(٥) نفسه : ٣٤٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويظهر في قول الخطيب السابق سمة أسلوبية أخرى هي التكرار في تركيب بعض عباراته ، ومنه قوله في وصف عذاب أهل النار وحوارهم مع خازنها، وفيه: يا مالك ، قد حمي علينا الوقيد ، يا مالك ، قد نضجت منا الجلود ، يا مالك ، أخرجنا منها ، فإنا لا نعود» (١) ، وقوله في ترهيب المؤمّل في الدنيا : فأوْلى له ، ثم أوْلى له ، ثم أولى له» (٢) . وهو أسلوب عمد إليه الخطيب كذلك في ألفاظه للتأكيد على معانٍ يقصدها ، ومن ذلك قوله في حرمة يوم النحر وفضله : وجعلَهُ الله عيداً حراماً ، في يوم حرام ، من شهر حرام ، متقدم لشهر حرام ، مقتف لشهر حرام» (٣) ، وقوله في الترغيب بالجهاد والتحذير من النكوص عنه «فالجهاد الجهاد ، أيها المؤمنون ، والظّفر الظّفر أيها الصابرون ، والجنة ، الجنة أيها الراغبون ، والنار النار، أيها الهاربون» (٤) ، وقوله متحسراً لفقد المجاهدين المخلصين «هيهات هيهات هيهات ، أصبح -والله- أهل هذه الصفات في بطون الفلوات» (٥) .

والتكرار يؤدي عند الخطيب وظيفة مهمة تتمثل في التأكيد على إيصال المعاني والأفكار إلى عامة المستمعين الذين تتباين قدراتهم الذهنية والاستيعابية ، كما أنّ في التكرار اللفظي إيقاعاً موسيقياً يزيد من الانفعالات النفسية ، مما يؤثر في قلوب المستمعين وحيويتهم .

ويستخدم الخطيب لام التوكيد مؤكداً على كلامه ، في مثل وصفه قبول الله تعالى حُجّاج بيته ومباهاته الملائكة بهم في قوله : أشهدكم لأمهّدنّ لهم الضيافة ، ولأحسننّ على مخلفيهم الخلافة ، ولأعظمنّ عليهم المنّة ، ولأجعلنّ قراهم الجنّة» (٦) .

---

(١) الديوان : ٣٤٦ .

(٢) نفسه : ٣٩٨ .

(٣) نفسه : ٤٠٩ .

(٤) نفسه : ١٩٠ .

(٥) نفسه : ٢٣١ .

(٦) نفسه : ١٧٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد يؤكد على فكرة ما باللفظ والمعنى في مثل قوله : «والعجب كلُّ العجب لمن تُخرّب الأيام عمره وهو يُعمّر داراً» [١] .

والواقعية مظهر يتّسم به أسلوب الخطيب في عرض الأحداث السياسية والوقائع العسكرية ، والعلاقات الإنسانية بين أبناء مجتمعه ، إضافة إلي الحديث عن المظاهر الطبيعية مثل كسوف الشمس واحتباس المطر [٢] .

ومن السمات الأسلوبية عند الخطيب كثرة اقتباسه واستشهاده بآيات من كتاب الله تعالى ، ليس فقط في خاتمة خطبه ، وإنما بين تضاعيف كلامه ، وقد برع الخطيب في ذلك ، وأحكم إحكاماً تاماً ، حتى إنّ الآية لتقع في كلامه موقعاً لطيفاً لا ينتبه له القارئ إلا إذا كان من الحُفّاظ [٣] ، وفي ذلك ذكر الصفدي بأنّ الخطيب أقدر الناس على تنزيل الآيات في كلامه [٤] .

وقد أبدى ضياء الدين بن الأثير إعجابه ببراعة الخطيب في اقتباساته لآيات الكتاب العزيز ، وجعلها من أعجب ما يجيء في هذا الباب [٥] ، وذكر آخرون هذه الاقتباسات في مؤلفاتهم مثل ابن أبي الإصبع المصري المتوفى سنة ٦٥٤هـ ، وشهاب الدين محمود الحلبي المتوفى سنة ٧٢٥هـ ، ونجم الدين بن الأثير الحلبي المتوفى سنة ٧٣٧هـ ، وشهاب الدين النويري المتوفى سنة ٧٣٧هـ ، والقلقشندي المتوفى سنة ٨٢١هـ ، وابن حجة الحموي المتوفى سنة ٨٣٧هـ وذلك ضمن أبواب التضمين ، والاقتباس ، والمناسبة [٦] .

---

(١) الديوان : ٢٠ .

(٢) انظر نفسه ١١١-١١٥ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٧١ -٢٧٥ .

(٣) النثر الفني في القرن الرابع الهجري : ١٩٦/٢ ، ١٩٧ .

(٤) انظر الوافي بالوفيات : ٣٩٠/١٨ .

(٥) انظر المثل السائر : ٢٤٥/٣ ، ٢٤١ . الجامع الكبير : ٢٣٣-٢٣٥ .

(٦) انظر بديع القرآن : ١٥٠ . حسن التوسّل إلى صناعة الترسّل : ٣٢٣ . جوهر الكنز (تلخيص البراعة في أدوات ذوي اليراعة) : ٢٦٢ ، ٢٦٣ . نهاية الأرب في فنون الأدب : ١٨٢/٧ . صبح الأعشى : ٢٣٧/١ . خزانة الأدب وغاية الأرب : ٤٤٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتوشيح الخطب بآيات القرآن مما يُستحب للخطيب ، لأنه الموعظة الحسنة ، والحجة البالغة ، والحكمة الباهرة ، والهادي إلى الرشاد ، والمنجي من الضلال [١] .

ومن الأمثلة على تضمينات الخطيب لآيات كتاب الله تعالى قوله : «فيا أيها الغفلة المطرقون ، أما أنتم بهذا الحديث مصدقون ، مالكم لا تشفقون ، فوربّ السماء والأرض إنه لحقّ مثل أنكم تنطقون» [٢] . وقوله في ذكر يوم القيامة: «هنالك يُرفع الحجاب ، ويوضع الكتاب ، ... ، ويُجمع من حقّ عليه العقاب ، ومن وجب له الثواب ، فيُضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب» [٣] . وقوله : «أَسْكَتَهُم والله الذي أَنْطَقَهُم ، وأبادهم الذي خلقهم ، وسَيُجدِّهم كما خلقهم ، ويجمعهم كما فرّقهم ، يوم يُعيد الله العالمين خلقاً جديداً ، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقوداً ، يوم تكونون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تودّ لو أنّ بينها وبينه أمداً بعيداً» [٤] . وقوله في خطبة جهادية : «فأحسنوا -رحمكم الله- الثقة بمن لم يزل بكم برّاً لطيفاً ، وقاتلوا أولياء الشيطان إنّ كيد الشيطان كان ضعيفاً» [٥] .

ومنها تضمينه أحاديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- والإشارة إليها ، في مثل قوله في النهي عن الغيبة «ومن انتهك عرض أخيه المسلم بغيبة كان خصمه الله ، وذلك لصحة الآثار المجمع عليها أنّ النبي -صلى الله عليه وسلم- نهى عن الغيبة والاستماع إليها ، فاتقوا الله -عباد الله- في كلمة صغيرٍ أمرُها ، كبيرٍ وِزْرها ، فكم كَبَّت حصائد الألسن وجوهاً في الجحيم ، وأسلمتهم إلى تجرّع الحميم» [٦] .

---

(١) إحكام صنعة الكلام : ١٦٩ .

(٢) الديوان : ٣٣٤ . وانظر القرآن الكريم ، سورة الذاريات ، الآية ٢٣ .

(٣) نفسه : ٦٥ . وانظر القرآن الكريم سورة الحديد الآية ١٣ .

(٤) نفسه : ٩٦ . وانظر القرآن الكريم سورة البقرة الآية ١٤٣ وسورة آل عمران الآية ٣٠ .

(٥) نفسه : ١٩٧ . وانظر القرآن الكريم سورة النساء الآية ٧٦ .

(٦) نفسه : ٢٨٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقوله في الحث على الجهاد «فقد قال النبي -عليه الصلاة والسلام- ، ولقوله الإجلال والإعظام ، فيما صحّ من أخباره المجمع عليها : خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله كلما سمع هَيْعة طار إليها» [١] .

وقوله في الدعوة إلى الوحدة «وقد صحّ عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في الآثار التي لا تجدون لها نقضاً أنه قال : أُمّتي كالبنيان يشدُّ بعضها بعضاً» [٢] .

وفي حديث عن كسوف الشمس قال الخطيب : «ألا وإنّ الشمس والقمر خَلْقٌ لله ، وآيتان من آياته ، لا يُكْسَفان لموت أحد ولا لحياته» [٣] .

ويبدو في أمثلة الخطيب السابقة استخدامه لألفاظٍ ومصطلحاتٍ تتعلق بعلم الحديث كالإجماع والأثروالحديث الصحيح .

كما أفاد الخطيب من شعر السابقين ومن الموروث الديني ، ففي التحذير من المعصية وخطرها يُذكّر بقصة آدم -عليه السلام- إذ أخرجه اللّه من الجنّة بذَنْبٍ واحد فيقول : «فَيامَنْ أُخرِج أبوه من الجنة بذنب واحد بعد أن كان لها مالكاً ، كيف تطمع في دخولها بذنوب كالجبال لست لها تاركاً ؟» [٤] وهذا مأخوذ من قول الشاعر محمود الورّاق :

يا ناظـراً يرنـو بعينـي ناقـدٍ ... ومشاهِد للأمر غير مشاهِـد
تَصِلُ الذنوب إلى الذنوب وترتجي ... درك الجنان بها وفوز العابد
ونسيت أنّ اللـه أخـرج آدمـاً ... منها إلى الدنيا بذنب واحد [٥]

وفي الحثّ على العمل قبل فوات الأوان ، والندم على ما فات يقول الخطيب «فالله الله -عباد الله- أن تمحقوا أوقات شهركم بالتسويف ، أو تركنوا من

---

(١) الديوان : ٢٠٦ .

(٢) نفسه : ١١٣ ، ١١٤ .

(٣) نفسه : ٢٧٣ .

(٤) نفسه : ٣٠ .

(٥) انظر العقد الفريد : ١٧٩/٣ . الكامل في الأدب : ٢٣٥/١ . عيون الأخبار ، المجلد الأول : ٤٠٣/٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أعمالكم إلى البخس والتطفيف ، فتردوا المعاد بغير زاد ، وتندموا على قلة الزرع عند معاينة الحصاد ...» [١] وهو تأثر بقول الشاعر خالد بن معدان :

إذا أنت لم تزرع وأبْصَرت حاصداً ندمت على التفريط في زمن البذر [٢]

وفي التخويف من داهية الموت ، يحثّ على العمل بقوله : فبادروا -عباد الله- والسبيل لكم هدف الإمكان ، قبل ضيق الأوطان ، وتقلّص اللسان ، واصفرار البنان ، لنزول الحدثان ..» [٣] وهو مأخوذ من قول الشاعر لبيد بن ربيعة :

وكلُّ أناسٍ سوف تدخل بينهم دويهية تصفرّ منها الأنامل [٤]

ويعمد الخطيب إلى الإفادة من خطب السابقين ومواعظهم لا سيما أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب -رضي الله عنه- في الحث على الجهاد ، وذمّ الدنيا وغير ذلك ، ففي خطبة يحثّ فيها على الجهاد قال الخطيب : «فانفروا -رحمكم الله- جميعاً وثبات ، وشنّوا على أعدائكم الغارات ، وتمسّكوا بعصم الأقدام ومعاقل الثبات ، وأخلِصوا في جهاد عدوكم حقائق النيّات ، فإنه والله ما غُزي قوم في عقر دارهم إلا ذلّوا ، ولا قعدوا عن صوْن ذِمارهم إلا اضمحلّوا» [٥] ، وهو من قول أمير المؤمنين في خطبة جهادية : «ألا وإنّي قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً ، وسرّاً وإعلاناً ، وقلت لكم : اغزوهم قبل أن يغزوكم ، فوالله ما غُزي قوم في عُقْر دارهم إلا ذلّوا ، فتواكلتم وتخاذلتم حتى شُنّت عليكم الغارات ، ومُلكت عليكم الأوطان»[٦].

وقد انتقد ابن أبي الحديد الخطيبَ ابن نباتة في ألفاظ خُطْبته ومعانيها عندما وازنها بخطبة أمير المؤمنين ، وعلّق على ذلك مقارناً بينهما بقوله «لكنّ مَثَله بالقياس إلى كلام أمير المؤمنين -عليه السلام- كدار مبنيّة من اللبن والطين ، معوّمة الجدران بالنقوش والتصاوير ، مزخرفة بالذهب من فوق الجِصّ

(١) الديوان : ١٦٢ .

(٢) عيون الأخبار ، المجلد الأول : ٢٩٨/٢ .

(٣) الديوان : ٣٥٥ .

(٤) ديوان لبيد بن ربيعة : ٥٣

(٥) الديوان : ١٨٣ .

(٦) شرح نهج البلاغة : ٧٤/٢ ، ٧٥ . وانظر الكامل في الأدب : ٣٠/١-٣٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والإسفيداج، بالقياس إلى دار مبنية بالصخر الأصمّ الصّلد المسبوك بينه عُمُد الرصاص والنحاس المذاب ، وهي مكشوفة غير مموهة ولا مزخرفة ، فإنّ بين هاتين الدارين بوْناً بعيداً ، وفرقاً عظيماً ...» [١] .

وفي حتمية الموت واقترابه من كل الأعمار ، الذي قال فيه الخطيب : «فيا معشر الشيوخ ، هل بعد ابيضاض الزرع إلا حصاده ؟ ويا معشر الكهول ، ما نصَفَ من الثمار فقد آن جداده ، ويا معشر الشباب ، كم من زرع أباده قبل البلوغ قُمْلُه وجرادُه !» [٢] ، نلمح أخذه من قول الحسن بن علي -رضي الله عنه- في موعظة له: يا معشر الشيوخ ، الزّرع إذا بلغ ما يُصنع به ؟ قالوا : يُحصد ، قال : يا معشر الشباب : كم من زرع لم يبلغ أدركَتْه آفة» [٣] .

ومما أفاد منه الخطيب في أسلوبه الاستعانة بأمثال العرب وحِكمها ، فمن قوله في وقائع المنون : رغا في وسط ديارهم سقب العطب ، وأعدى فيهم الهلاك إعداء الجرب» [٤] ، وهو من قولهم : أعدى من الجرب [٥] .

وفي حثّه على العمل قال الخطيب «وبادروا والقول يُسْمع ، والمعذرة تنفع ... قبل أن يغلق الرّهن بما فيه ...» [٦] ، وهو من قولهم : غَلقَ الرهن بما فيه [٧] .

وفي وصفه لتقلّب الزمان قال الخطيب «عثروا فقال لهم الدهر : لا لَعًا ، وسُقوا كأس الحِمام فبادروا معاً» [٧] ، وهو من قولهم «لا لعاً لفلان» [٨] .

---

(١) شرح نهج البلاغة : ٨٤/٢ .

(٢) نفسه : ٣٨١ .

(٣) عيون الأخبار ، المجلد الأول : ٣٤٨/٢ .

(٣) الديوان : ٦٠ .

(٤) مجمع الأمثال : ٤٥/٢ .

(٥) الديوان : ١٢ . وانظر: ٢٤٣ .

(٦) مجمع الأمثال : ٦١/٢ .

(٧) الديوان : ٥٠ .

(٨) مجمع الأمثال : ٢٥٢/٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي حثّه على قيام الليل والطاعة قال الخطيب «واقطعوا مهالكها بقيام دياجرها ، فإنّه من اتخذ الليل جملاً قطع عليه مفاوز الهلكات» [١] ، وهو من قولهم: اتخذ الليل جملاً [٢] .

وفي تأكيده حتمية الموت ووقوع المقدور قوله : ولا مدفع للمقدور [٣] ، وقوله: كلا ، لا جُنّة من القدر ، ولا بدّ من وقوع الحذر [٤] ، وهو من قولهم : لا ينفع حذَرٌ من قَدر [٥] .

مما تقدم نلحظ تنويع الخطيب في الأساليب التي استخدمها ، واعتماده على مصادر متعددة يستوحي منها معلوماته وأفكاره ، ويتأثر بها في ألفاظه وأساليبه، مثل كتاب الله تعالى ، والسنّة النبوية ، وخطب المتقدّمين ومواعظهم ، وأمثال العرب ، وغير ذلك .

وكان من شأن انتقاء الخطيب لألفاظه ، وتنويعه في الأساليب التي استعملها، غاية يسعى إليها وهي إقناع من يستمع إليه ، والتأثير فيه .

---

(١) الديوان : ٥٦ .

(٢) مجمع الأمثال : ١/١٣٥ .

(٣) الديوان : ٢٤١ .

(٤) نفسه : ٣٤٠ .

(٥) مجمع الأمثال : ٢/٢٣٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفنون البديعية :

اتسم أسلوب ابن نباتة باستخدام الصنعة اللفظية ، وليس هذا غريباً في عصره ، فقد كانت الصنعة شائعة في القرن الرابع الهجري ، وتجلّى ذلك في مؤلفات كبار أدبائه كابن العميد ، والصّابي ، والصاحب بن عبّاد ، وبديع الزمان الهمذاني ، قابوس بن وشمكير ، وغيرهم .

ومن الوجهة الفنية يُعدّ ابن نباتة من أعرف الناس بصياغة الكلام ، وهو يراعي فنون البديع مراعاة تامة ، ومن أهم مظاهر استخدامه للفنون البديعية التزامه السجع في جميع أجزاء خطبه ، وربما كان السجع أقرب فنون البديع من لغة الخطباء ، فهو أسرع تأثيراً في المستمعين الذين لا يفطنون إلا إلى الظواهر البرّاقة من حِلْية البلاغة والبيان [١] .

لقد حلّى ابن نباتة خطبه بالسجع ، فنوّع في السجعات ، ورواح بينها في الخطبة الواحدة ، فجاءت بين سجعتين (فقرتين) وثلاث وأربع وغير ذلك ، وربما طالت السجعات إلى الحدّ الذي نجد فيه أنّ الخطبة من أولها إلى آخرها مسجوعة على حرف واحد .

ومن الأمثلة على استخدامه السجع في فقرتين قوله في خطبة يذكر فيها الجهاد والحث عليه : «فإنه - والله - ما غُزي قوم في عُقر دارهم إلا ذلّوا ، ولا قعدوا عن صوْن ذِمارهم إلا اضمحلّوا ، واعلموا أنه لا يصلح الجهاد بغير اجتهاد ، كما لا يصلح السفر بغير زاد ، فقدّموا مجاهدة القلوب ، قبل مشاهدة الحروب ، ومغالبة الأهواء ، قبل مقارعة الأعداء ، وبادروا بإصلاح السرائر ، فإنها من أنفس العُدد والذخائر ..» [٢] . ومن استعماله السجع في ثلاث فقر ، وهو مما التزمه غالباً في خواتيم خطبه عند وصف كتاب الله تعالى ، قوله في الخطبة نفسها : «إنّ أحسن القصص والكلام ، وأبلغ النثر النظام ، كلام ذي الجلال والإكرام» [٣] ، وفي غير

---

(١) انظر النثر الفني في القرن الرابع الهجري : ١٩٥/٢ .

(٢) الديوان : ١٨٣ .

(٣) نفسه : ١٨٤ . وانظر : ١٠ ، ١٣ ، ١٦ ، ٣١ ، ٣٩ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٥٢ ...الخ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خواتيم الخطب قلّما نجد سجعاً للخطيب مؤلّفاً من ثلاث فقرات مثل قوله : «فأوجبوا -رحمكم الله- صفقة البيع الرابح ، بالثمن الجزيل الراجح ، من الملك المساوم المسامح» [١] .

ومن استعماله السجع في أربع فقرات قوله في الخطبة نفسها : «ألا وإنّ الجهاد كنز وفّر الله منه أقسامكم ، وحِرزٌ طهّر الله به أجسامكم ، وعِزّ أظهر الله به إسلامكم ، فإن تنصروا الله ينصركم ويُثبّت أقدامكم ، فانفروا -رحمكم الله- جميعاً وثبات ، وشنّوا على أعدائكم الغارات ، وتمسّكوا بِعصم الإقدام ومعاقل الثبات ، وأخلصوا في جهاد عدوكم حقائق النيات» [٢] .

وأما الخطب المسجوعة من أولها إلى آخرها على حرف واحد في الديوان ، فعددها ست خطب ، منها ثلاث في النكاح [٣] ، ورابعة يذكر فيها تصرّف الزمان والمعاد [٤] ، وأخرى هي الخطبة الأولى من خطب الجهاديات [٥] ، وأخيرة يذكر فيها احتباس المطر [٦] . وعلى الرغم من الإطالة في السجع عند ابن نباتة في مثل خطبه المسجوعة على حرف واحد وغيرها ، فإننا نجد سجْعَه سهلاً ميسوراً ، غير متكلّف ، أو مقصوداً لذاته ، وقد أحضره صدق معناه وصحته وقوته ، وكان سجع الخطيب متخيّر الألفاظ من غير تكرار ، حُلو التاليف ، عفوياً في غالبه من غير استكراه .

وكان سجع ابن نباتة حسناً مقبولاً ، وهو من السجع القصير الذي تكون كل واحدة من السجعتين فيه مؤلّفة من ألفاظ قليلة ، إذ كلما قلّت الألفاظ كان أحسن لقرب الفواصل المسجوعة من سمع السامع ، ولهذا عُدّ هذا الضرب أوعر أنواع السجع مذهباً ، وأبعدها متناولاً ، إذ لا يكاد يقع استعماله إلا نادراً [٧] . وأحسن

---

(١) الديوان : ١٨٤ . وانظر ص٨ .

(٢) نفسه : ١٨٣ .

(٣) انظر نفسه : ٤٢٨-٤٣٤ .

(٤) نفسه : ١٠٤-١٠٨ .

(٥) نفسه : ١٧٧-١٨١ .

(٦) نفسه : ٢٥٦-٢٥٨ .

(٧) انظر المثل السائر : ٣٧٢/١ ، ٣٧٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أنواع السجع القصير ما كان مؤلفاً من لفظتين لفظتين ، ثم ما كان مؤلفاً من ثلاث، أو أربع ، أو خمس ، وكذلك إلى العشر ، لأنّ ما زاد عن ذلك يدخل في السجع الطويل [١] .

وقد ورد السجع القصير المؤلف من لفظتين لفظتين كثيراً عند الخطيب ، ومنه قوله في مقدمة إحدى خطبه : «الحمد له العليّ عرشه ، القويّ بطشه ، الوفيّ وعده ، السنيّ رِفده ، الوحيّ أمره ، المقضيّ شكره» [٢] .

ومنه في عرض الخطبة في مدح سيف الدولة : «ذي الوجه الأزهر ، والنسب الأطهر ، واللقب الأشهر ، والمحلّ الأكبر ، والحسام المِقْضب ، والهمام المِحرب ، والغمام المسبل ، والضرغام المشبل ... ذي الراية المنصورة ، والنعمة المشكورة ، والأبوّة المشهورة ، والمواقف المذكورة ... به آمن الله البلاد ، وأحيا العباد ، وأصلح الفساد ، وأنجز الميعاد ، وسكّن النفوس ، وأزال النحوس ، وكشف البوس ، وأماط العبوس ، وأعزّ الدين ،وقمع المارقين ، ورفع المجاهدين ، وعضد المؤمنين» [٣].

ومنه في الربط بين الحياة والمعاد قوله : «وإنما هي معاذير مقدّمة ، ومقادير مبهمة ، وفرص مغتنمة ، وغُصص مقتحمة ، وآجال منفصمة ، ونفوس مستسلمة، ونحوس مخترِمة ، وقبور مظلمة ، وأمور مستعجِمة ، ومسائل منتظمة ، ودلائل مترجمة» [٤] .

ولعل من أطول السجع عند ابن نباتة ما ورد من قوله في خطبة يذكر فيها الموت وفيها : «تجهّزوا فقد ضُرب فيكم بوق الرحيل ، وبرّزوا فقد قُرّبت لكم نوق التحويل ... فقد سمعتم ما كرر الله عليكم من قصص أبناء القرى ، وما وعظكم به من مصارع من سلف من الورى ، مما لا يعترض ذوي البصائر فيه شك ولا مِرَى، وأنتم معرضون عنه إعراضكم عما يُختلق ويُفترى ، كأنّ ما تُعاينون منه أضغاث

(١) المثل السائر : ١/٣٧٣ ، ٣٧٤ .

(٢) الديوان : ١٨٢ . وانظر : ٢٢ ، ٢٥ ، ٦٥ ، ١١١ ، ١١٥ ، ١١٨ ، ١٥٩ ، ١٦٥ ، ١٧٧ ، ٢٠٣ ، ٢٤٥ ، ٣٤٤ ، ٣٥٦ ، ٣٧٧، ٣٩٣ .

(٣) نفسه : ٢٨٤ ، ٢٨٥ .

(٤) نفسه : ١٤٧ . وانظر : ١٥ ، ٨١ ، ٢٦٣ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٥٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أحلام الكرى ، وأيدي المنايا قد فصمت من أعماركم وثاق العُرى ، وهجمت بكم على هول مطلعٍ كريه القِرى ، فالقهقرى -رحمكم الله- عن حبائل العطب القهقرى ، واقطعوا مفاوز الهلكات بمواصلة السُّرى ..» [1] .

وأشار ابن الأثير إلى أنه عندما تصفّح الخطب النباتية قد وجد أكثر سجعها على الأسلوب الذي يُنكره ، وذلك أنه اشترط في الكلام المسجوع اختيار مفردات الألفاظ ، والتراكيب ، ومجيء الألفاظ تبعاً للمعنى ، ودلالة كل واحدة من الفقرتين المسجوعتين على معنى غير الذي تدلّ عليه أختها [2] .

وكان مما أنكره على سجع ابن نباتة اختيار لفظة اشمخرّ في خطبة وصف فيها النار ، وقد ردّ عليه الصفديّ إنكاره منتصراً للخطيب [3] .

وأما اعتراضه على تراكيب الخطيب فلم يُعط عليه أمثلة ، مع أن تراكيب الخطيب جاءت سهلة واضحة سليمة منسجمة ، متخيّرة الألفاظ ، حُلوة التأليف ، كذلك القول في مجيء الألفاظ تبعاً للمعنى إذ كان سجع الخطيب غير متكلّف ، وإنما أحضره صحة المعنى وصدقه .

وأما الشرط الرابع الذي انفرد بزيادته ابن الأثير فليس مسلماً به على الإطلاق ، وقد ذكر أبو هلال العسكري في رسالة التفضيل بين بلاغة العرب والعجم أنّ للبلاغة ثلاثة مذاهب تُقصد في استعمالها ، ومنها إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد بعينه ، حتى يظهر لمن لم يفهمه ، ويتوكّد عند من فهمه [4] ، وهذا مما يتناسب مع مقام الخطيب إذ غرضه هو التأكيد على المعاني والأفكار التي يطرحها ، لأنه يخاطب عامة الناس .

ومما تميّز به سجع الخطب عند ابن نباتة أنه جاء كلّه مُعرَباً ، ولذلك فضّل الصفديّ سجع ابن نباتة في خطبه على سجع الحريري في مقاماته ، لأنّ الحريري

---

(١) الديوان : ٦٣-٦٤ .

(٢) انظر المثل السائر : ٣١٥/١ ، ٣١٦ .

(٣) انظر نصرة الثائر على المثل السائر : ١٣٨ . وانظر : المثل السائر : ٢٧٣/١ .

(٤) انظر مقدمة شرح الجزائري للديوان : ١٣ ، ١٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لم يكن دائم الالتزام بالإعراب في سجعه اتكالاً على الوقوف على الساكن [١] ، ومثال ذلك قوله في إحدى مقاماته : «فاستحضَر قلماً مبرياً ، وزبداً بحرياً ، وزعفراناً قد دِيْفَ ، في ماء ورد نظيفٍ ، فما إنْ رجعَ النَفَسُ ، حتى أحضرِ ما التمسَ» [٢] ، وقوله في أخرى : «أحسنت يا نُغيْشُ ، يا صناجة الجيشِ ، ثم قال : ثِبْ يا عَنْبَسةُ ، وبيِّن الصادات الملتبسةَ» [٣] .

وكان الكلاعي قد ذكر في حديثه عن السجع ما يترتّب على اتفاق الإعراب مع السجع من أثر عظيم ، مشيراً إلى أنّ أبا العلاء المعرّي لم يكن ملتزماً للإعراب في سجعه [٤] .

لقد تملك الخطيب وهو الإمام في علوم الأدب زمام السجع فتصرّف فيه كيفما شاء ، دون أن يؤثر ذلك على قوة المعاني والأفكار التي يطرحها مما زاد في تأثيره على عقول مستمعيه وجعلهم أكثر اقتناعاً ، ومن ناحية أخرى فإن الإيقاع الذي يتركه السجع كان له دور فاعل في تأجيج قلوب الناس وهزّ مشاعرهم .

وكان ابن نباتة حريصاً على التفوق في الصناعة اللفظية ، ولذلك ولع بالجمع بين السجع والموازنة - الترصيع- في خطبه على صعوبة ذلك المسلك ، وذلك بجعل كل لفظة من ألفاظ الفصل الأول مساوية ومقابلة لكل لفظة من ألفاظ الفصل الثاني في الوزن والقافية [٥] .

وقد عَدَّ الصفديُّ الخطيبَ أقدر الناس على الترصيع [٦] ، فيما ذكر ابن الأثير أمثلة عليه ، مشيراً إلى كثرة وروده في ديوانه [٧] .

---

(١) انظر الوافي بالوفيات : ٣٨٨/١٨ .

(٢) مقامات الحريري : ٤١٥ ، ٤١٦ .

(٣) نفسه : ٥٠٣ .

(٤) إحكام صنعة الكلام : ٢٤٤ .

(٥) انظر المثل السائر : ٣٩٨/١ .

(٦) انظر الوافي بالوفيات : ٣٨٨/١٨ .

(٧) انظر المثل السائر : ٣٩٩/١ ، ٤٠٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الأمثلة على الترصيع في خطب ابن نباتة -وهي كثيرة- قوله في مقدمة إحدى خطبه منها : «الحمد لله المجير الذي لا يذلّ من لاذ بعزّه ، النصير الذي لا يقلّ من عاذ بحِرْزه» [١] ، وفيها نلحظ المقابلة بين «المجير» و«النصير» وبين «لاذ» و«عاذ» ، وبين «عِزّه» و«حِرْزه» ، وقوله في مقدمة أخرى : «الحمد لله عاقد أزِمّة الأمور بعزائم أمره ، وحاصدِ أئمة الغرور بقواصم مَكْره» [٢] ، وفيها قابل بين «عاقد» و«حاصد» ، وبين «أزِمّة» و«أئمّة» ، وبين «عزائم» و«قواصم» ، وبين «أمْره» و«مكْره» .

ومنه قوله في خطبة جهادية يصف فيها المعركة : «عند هيقعة الصوارم ، وشغشغة اللهازم ، وهينمة الغماغم ، وزمزمة الهماهم [٣] ، وفيها قابل بين «هيقعة» و«هينمة» و«شغشغة» و«زمزمة» ، وبين «الصوارم» و«اللهازم» و«الغماغم» و«الهماهم» .

وقد يأتي الفصل الأول مساوياً للفصل الثاني في القافية دون الوزن ، وذلك في مثل قوله : «والله ما أُشْخِصوا لتقرُّوا ، ولا نُغْصو لتُسَرُّوا ، ولا بد أن تمرّوا حيث مرُّوا ، فلا تثقوا بخُدع الدنيا ولا تغترّوا» [٤] ، وقوله : «فبأيّ وجوه على الله غداً تُقدِمون ؟ وبأيّ معاذير عنده تعتذرون ؟ وأنتم عن سبيله ناكبون ، ومن عدوّه وعدوكم هاربون ، وعمّا رغّبكم فيه من الجهاد راغبون ، وإلى ما نهاكم عنه موجفون ، وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون» [٥] .

ومن الفنون البديعية التي نجدها عند الخطيب التجنيس ، وله شعب كثيرة، فمنه التام -المستوفي ، الحقيقي- ، وهو الذي يأتي فيه المتكلم بكلمتين متفقتين لفظاً مختلفتين معنى ، ولا تفاوت في تركيبهما أو اختلاف في حروفهما [٦] ، وهذا

(١) الديوان : ٦ .

(٢) نفسه : ٥٢ .

(٣) نفسه : ١٩٣ ، ١٩٤ .

(٤) نفسه : ٩٣ .

(٥) نفسه : ١٨٦ .

(٦) انظر المثل السائر : ١/٣٨٠ . حسن التوسل إلى صناعة الترسّل : ١٨٢ ، ١٨٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النوع لم يرد في خطب ابن نباتة ، ولم يتفق للخطيب في فقرة أو فقرتين متتاليتين أن جاء بلفظتين تشتركان في التركيب والوزن إلا نادراً كما في الجملة التي وصف فيها حجاج بيت الله الحرام المهزولين من طول السفر على جمالهم المهزولة من طول المسير بقوله : «أنضاء على الأنضاء» [١] . وعند قوله في فضل يوم النحر «وجعله عيداً حراماً في يوم حرام من شهر حرام ، متقدّم لشهر حرام ، مقتف لشهر حرام» [٢] . وقوله في وصف المعركة «وارتكاب طبق عن طبق ....، والانصراف من الحتوف إلى الحتوف» [٣] . وهذه الأقوال ليست من التجنيس في شيء ، إذ حدُّ التجنيس هوا تفاق اللفظ واختلاف المعنى ، فيما المعنى هنا واحد وكذلك اللفظ [٤] .

وأما التجنيس الناقص * فله أقسام كثيرة ، وقد وردت أمثلة عليها في كلام الخطيب ، ومنها : التجنيس الذي تكون حروف اللفظتين فيه متساويةً في تركيبهما ، ومختلفة في أوزانهما ، وهو نادر في كلام الخطيب ، ولم أجد له فيه إلا مثليْن راعى أن يفصل فيهما بين اللفظتين بفاصل قد يمتدّ إلى فقرتين ، وأولهما قوله في وصف رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : «أرْسَلَهُ من أبعد البريّة هِمماً، وأحمدِها أمَمَا ، وأعصمها ذمماً ، وأكرمها لمما ، وأعْدلِها أمَمَا» [٥] ، والآخر في التخويف من الموت وفيه : «قبل أن يكون الناظر منظوراً ....، والخَبْرةُ عَبْرةً ، والنظرة حسرةً ، والمعتبر عِبْرةً » [٦] .

---

(١) الديوان : ١٧٢ .

(٢) نفسه : ٤٠٩ .

(٣) نفسه : ٢٣٦ .

(٤) انظر المثل السائر : ٣٧٩/١ ، ٣٨٥ .

* انظر حسن التوسل إلى صناعة الترسّل : ١٨٦ . وقد أفرد له ابن الأثير فصلاً سمّاه «ما يُشبّه بالتجنيس» . انظر المثل السائر : ٣٨٦/١-٣٩٧ .

(٥) الديوان : ١١٩ .

(٦) نفسه : ٣٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومنه التجنيس الذي تكون الألفاظ فيه متساوية في الوزن مختلفة في التركيب بحرف واحد ، وهو قليل في خطب ابن نباتة ، ومنه قوله في وصف القيامة : «وتكثر الجوائح ، وتُرعد الجوانح ، وتشهد الجوارح» [١] ، وقوله : «واستعار العناد في أفكار العباد ، فأبْرَم من الإيمان سَحِيلَه ، وأوضح من البرهان سبيلَه» [٢] ، وقوله: «ويلحقُ الغَوامرَ من ديارهم العَوامرَ» [٣] ، وقوله : «إنّ الموت لكم مناجز ، ليس بينه وبينكم حاجز ، وكلٌّ عمّا أُمر به عاجز» [٤] ، وقوله : «فإنّ نِعَم الله لامعة لكم بروقها ...، ما شُكر منها أنْجم ، وكُفِر منها أنْجَم» [٥] ، وقوله : «وأعدلها أُمَماً ، وأجملها جُمماً ...، وأطهرها شِيَماً ، وأغزرها دِيَماً ، إلى أمم للباطل رائغة ، وعن الحق زائغة» [٦] ، وقوله : «أغفلتم جلاء القلوب بمداوس الأفكار حتى جَرِبَت ، وأهملتم الأعمال في تقاعس الأعمار حتى خَرِبَتْ» [٧] .

ومنه تجنيس الاشتقاق ، وهو أن تجيء بألفاظ يجمعها أصل واحد في اللغة[٨]، وقد ورد كثيراً عند الخطيب ، فمنه قوله في وصف ليلة القدر : «ما سأل الله فيها سائل إلا أعطاه ، ولا استجار به مستجير إلا أعزّه وكفاه ، ولا أناب إليه منيب إلا قَبِلَه واجتباه ...، ولا استقاله مستقيل إلا أقاله ، ولا لجأ إليه لاجئ إلا أجاره وأصلح باله» [٩] .

وقوله في وصف الدنيا «تنْهبُ الأعمار نهباً نهباً، وتكْسِبُ الأوزار كسباً كسباً [١٠]، وقوله في وصف المتصوّفة : «رمقوا العواقب بالبصائر البصيرة ...، وجنّبوا الجنوب مهاد

---

(١) الديوان : ٥ .

(٢) نفسه : ١٧٢ .

(٣) نفسه : ٣٨٨ .

(٤) نفسه : ١٣٠ .

(٥) نفسه : ٢٨٣ .

(٦) نفسه : ١١٩ .

(٧) نفسه : ٢٨٦ .

(٨) انظر المثل السائر : ٢٢٩/٣ . حسن التوسل إلى صناعة الترسّل : ١٩٣ .

(٩) الديوان : ١٦١ .

(١٠) نفسه : ٣٦٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفُرُش الوثيرة ، وعقلوا القلوب بعُقُل الصبر المريرية ، وآثروا المحبوب بنفائس الأنفس الأثيرة ... فأقرّهم قرر الأعين القريرة ... وتوّجهم بتيجان الكرامة » [١] .

وجاء استخدام الخطيب لهذا الفن البديعي محبّباً ، خفيف الوقع على الأذن ، غير متكلّف ، وقد حرّك التجنيس عن طريق الإيقاع الموسيقيّ الذي يتركه وراءه قلوب الناس ، فأثار حيويتهم ، وجدّد نشاطهم ، وجعلهم أكثر انتباهاً لكلام الخطيب وتأثراً به .

ومن الفنون البديعية التي عُني الخطيب بإبرازها والإكثار من استخدامها فن المطابقة ، وهي الجمع بين الشيء وضدّه في الكلام [٢] مع مراعاة التقابل حتى لا يُضمّ الاسم إلى الفعل ، ومن ذلك قول الخطيب : « كأنكم والله -بكلّ رطْب يابساً ، وبكل طلْق عابساً ، وبكل آهلٍ دارساً ، وبكل آمل آيساً » [٣] ، وقوله : « وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله إلى البريّة عُذْراً ونُذْراً ، ونزل عليه بأمره ونَهْيه ذِكْراً ، فدعا إلى الله سراً وجَهْراً ، ونشر رحمته على العالمين نشراً ، حتى صار قُلّ الإيمان كُثراً ، وعاد ليلُ البهتان فجْراً ، ودخل الناس في دين الله طوعاً وقسراً » [٤] . وكذلك يقول في وصف الدنيا : « وأحذّركم داراً دوائرها دائرة ... المتعزّز بها ذليل ، والمتكثّر بها قليل ، من وثِق بها خَذَلَتْهُ ، ومن اعتصم بها أسلَمته ، ومن طلبها فاتته ، ومن تجنّبها أتته ، سلامتها منوطة بالسّقم ، وشبابها يعود إلى الهَرَم ، لا تمنح سروراً إلا أعقبته ثبوراً ، ولا تسمح بصفو إلاّ شابَتْه تكديراً » [٥] .

وقد أسهم الطباق في إبراز المعاني التي أرادها الخطيب ، كما زاد في جمالها وزينتها لا سيّما أنّ الطباق فيها جاء خفيفاً سهلاً .

ومن الفنون البديعية التي استخدمها الخطيب فن المقابلة ، وهو إيراد الكلام

---

(١) الديوان : ٩٩ .

(٢) كتاب الصناعتين :٣٣٩ . المثل السائر : ١٧١/٣ . نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز : ٢٨٤ .

(٣) الديوان : ١٠٩ .

(٤) نفسه : ٢٧٣ .

(٥) نفسه : ٣٦٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يُرحم صغيرها ، ولا يُخْمد سعيرها ، لباس أهلها الحديد ، وشرابهم الصديد ، وعذابهم أبداً جديد ، والفرج منهم بعيد ، قد شملهم الإياس ، وحلّ بهم الإبلاس ، لا يُرحمون إن بَكَوْا ، ولا يُنظرون إنْ شكَوْا ، قد أعرض الله بوجه الكريم عنهم غضباً ، واشتدّت النار عليهم كلباً ، وطحنتهم بتغيُّظها عليهم زفيراً ولهباً ، فالويل لهم شعار ، والخزيُ لهم دار ، والخذلان لهم مُرابط ، والرحمن عليهم ساخط ، لا ملجأ لهم منها إلا إليها ، فبُعْداً لهم ما أصبرهم عليها » [١] .

وبالمقابل يُصوّر الجنة صورة أخرى يستمدّها من كلام الله تعالى وحديث رسوله فقد اتسعت أقطارها ، وأينعت ثمارها ، واطّردت أنهارها ، وتميّدت أشجارها ، وغرّدت أطيارها ، ونهدت أبكارها ، وعُلّيت مجالسها ، وحُلّيت عرائسها ، واختالت وصائفها ، وتوالت لطائفها ، وأشرقت قبابها ، وأدهقت أكوابها ، وحَسُنت بدائعها ، وأمنت فجائعها [٢] ، وهذا التصوير يُبرز الأثر الديني الذي اتخذه الخطيب مصدراً رئيسياً يستمدّ منه صوره المختلفة .

ويستمدّ الخطيب بعض صوره من الموروث الشعري والنثري في الحديث عن الدنيا بقوله : « فإنكم في دار حُلوها مُمِرّ ، وصفْوها كدِر ، وأحلامها تَغُرّ ، وأيامها تمُرّ ، وآفاتها تكُرّ ، وعواقبها لا تسُرّ ، حتوفها عتيدة ، وصروفها مُبيدة ، وعِداتها مُخْلِفة ، وحياتها مُتْلِفة » [٣] ، ويستغل الخطيب فنون البديع من سجع قصير ، ومقابلة مع أساليب البيان في تشخيص الدنيا وتصويرها بصورة يشعر فيها السامع حركة وحيوية .

ويلاحظ في خطب ابن نباتة تكرار صوره ، فالموضوعات نفسها بما تتضمنه من معان وأفكار نجدها مطروقة لديه هنا وهناك ، ومن ذلك تصويره الدنيا ، إذ يظهر التكرار في قوله : « إنّ الدنيا متاع ، مُقامكم فيها اطلاع ، ووصلها لكم انقطاع ، وارتفاعها بكم اتّضاع ، تُحلي مذاقة ما تُمرُّ ختامه ، وتُصْبي بالرُضاع من تُسرُّ

---

(١) الديوان : ٣٨٥ . وانظر : ٣٤٥ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ .

(٢) انظر نفسه : ٣٤٨ .

(٣) نفسه : ٣٤٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأجل» [١] . وقوله : «فإنه والله ما بعد الدنيا مِنْ دار ، إلا جنّة أو نار» [٢] .

وحُسن التعليل ** من الفنون التي استخدمها ابن نباتة، إذ يطلب من المستمعين مثلاً العمل والإسراع في التوبة موضحاً السبب الذي يدعوه إلى ذلك ، ومنه قوله في التحذير من الدنيا : «واحذروا الدنيا فإنها دار ظعن لا شك فيها ، وقرار حزن لمصطفيها ...» [٣] ، وقوله : «شدّوا الرحال فقد قرُب الارتحال ، وأعدّوا المقال فقد وجب السؤال ، وشيّدوا الأعمال فقد خربت الآجال ، ومهّدوا المآل فقد كذبت الآمال» [٤] .

وقد عمد الخطيب إلى هذا الفن زيادة في إيضاح المعاني التي يدعو إليها حتى تتبيّن دلالاتها وحقائقها في ذهن السامع ، فيستجيب لها .

نخلص إلى القول بأنّ ابن نباتة قد تأثر بمقاييس عصره الأدبية ، إذ حرص على استخدام الصنعة اللفظية ، واستعمال الفنون البديعية المختلفة مثل السجع ، والترصيع ، والجناس ، والطباق ، والمقابلة ، والتقسيم ، وحسن التعليل ، وكان في ذلك متفنّناً حريصاً على انتقاء ألفاظه ، وسلامة تراكيبه ، ولذلك وصفه ابن فضل الله العمري بقوله : «كان واسع المعرفة باللغة ، أيّ قالب شاء أبرز المعاني وأفرغه ، ذلّل رقاب البلاغة واقتادها ، وسهّل صعب البلاغة واعتادها ، وولع بالترصيع ، وذهّب خطبه بما لا يقدر عليه صاحب بديع ..» [٥] .

ولم يكن الخطيب مغرِقاً في الصنعة مسرِفاً في استخدام الفنون البديعية على أنها غاية في ذاتها ، وإنما جاءت عنده غير متكلفة ، واتخذها وسيلة لتجميل خطبه ، وإيضاح معانيه حتى تكون أكثر وقعاً وتأثيراً في نفوس المستمعين .

---

(١) المثل السائر : ١٩٠ .

(٢) نفسه : ٢٠١ .

** انظر حسن التوسّل إلى صناعة الترسّل : ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

(٣) نفسه : ٤٤ .

(٤) نفسه : ٣٣ .

(٥) مسالك الأبصار : ٢٦٥/١٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصورة الأدبية :

إنّ تقييم قوة الكلام وحُسنه وتأثيره في السامعين يُنظر فيه إلى توفر عنصرين أساسيين ؛ أولهما : اكتمال صياغته بمراعاة مواقع الألفاظ مع فصاحتها ، وانسجام التراكيب مع صحتها ، والثاني : وجود الخيال والتصوير فيه [١] .

لقد أكثر ابن نباتة من استخدام الخيال ، وعلى هذا الفن اعتمدت الصورة الأدبية التي نسجها في خُطبه ، والخيال إذا ورد في الخطب المجوّدة المزخرفة بالصنعة وقع من نفس المستمعين موقع السحر ، لأنّ روّاد المساجد يُقبلون عليها غالباً بنفوس صافية سريعة التأثر والقبول [٢] .

وتعدّ الصورة الأدبية وسيلة الأديب في نقل تجربته الأدبية ، إذ يُجسّد إحساساته ويُشخّص مشاعره في التعبير عن المعاني والأفكار التي يطرحها عن طريق الإيحاء بالصور ، لا في التصريح المجرّد أو المبالغة في الوصف [٣] .

وللصور عناصر أساسية تقوم عليها مثل الاستعارة والكناية والتشبيه والمجاز ، ويقوم خيال الأديب بالتقاط صوره بحذق ، ثم ترتيبها وإقامة علاقات تربط بينها على تباعدها ، ليؤلّف منها نسيجاً واحداً يبعث في كلامه الجمال والتأثير .

ولذلك حرص ابن نباتة على توفير عناصر القوة والجمال في خطبه ، مراعياً الصياغة والتصوير فيها ليتمكّن من توضيح معانيه ، ونقل تجربته الأدبية ، وذلك لتحقيق الغاية المنشودة من خطبه وهي التأثير في المستمعين .

وقد عُنِيَ ابن نباتة بالصور الفنية في خطبه ، وتعدّدت مصادرها ، متكئاً على ألوان البيان المعروفة من تشبيه واستعارة وكناية وغيرها ، وكان مقلّداً في غالبها ، وذلك لسعة الموروث مما قيل في موضوعاته نثراً ونظماً .

---

(١) انظر بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية : ٣١١ .

(٢) انظر النثر الفني في القرن الرابع الهجري : ١٩٧ .

(٣) انظر بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية : ٣١١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد تعدّدت مصادر الصورة في خطب ابن نباتة ، فتارة يستمدّها من الحرب كما في قوله : «عند اغبرار الأفق ، واحمرار الحَدَق ، وانهمار العَرَق ، وارتكاب طبقٍ عن طبقٍ ، وازدلاف الزّحوف ، والتفاف الصفوف ، واختلاف السيوف ، والانصراف من الحتوف إلى الحتوف ، إذا تداعت الأقران للنزال ، وأبْطل حُكم الصوارم حكم النّبال ، وحَسُن التجاهل باللّمم البِجال ، وحامت عقاب المنايا على الأبطال ، وتساقت الكماة بينها كؤوس الآجال ، وسَلَت النفوس عن الأولاد والأموال» [١] . فقد جاءت الصورة مستمدة من الحروب وأدواتها في تصويره شدّة المعركة ، وغضب المتحاربين ، وتداعي الأقران للنزال ، والتقاء الجيوش ، والاعتماد على السيوف ، واعتمد الخطيب في رسمها على الكناية والاستعارة من أساليب البيان مما زاد صورته جمالاً ، وهي صورة تقليدية معروفة عند السابقين ، واستمدّ بعضها من القرآن الكريم في قوله : وارتكاب طبق عن طبق ، وهي صورة تمور بالحركة والصّخب مما يجعلها متناسقة مع المعركة وجوّها .

وقد يستمد الخطيب معظم صورته من القرآن الكريم في مثل قوله في الحديث عن المعاد : «فكأنّ الآلام قد اعترضت ...، والنفوس زهقت ، والضرائح قد تشقّقت ، والفضائح قد تحقّقت ، والجوارح قد نطقت ، والرّهون قد غلقت ، والواقعة قد وقعت ، والخليقة قد جُمعت ، والسماء قد فُرجت ، والأرض قد بُدّلت ، والجبال قد نُسِفت ، والبحار قد سُجّرت ، والجنّة قد أزلفت ، والجحيم قد أُجّجت ، والحاكم قد نُصِب ميزانُه ، والظالم قد تُبيِّن خُسرانه» [٢] .

وقد رسم الخطيب في كلامه هذا صوراً استمدّها من القرآن الكريم في وصف الساعة والمعاد ، كما استمدّ بعضها من أمثال العرب في قوله : والرّهون قد غلقت.

ويُصوّر الخطيب النار ، وعذاب أهلها ، ومواقفها بصورة يستمدّها من القرآن ، ويعتمد على رسمها بأساليب البيان في تشخيصه لها فيقول : «دار الأحزان والهموم ، داراً لا يُفكُّ أسيرها ، ولا يُجْبر كسيرها ، ولا يُوقّر كبيرها ، ولا

---

(١) الديوان : ٢٣٦ ، ٢٣٧ . وانظر ايضاً : ١٩٣ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢٢٧ .

(٢) نفسه : ٢٤٢ ، ٢٤٣ . وانظر : ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٤٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يُرحم صغيرها ، ولا يُخْمد سعيرها ، لباس أهلها الحديد ، وشرابهم الصديد ، وعذابهم أبداً جديد ، والفرج منهم بعيد ، قد شملهم الإياس ، وحلّ بهم الإبلاس ، لا يُرحمون إن بَكَوْا ، ولا يُنظرون إنْ شكَوْا ، قد أعرض الله بوجه الكريم عنهم غضباً ، واشتدّت النار عليهم كلباً ، وطحنتهم بتغيُّظها عليهم زفيراً ولهباً ، فالويل لهم شعار ، والخزيُ لهم دار ، والخذلان لهم مُرابط ، والرحمن عليهم ساخط ، لا ملجأ لهم منها إلا إليها ، فبُعْداً لهم ما أصبرهم عليها »[1] .

وبالمقابل يُصوّر الجنة صورة أخرى يستمدّها من كلام الله تعالى وحديث رسوله فقد اتسعت أقطارها ، وأينعت ثمارها ، واطّردت أنهارها ، وتميّدت أشجارها ، وغرّدت أطيارها ، ونهدت أبكارها ، وعُلّيت مجالسها، وحُلّيت عرائسها، واختالت وصائفها ، وتوالت لطائفها ، وأشرقت قبابها ، وأدهقت أكوابها ، وحَسُنت بدائعها ، وأمنت فجائعها [2] ، وهذا التصوير يُبرز الأثر الديني الذي اتخذه الخطيب مصدراً رئيسياً يستمدّ منه صوره المختلفة .

ويستمدّ الخطيب بعض صوره من الموروث الشعري والنثري في الحديث عن الدنيا بقوله : «فإنكم في دار حُلوها مُمِرّ ، وصفْوها كدِر ، وأحلامها تَغُرّ ، وأيامها تمُرّ ، وآفاتها تكُرّ ، وعواقبها لا تسُرّ ، حتوفها عتيدة ، وصروفها مُبيدة ، وعِداتها مُخْلِفة ، وحياتها مُتْلِفة» [3] ، ويستغل الخطيب فنون البديع من سجع قصير ، ومقابلة مع أساليب البيان في تشخيص الدنيا وتصويرها بصورة يشعر فيها السامع حركة وحيوية .

ويلاحظ في خطب ابن نباتة تكرار صوره ، فالموضوعات نفسها بما تتضمنه من معان وأفكار نجدها مطروقة لديه هنا وهناك ، ومن ذلك تصويره الدنيا ، إذ يظهر التكرار قوله : «إنّ الدنيا متاع ، مُقامكم فيها اطلاع ، وصلها لكم انقطاع ، وارتفاعها بكم اتّضاع ، تُحلي مذاقة ما تُمرُّ ختامه ، وتُصْبي بالرُضاع من تُسرُّ

---

(١) الديوان : ٣٨٥ . وانظر : ٣٤٥ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ .

(٢) انظر نفسه : ٣٤٨ .

(٣) نفسه : ٣٤٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فِطامه ، وتُظهر مصافاة من تُضمِر حمامه ، وتَخْتِلُ بالصَّغار من تُظهر إكرامه ، ما نال أحدٌ رغد مراعيها ، إلا من بين أنياب أفاعيها ، ولا ثَوَّب بالسرور داعيها إلا أجابه بالثُّبور ناعيها ، قد أوْردت أبناءها شرّ الموارد ، وأرْصدت لهم آفاتها بكلّ المقاصد ، تَحُزُّهم أيامها حزّ المبارد ، وتشوب لهم صفو الحياة بِسُمّ الأساود » [1] .

ويتّبع الخطيب الصور القديمة التي عرفها في تصويره لتغيّر الزمان وفِعْله بالناس وديارهم ، كما في قوله « مَطَرَتْهُم والله من الشّتات سُحبٌ هُمّع ، وحامت عليهم من الآفات طيرٌ وُقّع ، وعَصَفت بهم من الممات ريح زَعْزع ، وابتلعتهم الفلاة البَلْقع ، فهم تحت كلاكل الدهر هُمود خُشّع ، لا يُطيف بهم أمل ولا مَطمع ، قد أصبحوا سِيَراً للسلف ، وعبراً للخلف ، مَحت الحوادثُ مستور نِعمِهم ، وطَوت المنونُ منشور هِمَمهم ، فديارهم موحشة العَرَصات ، وأبْشارهم نَهْبُ وقائع الآفات ، وآثارهم وقْفٌ على الحسرات ، وتَذكارهم يواصل مُسبِل العَبرات » [2] .

كما يصوّر الدهر بصورة تقليدية مستخدماً أساليب البيان في تشخيصه بقوله « إنّ الدهر ذو عَجَب ، يتقلّب بأهله كُلّ منقلب ، عِداتُهُ خُدع ، وهباته لُمَع ، وآفاته دُفَع ، وكرّاته قُرَع ، لا يدع جديداً إلا أخلقه ، ولا عتيداً إلا أنفقه ، ولا مَرِيداً إلا وهّقه ، ولا عديداً إلا فرّقه ، أدار رحى المنون على من سَلَف ، وسيورد مواردهم من خلف ، حتى يُلحق بعضاً ببعض ، وإبراماً بنقض ، ورفعاً بخفض ، ويُخلي منهم جديد الأرض » [3] .

وكذلك تتعدّد المصادر التي ينْهل منها الخطيب في حديثه عن الموت لكثرة ما قيل فيه ، وتتكرّر الصور التي يرسمها له ، ومن إحدى الصور التي شخّص فيها الخطيب الموت وذكر أفعاله وحتميّته قوله : « أما ترون صوارم الموت بينكم لامعة ، وقوارعه بكم واقعة ، وطلائعه عليكم طالعة ، وفجائعه لِعُذركم قاطعة ، وسهامه فيكم نافذة ، وأحكامه بنواصيكم آخذة ؟... إنّ الموت لبالرّصد ، لا يُبقي منكم على

---

(١) الديوان : ٩١ . وانظر : ٢٦ ، ٤٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٣٦٧ .

(٢) نفسه : ٢٧ ، ٢٨ .

(٣) نفسه : ٢٧٦ ، ٢٧٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أحد ، فكأن قد دارت عليكم دوائره ، ودهمتكم عساكره ، وكُشِفت لكم سرائره ، ونزل بكلّ امرئ منكم ما يُحاذره ، فسدّ منكم مجاري الأنفاس ، وأسكنكم ظُلَم الأرماس» [١] .

وقوله يُصوّر فعل الموت بالناس : وكأن قد أسمعها الموتُ صريف أنيابه ، وجرّعها ذعاف شرابه ، فأيْتَم ولدانها ، وأيّم نسوانها ، وأوْحَش أوطانها ، وأهدى إلى المقابر أبدانها ، فهَشَم ثغورها ، ومعّط شعورها ، وبشّع نضيرها ، وأسرع تغييرها ، وأصارها إلى حال العدم ، كما أصار قبلها سالف الأمم» [٢] ، وقوله في لزوم الموت : «إن الموت باب لا بدّ من دخوله ، وضيف لا ريب في نزوله ، وهاجم لا مدفع لحلوله ، وصارم لا مطمع في كلوله» [٣] .

ويحشد الخطيب في تصويره الموت ضروباً من علم البيان ، يسوقها ليعرضها في خُطبِه بطريقة مكثفة متتالية حتى تكون أكثر تأثيراً في نفوس المستمعين .

ويُصوّر الخطيب القبرَ بصورة مألوفة ، متأثرة بالتوجّه الديني في خطبه ، وهي تعبق بالتشابيه وضروب البيان كما في قوله : «مُسْتودعاً بطْن بلْقع قاعٍ ، رهْن أربع أذرع في ذراع ، في منزل مُبهَمَةٍ أبوابُه ، مُظلِمةٍ رِحابُه ، مُسْلَمةٍ إلى الحوادث أرْبابُه ، مُثْجِمةٍ بِصوْب المكاره سَحابُه ، أعْظِم به منزلاً لا يَبْرحُ من نزله ، حتى يلحق آخر الخلق أوّله» [٤] .

وتتكرر هذه الصورة في حديث الخطيب عن وحشة القبر ، وتغيّر محاسن ساكنه وعبث الدود بجسمه ، وسؤال المَلَكيْن ، وطول المكث به حتى يوم النشور [٥] ، وهي صور مستمدة من التراث الديني بمصادره التي أكثر الخطيب من الرجوع إليها والإفادة منها .

---

(١) الديوان : ١١ ، ١٢ .

(٢) نفسه : ١٢١ .

(٣) نفسه : ٢٤٥ . وانظر : ٨ ، ١٤ ، ٢٠ ، ٥٣ ، ٧٤ ، ١١٦ ، ١٥٢ ، ٢٩١ .

(٤) نفسه : ٤١ .

(٥) نفسه : ٥٣ ، ٧٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويستمدّ الخطيب بعض صوره من العلوم المختلفة مثل علوم العربية ، كما في قوله : فرحم الله امرءاً قدّم الحذر ، وأنْعم النظر ، قبل أن يُفارق الأوطان ، ويعدم الإمكان ، ويدّرع الأكفان ، ويدخل في خبر كان ، قبل الأخذ بالكظائم ...، قبل نزول القدر اللازم ، وسكون الحركات لدخول الحوازم» [1] ، وقوله «بل هو الله سبحانه ، المتعرِّف قبل حروف التعريف ، والمتصرِّف قبل عِلل التصريف ، المحْسِنُ البرُّ اللطيف» [2] .

وقد يستمدّ الخطيب صوره مستعيناً بعلم الكلام ومصطلحاته مثل قوله في ذكر ربّ العزّة - عزّ وجلّ - « الذي لم تَخْلُ منه غاية فيُحاز ، ولم تنْأ عنه نهاية فَيُجاز ، ولم يُجانس الجواهر فتُشاكِلَه ، ولم يمازج الأعراض فتُداخله ، بل هو مالئ الأشياء من غير حلول ، والمطّلعُ عليها بغير أفول » [3] .

وربما لجأ الخطيب في تصويره إلى الاستمداد من علوم الطبيعة والفلك ، في مثل قوله : « الحمد لله مسيِّرِ مشرقات النجوم ومغيِّرها ، ومدبِّرِ حركات الأفلاك ومديِّرها ، ومقرِّرِ البسيطة على متلاطم أمواج بحورها ، ومفجِّر ينابيع الماء من جلاميد صُمّ صخورها ، الذي صوّر أصناف الخليقة فأبْدَعَ في تصويرها ، وقدّر اختلاف أجناسها فأحسن في تقديرها » [4] .

ويرسم الخطيب صورة جميلة للسحاب والمطر ، وهي صورة تتكامل جزئياتها لتعطي صورة كاملة تمتلئ بالحركة والتشخيص وأساليب البيان ، وفيها يقول : « وأنشأ لكم من رحمته سحاباً ، كوّنها في غيب عِلْمه ، وأتقنها بلطفه وحكمه ، وأمَرَها فارتفعت مستقلّة ، ونشرها فاتّسقت مُظِلّة ، وساقها بالرياح سوقاً حثيثاً ، وأوقرها من البركة غيثاً مُغيثاً ، حتى إذا عمّت الآفاق طولاً وعرضاً ، وركضها المَلَكُ الموكل بها ركضاً ، وتمخّضت تمخّض الحامل ، وكادت تنالها بَسْطة المتناول ، أنْطَقَ

---

(١) الديوان : ١٧ ، ١٨ .

(٢) نفسه : ٢٧٥ .

(٣) نفسه : ١٥٦ ، ١٥٧ . وانظر ٣٥٧ ، ٣٨٣ ، ٤٥٩ .

(٤) نفسه : ٦٢ ، ١٥٧ . وانظر : ٤٨ ، ١٠٤ ، ٤٥٧-٤٥٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الله بالبشارة رَعْدها ، وحقّق بالنضارة وَعْدها ، وأطْلَع بالعمارة سَعْدها ، وأوسع في كل ربوة وقرارة رِفْدها ، وأصْلَتَ في أرجائها سيوف البرق ، وأسْبَلَ من خلالها سجال الوَدَق ، وأمَرَ الرياح فمرّت أخلافها ، وزمّ بالسلامة أوساطها وأطرافها ، فطبّق بِصَوْبها السهل والجبل ، وحقّق بغيثها السُّؤْل والأمل ، فأصبحت الوهاد مُتْرَعة ، والبلاد ممرِعة ، والرّوضُ ناضراً ، والخلقُ متباشراً ، قد ثابت منهم النّسايس ، وانجابت عنهم الوساوس » [1] .

وفي صورة أخرى للسحاب تفيض حيويّة وجمالاً لما زخرت به من التشخيص، والزخرف البديعيّ ، والألفاظ المنتقاة ، والتراكيب المنسجمة ، يقول الخطيب : «تضحَكُ في بكائه بُروقه ، وتدرّ بالرحمة والنعماء فُتُوقه ، ويتلو منه صَبوحَه غَبوقُه ، سَحوحاً صَوْبه ، بطيئاً أوْبُه ، مُسِفّاً هَيْدَبُه ، مُلْتَفّاً صَيِّبُهُ ، صَخِباً إرزامُه ، متحلّباً غَمامُه ، جَلْجالاً هَميرُه ، سيّالاً نَمِيْرُه ، متفجّرةً خِلالُه ، منهمرةً أذياله ، يدفع بعضُه بعضاً ، وتُروي به سماءٌ أرضاً » [2] .

ويُصوّر الخطيب البطل سيف الدولة صورة تقليدية معروفة في مدح القادة والأبطال ، وهي صورة ليس فيها خيال غامض أو مبهم ، فالبطل ليس أسطورة ، ولكنه نِعمة عظيمة ، وفيها يقول الخطيب « واعلموا أن أعظم نعمة جُلّلتموها ، وأكبر منّة خوّلتموها ، قدومُ معزّكم بعد الإذلال ، ورافعكم بعد الإخمال ، ومنقذكم من الفزع ، ومؤمّنِكُم بعد الجزع ، الباسِط فيكم العدل ، والمتابع لكم البذل ، شهاب الله الثاقب، وحِزْبِه الغالب ، وحقّه الواجب ، وعذابه على أعدائه الواصب ، ... ، ذي الوجه الأزهر ، والنسب الأطهر ، واللقب الأشهر ، والمحلّ الأكبر ، والحسام المِقْضَب، والهُمام المِحْرب .. الأمير سيف الدولة أبي الحسن ذي الراية المنصورة ، والنعمة المشكورة ، والأبوّة المشهورة ، والمواقف المذكورة ، حارس كافة المسلمين وهم رقود، والقائم بنصر دين الله وهم عنه قعود » [3] .

---

(١) الديوان : ٢٦٩ ، ٢٧٠ .

(٢) نفسه : ٢٦٢ ، ٢٦٣ .

(٣) نفسه : ٢٨٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذه الصورة في مجملها واقعية بعيدة عن المبالغة ، فقد عرف سيف الدولة بنسبه العربيّ ، ولقبه وكرمه وشجاعته ، وتفرّده دون أقرانه بحرب الروم .

ويستمدّ الخطيب بعض صوره من الواقع الاجتماعي للأفراد في الحديث عن الصراع الحربي مع الروم ، فهو يرى تخاذل المسلمين وخَوَرهم عن عدوهم ، ولذلك يُصوّرهم بقوله «أضعتم حقوق الله بالتضافر على إبطالها ... ، ونكصتم عن عدو الله وعدوكم على الأعقاب ، ومددتم لحكمه خواضع الرقاب ، حتى لقد طبتم عن الحريم المستباح نفوساً ، وطأطأتم للذلّ الصراح رؤوساً ، ... ، وصرتم فرصة المفترس ، ونهزة المختلس ، وحَبّاً للاقطٍ بلا سفا ، لا ترقبون إلا يد غاشم تخطفكم ، أو ريح عدوّ هاجم تنسفكم ، كالنّعم بغير راعٍ ، راحت رائحة السّباع ، فهي شريدة طريدة بكل قاع»[1].

ويلاحظ جمال تشبيه تفرّق المسلمين وخوفهم من عدوهم بالنّعم التي ليس لها راع وقد تفرّقت مولّية لقدوم السباع .

ويصور الخطيب سطوة العدوّ وغَلَبته على ديار المسلمين ، وهي صورة مستمدة من الواقع فيقول «والعدو يتملّك بلادكم قاطناً ، ويحتنك سوادكم آمناً ، يفُكّ عُرى أمصاركم عُروة عروة ، ويدُكّ ذُرى دياركم ذروة ذروة» [2] ، ويقول «فقد بلغ سيْله من دياركم أعلى الزُّبى ، وطمّ بحره الوهاد منها والرُّبا،فهو خذله الله داء لا تزيله أضاليل الرُّقى ، ولا يمنع منه إلا الاعتصام بمعاقل التُّقى» [3] . وقد استخدم الخطيب في تشخيصه كثرة العدوّ وقوته ضروبَ علم البيان ، واستمدّ بعض أجزاء صورته كذلك من أمثال العرب .

ويستخدم الخطيب في صوره عنصر الصراع في العقيدة مع الروم ، وفيه تبرز الفنون البديعية لا سيما الطباق والمقابلة ، كما في قوله : «كأنكم النساء

---

(١) الديوان : ٢١٩ ، ٢٢٠ .

(٢) نفسه : ٢٢٠ .

(٣) نفسه : ٢٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهم الرجال ، أو كأنّ دينهم الحق ودينكم الضلال » [١] . ويقول « أفَما يستنكف أهل التوحيد وحملة القرآن ، أن يستسلموا لأهل الجحود وعبدة الصُّلبان ، ولو كانوا عدد النجوم والقطر ، وملء البرّ والبحر ؟ أليسوا جسوماً ماثلة ، تتضمن قلوباً ماحلة ؟ نعق بها الشيطان فاستخفها ، ووعدها فأخلفها ، ولو مسّتها صوارم أهل الحق ، ونحتها عزائم الإخلاص والصدق ، لتهافتت تهافت الفراش المنثور ، هبّت به ريحا جنوب ودبور ، فأحسنوا -رحمكم الله- الثقة بمن لم يزل بكم براً لطيفاً ، وقاتلوا أولياء الشيطان إنّ كيد الشيطان كان ضعيفاً » [٢] ، ويستمد الخطيب كذلك من القرآن الكريم ما يُفيد في تشكيل هذه الصورة .

ويستمدّ الخطيب بعض صوره من التاريخ الإسلامي والسيرة النبوية في مثل قوله : وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله ، أرسله والكُفر زاخرٌ تيّارُه ، ظاهرٌ منارُه ، قاهر جبّارُه ، طائرٌ شرارُه ، عامرةٌ ديارُه ، متضافرةٌ أنصارُه ، فأخرس الله بمحمدٍ -صلى الله عليه وسلم- شقاشقها ، وأخنس به مُنافقها ، وبوّأهُ مغالِقها ، وأوطأهُ مفارِقها ، وجدَعَ بسلطانه مَعاطِسها ، وقَمعَ بأعوانه أبالِسها ، وكشف بِغُرّتِه حنادِسَها ، واختطف بأُسرتِه فوارسها ، حتى أطْلَعَ الإسلام رأسه ، وأوقع بأعدائه بأسه ، ومكّن الله له أساسه ، وسكّن من الخوف إيجاسه » [٣] .

لقد أكثر الخطيب من الخيال والتصوير في خطبه ، وعلى الرغم من أنّ غالب صوره جاءت تقليدية مستمدة من الموروث شعراً ونثراً ومن التراث الديني ، إلا أننا نلمح في بعض صوره طرافة وجِدّة إضافة إلى التقليد والاتباع ، ومن الصور الطريفة عند الخطيب تصويره الشيب بقوله : « إنّ ضياء نهار المشيب في ظلام ليل اللُّحى والرؤوس ، حقّق عند الفَطِن اللبيب قُرب انهدام القوى واختِرام النفوس ، ذلك صباح ما بعده ليل يُنتظر ، واجتياحٌ لا ملجأ منه ولا وزَر ، وضيفٌ على رغم المضيف واغِل ، وسيفٌ لموصول الحياة فاصل ، ونورٌ طالع بأفول

---

(١) الديوان : ١٩٧ .

(٢) نفسه : ١٩٧ .

(٣) نفسه : ٢٥ ، ٢٦ . وانظر : ٢٩ ، ٥٨ ، ٦٩ ، ٩٠ ، ٩١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النّسم ، ومنشورٌ بالإشخاص إلى محل الرّمم ...، ألا وإنّ المشيب ثغر الحياة الذي لا يُمكن سداده ، وكسرُ القناة الذي لا يُصلح الدهرَ فسادُه ، فيا معشر الشيوخ هل بعد ابيضاض الزّرع إلا حصادُه ؟!» (١) .

وتمتلئ هذه الصورة بالكنايات والتشابيه وضروب البيان التي تُضفي على الصورة ألَقاً وجمالاً .

ومن الصور الطريفة قوله في النُّعم : «إنّ نِعَم الله ألِفةٌ من شكرها فَعَقلها ، نادّةٌ صادفةٌ عمّن أسامها فأهملها» (٢) ويُكرّر معنى هذه الصورة مرّة أخرى في قوله: «إنّ نِعم الله لامعةٌ لكم بُروقها ، هامعة عليكم فتوقها ، ما شُكِر منها أثجم ، وما كفر منها أنجم ، فزمّوا -رحكم الله- بالشكر شواردها ، وأمّوا بالذكر مواردها ، ولا تهملوها فتُسلَبوا بهجتها ، ولا تخملوها فتخربوا محجّتها» (٣) . وهي صور مستمدة من التراث الديني من كتاب الله تعالى وتوجيهات نبيّه -صلى الله عليه وسلم- .

ومن هذه الصور قوله في التقوى : «فإنّ تقوى الله حِرزٌ من الهلكات واقٍ ، وكنْزٌ للمحيا والممات باقٍ ، من اتّخذها صاحباً كانت له في ظلم القيامة نوراً ، ومن نَبذها جانباً ركب من الندامة مركباً عثوراً» (٤) .

ومن هذه الصور قوله في الفتنة «إنّ الفتنة نارٌ شديد ضرامها ، بعيد مرامها، جائرة أحكامها دامرة أعلامها ، مسمومة سهامها ، مذمومة أيامها ، تُغيّر النُّعم ، وتُعجّل النُّقم ، وتقطع وشايج التواصل ، وتصير بأهلها إلى البغضاء والتخاذل ، يُطلع فيها الشيطان راسه ، ويبُثّ بها في القلوب وسواسه ...، وهل هي إلا نار وقودها الغضب ، ومُذكيها الصخب ، وقادحها اللّعِب ، ومؤجّجها الكذِب» (٥) .

---

(١) الديوان : ٣٨٠ ، ٣٨١ .

(٢) نفسه : ٢١٤ .

(٣) نفسه : ٢٨٣ .

(٤) نفسه : ٤٢٥ .

(٥) نفسه : ١١٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن هذه الصور قوله في خطبة من خطب المواقيت : «هذا -عباد الله- شعبانُ ضارباً بِجرانه ، قادماً بمعروف ربكم وإحسانه ، تتشعّب عليكم من السماء بركاته ، وتُزكّي أعمالكم أوقاتُه وساعاتُه» [1] ، وهي صورة مستمدة من أمثال العرب ومما ورد في فضل شهر شعبان من قول الرسول عليه الصلاة والسلام .

ومن هذه الصور قوله في بعض خطب الجهاد : «فإنّ للجنّة باباً حدوده تطهير الأعمال ، وتشييده إنفاق الأموال ، وساحته زحْف الرِّجال إلى الرِّجال ، وطريقه غمغمة الأبطال ، ومفتاحه الثبات في مُعترك القتال ، ومُدخله من مشرعة الصّوارم والنّبال» [2] ، وهي صورة لطيفة زاخرة بضروب علم البيان .

ونخلص إلى القول بأنّ الصورة الأدبية في خطب ابن نباتة - على كثرتها - قد بُنيت في أغلبها على التشخيص باستخدام ضروب علم البيان المختلفة من تشبيه وكناية واستعارة ، وقد رافقها فنون بديعية ساعدت على إبراز جمالها بما حوته من مقابلة وسجع بعد مراعاة انتقاء الألفاظ وانسجام التراكيب ، و كانت صور الخطيب في غالبها تقليدية مستمدة من عناصر متعددة أهمها القرآن الكريم وأقوال السابقين شعراً ونثراً ، ولا ينفي هذا وجود صورٍ طريفةٍ فيها شيءٌ من الجِدّة والبراعة مما يدلّ على خيال خصب وقريحة وقّادة .

---

(١) الديوان : ١٥٥ .

(٢) نفسه : ١٨٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخاتمة :

لقد اشتملت هذه الدراسة على دراسة لخطيب من جلّة خطباء القرن الرابع الهجري وهو خطيب الخطباء أبو يحيى عبدالرحيم بن محمد بن إسماعيل بن نباتة الفارقي الحذاقي ، الذي لم يحظ من اهتمام الكتّاب والباحثين بدراسة منفردة تفيه قدره .

وقد حرصت على دراسة حياة الخطيب في مراحلها المختلفة ، وأوليت اهتماماً للوقوف على نتاجه الأدبي ، فجاءت دراستي في أربعة فصول ، تحدثت في الفصل الأول منها عن حياة الخطيب ابن نباتة ، إذ عرضت لسيرته وذكرت اسمه ، وتعرّضت لمواطن الاختلاف والخطأ التي وقعت عند المترجمين والمؤرخين فيما يتعلق بتاريخ مولد الخطيب ووفاته ونسبه وألقابه وغير ذلك .

ثم تحدثت فيه عن عصر الخطيب وموطنه ومراحل حياته منذ ولادته بميافارقين أوائل العقد الثالث من القرن الرابع الهجري -على ما رأيت- حتى وفاته بها سنة ٣٧٤هـ ، وأبرزت فيها مظاهر تأثره بأحداث عصره ، وتنوع علاقاته، وتفجّر قريحته الخطابية أيام سيف الدولة الحمداني حيث تولّى الخطابة له ، وذكرت أخلاق الخطيب وصفاته التي أثنى عليها الناس من جلالة القدر ، وغزارة العلم والصلاح والورع .

وفي الحديث عن ثقافته أشرت إلى المصادر التي غذّتها ، وتتمثل بمطالعاته الأدبية المختلفة ، ومشاهداته وتجاربه ، وبيئته التي عاشها بميافارقين وحلب وغيرها حيث الصراع مع الروم ، والاهتمام بالعلماء والأدباء في مجالس سيف الدولة وعصره .

وفي الحديث عن عقيدة الخطيب توصلت إلى أنه كان سُنّياً يتّبع طريقة الزهاد والمتصوّفة . وختمت الحديث في الفصل الأول بالحديث عن وفاة الخطيب بعد رؤيته رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في المنام ، ومكانته مبدياً اهتمام القدماء والمحدثين بديوانه ، وأخيراً تحدثت عن نسله من أبنائه وحفدته الخطباء والقضاة الذين حملوا لواء الخطابة من بعده .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي الفصل الثاني حيث الدراسة التوثيقية للديوان ، تناولت الديوان مشيراً إلى مخطوطاته ، وأماكنها ووصف ما فيها ، ثم ذكرت طبعاته مشيراً إلى سنةكل طبعة ومكانها ، وبعد ذلك عرضت لشروح الديوان ومخطوطاتها ، وبيّنت في هذه الدراسة الأخطاء التي اتصلت بديوان الخطيب مما نُسب له من الطبعات ، أو خطبه التي تم التصرف فيها ، و نسبت إلى غيره .

وفي الفصل الثالث عرضت موضوعات الديوان المتعددة في الجهاد ، وذم الدنيا ، والموت والمعاد ، والمواقيت ، والمناسبات الدينية ، والنقد الاجتماعي ، والتهنئة ، والنكاح . وقد نظمتها في اتجاهات رئيسية تجمعها هي الاتجاه السياسي ، والاتجاه الديني ، والاتجاه الاجتماعي ، وتبين أن الخطيب كان في خطبه مراعياً لواقع الأمة وحالها ، متأثراً بالموروث الذي قيل في هذه الموضوعات من كلام الله تعالى وسنة رسوله ، وما قيل فيها من نثر أو شعر .

وعرضت في الفصل الرابع لدراسة خطب ابن نباتة دراسة فنية ، فتحدثت عن تجربته الأدبية ، وخلصت إلى أنه كان صادقاً في كلامه صدقاً فنياً وواقعياً في الأساليب والألفاظ التي استعملها في التعريض بالمتخاذلين ، والتنبيه إلى أمراض الأمة وحالها المتردي ، والدعوة إلى الجهاد ، وتسجيل الهزائم وبيان أسبابها وغير ذلك .

ثم تحدثت عن البناء الفني للخطبة عنده ، إذ سار على منهج الأقدمين ، فالتزم تقسيمها إلى خطبتين أولى وثانية ، يكون في الأولى مقدمة وعرض وخاتمة، وفي الثانية دعاء إلى الله ، وأشرت إلى أنّ تخصيصه لأدعية الصلاة على النبي يميناً وشمالاً في الخطب الثواني ، وفصول الأدعية للولاة والجيش وعموم المسلمين قد يُعدّ من أبواب التجديد في الخطابة .

ثم عرضت إلى لغة الخطيب وأسلوبه ، وأوضحت أنّ تعدد الأساليب عنده جاء مثرياً في التعبير عن تجربته ، ونقْل ما يعتمل في داخله ، وأنّ ألفاظه بجزالتها وفخامتها قد تناسبت مع الموضوعات التي طرحها وطبيعة ما اتّسم به الأدب والثقافة في عصره .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي الحديث عن الصورة الأدبية عند الخطيب تبيّن أنها جاءت مفعمة مليئة بالحركة ، متنوعة المصادر ، وقد جاء تشخيصه قريب التناول في الذهن عميق الأثر مما دفع من ترجم له إلى وصفه بصاحب الديوان الفائق في الحمد والوعظ وصاحب الخطب التي لم يُعمل مثلها .

وفي ختام القول ، أمل أن أكون قد استطعت بهذه الدراسة إلقاء الضوء على حياة الخطيب وديوانه اللذين ارتبطا ارتباطاً وثيقاً بالأحداث التي وقعت في عصره ، والتي تأثر بها وخلّدها في خطبه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قائمـــة
المصادر والمراجع

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قائمة المصادر والمراجع

أ - المصادر

١ - المصادر المخطوطة (المخطوطات)

- العكبري ، محب الدين أبو البقاء عبدالله بن الحسين البغدادي ، ت سنة ٦١٦هـ ، شرح الخطب النباتية ، مخطوطات المكتبة الوطنية ، باريس ، رقم ١٢٩٠ ، مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية ، شريط رقم ٢.٥ (صورة ميكروفيلمية) .

- ابن نباتة ، أبو يحيى عبدالرحيم بن محمد بن إسماعيل الفارقي المتوفى ٣٧٤هـ ، ديوان الخطب ، مخطوطات المكتبة الوطنية ، باريس ، رقم ١٢٨٩ ، مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية ، شريط رقم ٢.٥ (صورة ميكروفيلمية) .

- ابن نباتة ، أبو يحيى عبدالرحيم بن محمد بن إسماعيل الفارقي المتوفى ٣٧٤هـ ، ديوان الخطب ، مخطوطات المكتبة الوطنية ، برلين ، مجموعة لاندربرج ٣٧١ ، رقم ٩٤/١٢٥ ، ومنه صورة ميكروفيلمية بمركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية .

٢ - المصادر المطبوعة :

- ابن الأثير الجزري : عز الدين أبو الحسن علي بن محمد الشيباني ، ت سنة ٦٣٠هـ ،

- الكامل في التاريخ ، ط ١ ، (١٠) مجلدات ، ج ٧ ، تحقيق محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م .

- اللباب في تهذيب الأنساب ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٣٦٩هـ .

- ابن الأثير الجزري : ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد الشيباني ، ت سنة ٦٣٧هـ ،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور ، مجلد واحد ، تحقيق د. مصطفى جواد ود. جميل سعد ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٣٧٥هـ-١٩٥٦م .

- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ط ٢ ، ٣ مجلدات ، تحقيق د. أحمد الحوفي ، ود. بدوي طبانة ، منشورات دار الرفاعي للطباعة والنشر ، الرياض ، ١٩٨٣م .

- الوشي الرقوم في حلّ المنظوم ، مجلد واحد ، تحقيق د. جميل سعد ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م .

- ابن الأثير الحلبي : نجم الدين أحمد بن إسماعيل ، ت سنة ٧٣٧هـ ، جوهر الكنز «تلخيص كنز البراعة في أدوات ذوي اليراعة» ، مجلد واحد ، تحقيق د. محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف - الاسكندرية .

- ابن إياس : محمد بن أحمد بن إياس الحنفي ، ت سنة ٩٣٠هـ ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ط ٢ ، حققه محمد مصطفى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م .

- الإدريسي : عبدالله محمد بن محمد الحسني ، ت ٥٦٠هـ ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، مكتبة الثقافة الدينية ، مصر .

- ابن الأزرق الفارقي : أحمد بن يوسف بن علي ، ت بعد سنة ٥٧٠هـ ، تاريخ الفارقي - الدولة المروانية ، مجلد واحد ، تحقيق وتقديم د. بدوي عبداللطيف عوض ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، ١٣٧٩هـ-١٩٥٩م .

- الإسنوي : جمال الدين أبو محمد عبدالرحيم بن الحسن ، ت سنة ٧٧٢هـ ، طبقات الشافعية ، ط ١ ، تحقيق كمال يوسف الحوت ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٧م .

- ابن أبي الإصبع المصري : أبو محمد زكي الدين عبدالحميد بن عبدالواحد ، ت سنة ٦٥٤هـ ، بديع القرآن ، ط ١ ، تقديم وتحقيق حفني محمد شرف ، مكتبة نهضة مصر ، الفجالة ، ١٣٧٧هـ-١٩٥٧م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الأصبهاني : الميرزا عبدالله الأصبهاني ، من أعلام القرن الثاني عشر ، رياض العلماء وحياض الفضلاء ، تحقيق أحمد الحسيني ، مطبعة الخيام ، قم ١٤٠١هـ .

- امرؤ القيس : حندج بن حجر ، ت ٨٠ ق.هـ : ديوان امرئ القيس ، ط ٤ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٥٨م .

- الأنطاكي : يحيى بن سعيد بن يحيى ، تاريخ يحيى بن سعيد «تاريخ الأنطاكي» ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ، ١٩٠٩ .

- البكري الأندلسي : أبي عبيد عبدالله بن عبدالعزيز ، ت ٤٨٧هـ ، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، تحقيق مصطفى السقا ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالمعهد الخليفي للأبحاث المغربية ، بيت المغرب ، ١٣٧١هـ-١٩٥١م .

- البحراني : الشيخ يوسف بن أحمد البحراني صاحب الحدائق ، ت سنة ١١٨٦هـ ، لؤلؤة البحرين في الإجازات وتراجم رجال الحديث ، تحقيق محمد صادق بحر العلوم، مطبعة النعمان ، النجف الأشرف .

- البغدادي : الحافظ أبو بكر أحمد بن علي ، ت ٤٦٣هـ ، تاريخ بغداد ، ط ١ ، (١٤) مجلداً، الجزء العاشر ، مكتبة الخانجي - القاهرة ، والمكتبة العربية - بغداد، ومطبعة السعادة - مصر ، ١٣٤٩هـ-١٩٣١م .

- البلاذري : أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر ، ت سنة ٢٧٩هـ ، فتوح البلدان ، حققه وشرحه عبدالله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع ، دار النشر للجامعيين ، بيروت ، ١٩٥٧م .

- ابن تغري بردي الأتابكي : جمال الدين أبو المحاسن يوسف ، ت سنة ٨٧٤هـ ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ط ١ ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٣٢ .

- الثعالبي : أبو منصور عبدالملك بن محمد بن إسماعيل النيسابوري ، ت سنة ٤٢٩هـ ، كتاب الكناية والتعريض ، قدم له علي الخاقاني ، مكتبة دار البيان - بغداد ، دار صعب - بيروت .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٧٩م .

- الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر ، ت سنة ٢٥٥هـ ، البيان والتبيين ، (٤) أجزاء ، تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون ، دار الجيل ، بيروت ، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م .

- ابن الجوزي : جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن علي ، ت سنة ٥٩٧هـ ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، ط ١ ، (١٥) مجلداً ، دراسة وتحقيق محمد عبدالقادر عطا ، ومصطفى عبدالقادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م .

- حاجي خليفة : مصطفى بن عبدالله القسطنطيني ، ت سنة ١٠٦٧هـ ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، دار الفكر ، ١٩٩٠م .

- ابن حبيب البغدادي : أبو جعفر محمد ، ت سنة ٢٤٥هـ ، مختلف القبائل ومؤتلفها ، ط١ ، ومعه كتاب الإيناس في علم الأنساب للوزير المغربي ، أعدهما للنشر حمد الجاسر بإشراف دار اليمان للبحث والترجمة والنشر ، الرياض ، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م .

- ابن حجر العسقلاني : أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر ت سنة ٨٥٢هـ ، المشتبه في الرجال أسمائهم وأنسابهم ، (٤) أجزاء ، تحقيق علي محمد البجاوي ، المكتبة العلمية ، بيروت ، ١٩٦٧م ، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ط ٢ ، تحقيق وتقديم محمد سيد جاد الحق ، دار الكتب الحديثة ، مصر ، ١٣٨٥هـ-١٩٦٦م .

- ابن حجر الهيثمي العسقلاني : شهاب الدين أحمد بن محمد الهيثمي الشافعي ، ت سنة ٩٧٤هـ ، النخب الجليلة في الخطب الجزيلة ، ط ٢ ، مكتبة القاهرة ، ١٩٧٢م.

- ابن حجة الحموي : تقي الدين أبو بكر علي ، ت سنة ٨٣٧هـ ، خزانة الأدب وغاية الأرب ، ط ١ ، المطبعة الخيرية ، القاهرة ، ١٣٠٤هـ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ابن أبي الحديد : عز الدين أبو حامد عبدالحميد بن هبة الله المدائني ، ت سنة ٦٥٦هـ ، شرح نهج البلاغة ، ط ١ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٥٩م .

- الحريري : أبو محمد القاسم بن علي ، ت سنة ٥١٦هـ ، مقامات الحريري (المقامات الأدبية) ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م .

- ابن حزم الأندلسي : أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد ، ت سنة ٤٥٦هـ ، جمهرة أنساب العرب ، ط ١ ، مجلد واحد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م .

- محمد أمين الحلبي : محمد أمين بن فضل الله الحلبي ، ت سنة ١١١١ هـ ، نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة ، ط ١ ، تحقيق عبدالفتاح الحلو ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٦٧م .

- شهاب الدين الحلبي : أبو الثناء محمود بن سليمان ، ت سنة ٧٢٥هـ ، حسن التوسل إلى صناعة الترسُّل ، تحقيق ودراسة أكرم عثمان يوسف ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ، ١٩٨٠م .

- أبو البركات الحنبلي : عز الدين أحمد بن إبراهيم الكناني المصري ، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ، تحقيق ناظم رشيد ، دار الحرية للطباعة ، بغداد .

- ابن حوقل : أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي الموصلي ، ت سنة ٣٦٧هـ ، صورة الأرض ، دار مكتبة الحياة ، بيروت .

- الخزرجي : الشيخ علي بن الحسن ، ت سنة ٨١٢هـ ، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ، جزءان ، عني بتصحيحه الشيخ محمد بسيوني عسل ، مطبعة الهلال ، مصر ، ١٣٢٩هـ-١٩١٢م .

- الخفاجي : شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر المصري ، ت سنة ١٠٦٩هـ ، شفاء الغليل فيما ورد في كلام العرب من الدخيل ، ط ١ ، تصحيح ومراجعة محمد عبدالمنعم خفاجي ، مكتبة الحرم الحسيني التجارية الكبرى ، ١٣٧١هـ-١٩٥٢م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد ، ت سنة ٨٠٨ هـ ، **مقدمة ابن خلدون** ، ط ٣ ، (٣) مجلدات ، تحقيق د. علي عبدالواحد وافي ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٧٧م .

- ابن خلكان : شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد ت سنة ٦٨١ هـ ، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** ، ٦ أجزاء ، تحقيق د. إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م .

- الخوانساري : محمد باقر الموسوي الأصبهاني ، **روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات** ، تحقيق أسد الله إسماعيليان ، مطبعة المهرارستور، إيران ، ١٩٣١م .

- ابن دريد : أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي ، ت سنة ٣٢١هـ ، **الاشتقاق** ، ط ٢ ، تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون ، مكتبة المثنى ، بغداد ، ١٩٧٩م .

- الذهبي : شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان ، ت سنة ٧٤٨هـ ،

- **الإعلام بوفيات الأعلام** ، ط ١ ، حققه وعلق عليه رياض عبدالحميد مراد ، وعبدالجبار زكّار ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، ١٤١٢هـ-١٩٩١م .

- **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام** ، ط ١ ، تحقيق د. عمر عبدالسلام تدمري ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٨٩م .

- **دول الإسلام** ، ط ١ ، مطبعة دائرة المعارف النظامية ، حيدر آباد الدكن، ١٣٣٧هـ .

- **سير إعلام النبلاء** ، ط ١ ، تحقيق أكرم البوشي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٣م .

- **العبر في خبر من غبر** ، حققه وصنفه على مخطوطتين أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

- **المشتبه في الرجال أسمائهم وأنسابهم** ، ط ١ ، تحقيق علي محمد البجاوي ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٦٢م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الرازي : الإمام فخر الدين أبو عبدالله محمد بن عمر ، ت سنة ٦٠٦هـ ، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، ط ١ ، تحقيق د. بكري شيخ أمين ، دار العلم للملايين ، ١٩٨٥م .

- ابن رافع السّلامي : تقي الدين أبو المعالي ، ت سنة ٧٧٤هـ ، الوفيات ، ط ١ ، تحقيق صالح مهدي عباس ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م .

- ابن رستة : أبو علي أحمد بن عمر ، الأعلاق النفيسة ، طبع في مطبعة بريل/ليدن، ١٩٦٧م .

- ابن رجب الحنبلي : زين الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن أحمد بن حسن ، ت سنة ٧٩٥هـ ، كتاب الذيل على طبقات الحنابلة ، دار المعرفة ، بيروت .

- الزمخشري : جار الله أبو القاسم محمود بن عمر ، ت سنة ٥٣٨هـ ، أساس البلاغة ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م .

- السالمي : نور الدين عبدالله بن حميد ، ت سنة ١٢٣٢هـ ، تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان، ط ٥ ، ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م .

- سبط بن الجوزي : شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزأوغلي ، ت سنة ٦٥٤هـ ، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، ٣٤٥-٤٤٧هـ ، دراسة وتحقيق جنان جليل محمد الهموندي ، الدار الوطنية ، بغداد ، ١٩٩٠م .

- السبكي : تاج الدين أبو نصر عبدالوهاب بن علي ، ت سنة ٧٧١هـ ، طبقات الشافعية الكبرى ، ط ١ ، تحقيق عبدالفتاح الحلو ، محمود محمد الطناجي ، الناشر عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ١٣٨٣هـ-١٩٦٤م .

- ابن سلاّم : أبو عبيد القاسم ، ت سنة ٢٢٤هـ ، كتاب الأموال ، ط ١ ، تحقيق وتعليق محمد خليل هراس ، دار الكتب العلمية، بيروت ، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

- السُلمي : أبو عبدالرحمن محمد بن الحسين بن محمد ، ت سنة ٤١٢هـ ، طبقات الصوفية ، ط ٢ ، تحقيق نور الدين شريبة ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- السمعاني : أبو سعد عبدالكريم بن محمد التميمي ، ت سنة ٥٦٢هـ ، الأنساب ، ط ١ ، (٥) أجزاء ، تحقيق وتعليق عبدالله عمر البارودي ، دار الجنان ، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م .

- ابن سيدة : علي بن إسماعيل ، ت سنة ٤٥٨هـ ، المحكم والمحيط الأعظم ، ط ١ ، تحقيق عبدالستار أحمد فراج ، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، مصر ، ١٣٧٧هـ-١٩٥٨م .

- السيوطي : الحافظ جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر ، ت سنة ٩١١هـ ، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، ط ٢ ، مجلدان ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر ، بيروت ، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م .

- ابن شدّاد الحموي : عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم ، ت سنة ٦٨٤هـ ، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، ط ٣ ، الجزء الثالث ، القسم الأول، تحقيق يحيى عبّادة ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ، ١٩٧٨م .

- الشيرازي الحسيني : صدر الدين السيد علي خان المدني ، ت سنة ١١٢٠هـ ، الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة ، قدم له محمد صادق بحر العلوم ، منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها ، النجف ، ١٣٨١هـ-١٩٦٢م.

- الصفدي : صلاح الدين خليل بن أيبك ، ت سنة ٧٦٤هـ ، الوافي بالوفيات ، ط ٢ ، النشرات الإسلامية تصدرها جمعية المستشرقين الألمانية ، شتوتغارت ، ١٤١١هـ-١٩٩١م .

- نصرة الثائر على المثل السائر ، تحقيق محمد علي سلطاني ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٣٩١هـ-١٩٧١م .

- نكت الهميان في نكت العميان ، أحمد زكي ، المطبعة الجمالية ، مصر ، ١٩١١م.

- ابن ظافر : علي بن ظافر الأزدي ، ت سنة ٦٢٣هـ ، أخبار الدولة الحمدانية بالموصل وديار بكر والثغور ، ط ١ ، تحقيق وتقديم تميمة الرواف ، دار إحسان للطباعة والنشر ، ١٤٠٦هـ-١٩٨٥م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ابن عبد ربه : شهاب الدين أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي ، ت سنة ٣٢٨هـ ، العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، دار الفكر ، بيروت.

- أبو العتاهية : أبو إسحق إسماعيل بن القاسم ، ت سنة ٢١١هـ ، ديوان أبي العتاهية ، تقديم كرم البستاني ، دار صادر ، بيروت ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

- ابن العديم : الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة ، ت سنة ٦٦٠هـ ، بغية الطلب في تاريخ حلب ، الجزء الخامس ، حققه وقدم له سهيل زكّار ، دمشق، ١٩٨٨م .

- ابن العراقي : ولي الدين أبو زرعة أحمد بن عبدالرحيم بن الحسين ، ت سنة ٨٢٦هـ ، الذيل على العبر في خبر من غبر ، ط ١ ، تحقيق صالح مهدي عباس ، مؤسسة الرسالة ، بغداد ، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م .

- أبو هلال العسكري : الحسن بن عبدالله بن سهل ، ت سنة ٢٩٥هـ ، «كتاب» الصناعتين الكتابة والشر ، تحقيق علي محمد البجاوي ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م .

- ابن العماد الحنبلي : شهاب الدين أبو الفلاح عبدالحي بن محمد، ت سنة ١٠٨٩هـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ط ١ ، تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط ، ومحمد الأرناؤوط ، دار ابن كثير ، دمشق ، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م .

- ابن الغزي : شمس الدين بن الغزي ، ت سنة ١١٦٧هـ ، ديوان الإسلام ، ط ١ ، (٤) أجزاء ، تحقيق سيد كسروي حسن ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٠م .

- الفارابي : أبو إبراهيم إسحق بن إبراهيم ، ت سنة ٣٥٠هـ ، ديوان الأدب ، المجلد الأول ، تحقيق د. أحمد مختار أحمد ، مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م .

- ابن فارس : أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ، ت سنة ٣٩٥هـ ،

- مجمل اللغة ، ط ٢ ، مجلدان ، تحقيق ودراسة زهير عبدالمحسن سلطان ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- معجم مقاييس اللغة ، ط ٢ ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، مصر ، ١٣٩٠هـ-١٩٧٠م .

- أبو الفداء الأيوبي : الملك المؤيد إسماعيل بن علي الأيوبي صاحب حماة ، ت سنة ٧٣٢هـ ،

- تقويم البلدان ، اعتنى بتصحيحه رينود ، وماك كوكين ديسلان ، طبع في باريس بدار الطباعة السلطانية ، سنة ١٨٤٠م .

- المختصر في أخبار البشر «تاريخ أبي الفداء» ، ط ١ ، مجلدان ، المطبعة الحسينية المصرية .

- ابن فضل العمري : شهاب الدين أحمد بن يحيى ، ت سنة ٧٤٩هـ ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، جزء ١٣ ، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية في إطار جامعة فرانكفورت ، ألمانيا الاتحادية ، يصدرها فؤاد سزكين ، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م .

- ابن الفوطي : كمال الدين أبو الفضل عبدالرزاق بن تاج الدين أحمد الشيباني الحنبلي ، ت سنة ٧٢٣هـ ، تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب ، تحقيق د. مصطفى جواد ، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق .

- الفيروز أبادي : مجد الدين محمد بن يعقوب ، ت ٨١٧هـ ، القاموس المحيط ، ط ٢ ، تحقيق مكتبة التراث في مؤسسة الرسالة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٧م .

- ابن قاضي شهبة : تقي الدين أبو بكر أحمد بن محمد بن عمر الدمشقي ، ت سنة ٨٥١هـ ، طبقات الشافعية ، ط ١ ، تحقيق د. عبدالعليم خان ، عالم الكتب ، ١٩٨٧م .

- ابن قتيبة : الدنيوري ، ت سنة ٢٧٦هـ .

- الشعر والشعراء ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار التراث العربي للطباعة .

All Rights Reserved.- Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- عيون الأخبار ، ط ١ ، مجلدان ، المجلد الأول ، تحقيق د. يوسف علي طويل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م .

- قدامة بن جعفر : أبو الفرج قدامة بن جعفر البغدادي الكاتب ، ت سنة ٣٢٩هـ ، كتاب الخراج وصناعة الكتابة ، مجلد ، شرح وتحقيق د. محمد حسين الزبيدي ، دار الحرية للطباعة ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ، ١٩٨١م .

- القرماني : أحمد بن يوسف ، ت سنة ١٠١٩هـ ، أخبار الدول وآثار الأول ، ط ١ ، تحقيق ودراسة د. أحمد حطيط ود. فهمي سعد ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م .

- القزويني : القاضي عماد الدين زكريا بن محمد بن محمود ، ت سنة ٦٨٢هـ ، آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر ، بيروت .

- القشيري : الإمام أبو القاسم عبدالكريم بن هوازن ، ت ٤٦٥هـ ، الرسالة القشيرية في علم التصوف ، دار التربية للطباعة والنشر ، بغداد .

- القفطي : الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف ، ت سنة ٦٢٤هـ ، إنباه الرواة على أنباه النحاة ، ط ١ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الكفر العربي ، القاهرة ، ١٩٨٦م .

- القلقشندي : أحمد بن علي ، ت سنة ٨٢٨هـ ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، ١٥ مجلداً ، شرحه وعلّق عليه محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م .

- ابن قنفذ القسنطيني : أبو العباس أحمد بن حسن بن الخطيب ، ت سنة ٨١٠هـ ، الوفيات ، ط ٤ ، تحقيق د. عادل نويهض ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٨٣م .

- القنوجي : صدّيق بن حسن ، ت ١٣٠٧هـ ، أبجد العلوم (الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم) ، دار الكتب العلمية ، بيروت (دون تاريخ) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الكتبي : صلاح الدين أحمد بن محمد بن شاكر ، ت سنة ٧٦٤ هـ ، فوات الوفيات ، حققه وضبطه محمد محيي الدين عبدالحميد ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥١م .

- ابن كثير : أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر ، ت سنة ٧٧٤هـ ، البداية والنهاية ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م .

- الكلبي : أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي ، ت سنة ٢٠٤هـ ،

- جمهرة النسب ، ط ١ ، جزء واحد، تحقيق د. ناجي حسن ، عالم الكتب، بيروت ، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م .

- نسب معدّ واليمن الكبير ، ط ١ ، جزءان ، تحقيق د. ناجي حسن ، عالم الكتب، بيروت ، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م .

- الكلاعي : ذو الوزارتين أبو القاسم محمد بن عبدالغفور الإشبيلي الأندلسي من أعلام القرن السادس الهجري ، إحكام صنعة الكلام ، تحقيق محمد رضوان الداية ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٦م .

- كانار ، ماريوس : نخبة تاريخية وأدبية جامعة لأخبار الأمير سيف الدولة الحمداني المتوفى سنة ٣٥٦هـ ، طبع لتيبوليطوو جول كربونيل ، ١٩٣٤م ، خزانة الكتب العربية ، الجزائر .

- لبيد بن ربيعة : أبو عقيل لبيد بن ربيعة بن مالك العامري ، تحقيق إحسان عباس ، وزارة الإرشاد والأنباء ، الكويت ، ١٩٦٢م .

- المبرّد : الإمام أبو العباس محمد بن يزيد ، ت سنة ٢٨٥هـ ، الكامل ، ط ٢ ، (٤) أجزاء ، تحقيق د. محمد أحمد الدالي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م .

- المجلسي : محمد باقر الموسوي ، ت سنة ١١١١هـ ، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار ، ط٢ ، مؤسسة الوفاء ، بيروت ، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- المرتضى الزّبيدي : محمد مرتضى الحسيني ، ت سنة ١٢٠٥هـ ، تاج العروس من جواهر القاموس ، تحقيق مصطفى حجازي ، بإشراف لجنة فنية من وزارة الإرشاد والأنباء ، الكويت ، ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م .

- ابن المستوفي الإربلي : شرف الدين أبو البركات المبارك بن أحمد اللخمي ، ت سنة ٦٣٧هـ ، نباهة البلد الخامل بمن ورده من الأفاضل ، (تاريخ إربل) ، حققه وعلّق عليه سامي الصقار ، دار الرشيد للنشر ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد .

- مسكويه : أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب ، ت سنة ٤٢١هـ ، تجارب الأمم وتعاقب الهمم (تاريخ ابن مسكويه) ، لندن ، لوزاك ، ١٩٠٩م .

- المعري : أبو العلاء أحمد بن عبدالله بن سليمان التنوخي ، ت ٤٤٩هـ ، شرح ديوان أبي الطيب المتنبي (معجز أحمد) ، ط ٢ ، (٤) أجزاء ، دراسة وتحقيق د. عبدالمجيد دياب ، دار المعارف ، مصر ، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م .

- أبو شامة المقدسي : شهاب الدين أبو محمد عبدالرحمن بن إسماعيل الدمشقي ، ت ٦٦٥هـ ، (كتاب) الروضتين في أخبار الدولتين ، جزءان ، دار الجيل ، بيروت ، ١٢٨٨هـ .

- المقريزي : تقي الدين أحمد بن علي : ت ٨٤٥هـ ، كتاب المقفّى الكبير ، ط ١ ، تحقيق محمد اليعلاوي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٤١١هـ-١٩٩١م .

- ابن منظور : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ، ت سنة ٧١١هـ ، لسان العرب ، ط ١ ، (١٥) جزءاً ، دار صادر ، بيروت ، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م .

- الميداني : أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري ، ت سنة ٥١٨هـ ، مجمع الأمثال، (مجلدان) ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، منشورات دار النصر ، دمشق .

- ابن نباتة الفارقي: أبو يحيى عبدالرحيم بن محمد بن إسماعيل، ت سنة ٣٧٤هـ - خطب ابن نباتة ، ط ٤ ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ديوان خطب ابن نباتة ويليه خطب ولده أبي طاهر محمد رحمه الله مشروحاً بقلم طاهر الجزائري ، مطبعة جريدة بيروت ، بيروت ، ١٣١١هـ .

- ديوان خطب ابن نباتة ، المكتبة الثقافية - بيروت .

* ابن نباتة المصري : جمال الدين أبو بكر محمد بن محمد ، ت سنة ٧٦٨هـ ،

- ديوان ابن نباتة المصري ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، عن طبعة محمد القلقيلي ، القاهرة ، ١٩٠٥م .

* النويري : شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، ط ١ ، الجزء السابع ، تصحيح أحمد الزين ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة، ١٣٤٧هـ - ١٩٢٩م .

* الهمداني : محمد بن عبدالملك الهمداني ، ت سنة ٥٢١هـ ، تكملة تاريخ الطبري ، ط ٢ ، قدّمه وحققه ألبرت يوسف كنعان ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٦١م .

* ابن الوردي : زين الدين أبو حفص عمر بن مظفر ، ت سنة ٧٤٩هـ ، تتمة المختصر من أخبار البشر (تاريخ ابن الوردي) ، ط ١ ، تحقيق أحمد رفعت البدراوي ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٨٩هـ-١٩٧٠م .

* الوزير المغربي : الحسين بن علي بن الحسين ، ت سنة ٤١٨هـ ، الإيناس في علم الأنساب ، ومعه كتاب مختلف القبائل ومؤتلفها لابن حبيب البغدادي ، ط ١، أعدهما للنشر حمد الجاسر ، بإشراف دار اليمان للبحث والنشر والترجمة ، الرياض ، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م .

* ابن وهب : إسحق بن إبراهيم بن سليمان ، المتوفى في القرن الرابع الهجري ، نقد النثر (البرهان في وجوه البيان) ، وهو المنسوب لقدامة بن جعفر البغدادي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م .

* اليافعي : عفيف الدين أبو السعادات عبدالله بن أسعد ، ت ٧٦٨هـ ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في ما يُعتبر من حوادث الزمان ، ط ١ ، تحقيق وإشراف أحمد رفعت البدراوي ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٨٩هـ-١٩٧٠م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ياقوت الحموي :

- معجم الأدباء ، ط ٣ ، نسخة مصورة عن طبعة مرجليوث ، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م .

- معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩١م .

- اليعقوبي : أحمد بن يعقوب بن واضح ، كتاب البلدان ، وهو ملحق بكتاب الأعلاق النفيسة لابن رستة ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٩٦٧م .

ب - المراجـــع

١ - المراجع الحديثة (باللغة العربية) :

- إبراهيم علي أبو الخشب ، تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني .

- أحمد تيمور ، ضبط الأعلام ، ط ١ ، مطبعة دار إحياء التراث ، القاهرة ، ١٣٣٦هـ - ١٩٤٧م .

- إسماعيل البغدادي ، هدية العارفين ، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون ، ط ١ ، دار الفكر ، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م .

- الأمين النجفي ، عبدالحسين أحمد ، الغدير في الكتاب والسنة ، ط ٤ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م .

- أنيس المقدسي ، الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة الأدبية الحديثة ، ط ٣ ، دار العلم للملايين ، ١٩٨٠م .

- بروكلمان ، كارل ، تاريخ الأدب العربي ، (٦) أجزاء ، نقل الجزء الثاني إلى العربية د. عبدالحليم النجار ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦١ .

- جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، مراجعة وتعليق د. شوقي ضيف، دار الهلال، مصر .

- رمضان ششن : فهرس مخطوطات كوبريلي / تركيا ، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية ، استانبول ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الزركلي ، خير الدين الزركلي ، الأعلام ، ط ٤ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٩م .

- زكي مبارك ، النثر الفني في القرن الرابع الهجري ، ط ١ ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٣٥٢هـ-١٩٣٤م .

- د. شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي -عصر الدول والإمارات قسم الجزيرة العربية- العراق - إيران ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٨٠م .

- تاريخ الأدب العربي ، عصر الدول والإمارات (٦) قسم الشام ، ط ٢ ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٩٠م .

- عبدالجبار عبدالرحمن ، ذخائر التراث العربي الإسلامي (دليل ببليوغرافي للمخطوطات العربية المطبوعة حتى عام ١٩٨٠) ، ط ١ ، ١٤٠١هـ-١٩٨١م .

- د. عبدالجليل عبدالمهدي ، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية (٤٩٢-٦٤٨هـ) ، دار البشير للنشر والتوزيع ، عمان ، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م .

- د. عبدالرزاق محيي الدين ،أدب المرتضى من سيرته وآثاره ، ط ١ ، مطبعة المعارف، بغداد ، ١٩٥٧م .

- د. عبدالفتاح الحلو ، الشريف الرضي : حياته ودراسة شعره ، ط ١ ، هجر للطباعة والنشر ، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م .

- فهرست المخطوطات - الأدب والنقد والبلاغة ، ط ١ ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، عمادة شؤون المكتبات ، قسم المخطوطات (١٥) ، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م .

- د. عبداللطيف حمزة ، أدب الحروب الصليبية ، ط ١ ، دار الفكر العربي ، ١٩٤٩م .

- عبدالله حسن المخضوب ، الحكمة البالغة في الخطب وشهور السنة ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

- عمر فروخ ، تاريخ الأدب العربي في الأعصر العباسية إلى آخر القرن الرابع الهجري (١٣٢-٣٩٩) ، ط ١ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٨م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- عمر كحالة ، معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية ، (١٥) مجلداً ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

- معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ٣ أجزاء ، المطبعة الهاشمية ، دمشق ، ١٣٦٨هـ-١٩٤٩م .

- د. عمر باشا ، أمير شعراء المشرق ابن نباتة المصري ، مكتبة الدراسات الأدبية (٣١) ، دار المعارف ، ١٩٦٣م .

- فؤاد سيّد : فهرست المخطوطات المصوّرة - الأدب ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، القاهرة ، ١٩٧٩م .

- د. فيصل السامر ، الدولة الحمدانية في الموصل وحلب ، جزءان ، جامعة بغداد ، ١٩٧٣م .

- عباس محمد رضا القمي ، سفينة البحار ومدينة الحكم والآثار ، حرره أحمد بن الشيخ محمد حسين الزنجاني ، ١٣٥٥هـ ، أرانتشارت كتانخانة سنائي .

- الكنى والألقاب ، ط ٣ ، منشورات المطبعة الحيدرية ، النجف ، ١٩٦٩م .

- لويس شيخو اليسوعي ، مجاني الأدب في حدائق العرب ، ط ٣ ، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ، ١٩٥٧م .

- محمد عبدالسلام خضر الشقيري ، السنن والمبتدعات المتعلقة بالأذكار والصلوات ، مطبعة المدني ، مصر ، ١٣٨١هـ-١٩٦١م .

- محمد ناصر الدين الألباني ، صحيح سنن الترمذي باختصار السند ، ط ١ ، بتكليف من مكتب التربية العربي لدول الخليج العربي ، الرياض ، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م .

- صحيح سنن ابن ماجة ، بتكليف من مكتب التربية العربي لدول الخليج العربي ، الرياض ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م .

- صحيح الجامع الصغير وزياداته (الفتح الكبير) ، المكتب الإسلامي ، دمشق وبيروت، ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م .

- محمود مصطفى ، إعجام الأعلام ، ط ١ ، دارا لكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٣م .

- د. مصطفى الشكعة ، سيف الدولة الحمداني ، ط ١ ، دار القلم ، ١٩٥٩م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- يوسف إليان سركيس ، معجم المطبوعات العربية والمعرّبة ، مجلد واحد ، مطبعة سركيس، مصر ، ١٣٤٦هـ-١٩٢٨م .

٢ - المراجع الحديثة (باللغة الانجليزية) :

- De Slane, M. G., IBN KHALIKAN'S BIOGRAPHICAL DICTIONARY, Translated from the Arabic, Johnson Reprint Corporation, New Yrok and London, 1843.

٣ - المراجع الحديثة (باللغة الالمانية) :

- Ahlwardt,W. VERZECHNIS DER ARABISCHEN HANDSCHRIFTEN, Predigten, George Olms Verlag Hildeshelim, New York, 1980.
- Pertsch,W. DIE ARABISCHEN HANDSCHRIFTEN DER HERZOGLICHEN BIBLIIOTHEK ZU GOTHA, Hajar Press, Egypt, 1987.
- Voorhoeve, HANDLIST ARABIC MANUSCRIPITS IN THE LIBRARY OF THE UNIVERSITY OF LEIDEN, Leiden University Press, London, 1980.

ج - بحوث منشورة في :

١ - دوائر المعارف :

- دائرة المعارف الإسلامية ، النسخة العربية ، ابن نباتة ، ط ١ ، ١٣٥٢هـ - ١٩٣٣م .
- دائرة المعارف (قاموس عام لكل فن ومطلب) ، بطرس البستاني ، ابن نباتة، مؤسسة مطبوعاتي إسماعيليان ، تهران ، ناصر خسرو ، باسار مجيدي .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- دائرة المعارف (قاموس عام لكل فن ومطلب) ، فؤاد أفرام البستاني ، بيروت ، ١٩٦٢م .

- دائرة المعارف (مقتبس الأثر ومجد ما دثر) محمد حسين الشيخ سليمان الأعلمي المهرجاني الحائري ، عبدالرحيم بن نباتة ، ط ١ ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، قم ، كربلاء ، بيروت .

٢ - الدوريات :

- JOURNAL ASIATIQUE, De Slane, Sur Ibn Nobata, Le Plus Grand Predicateur Des Arabes, Tome 9, 1840.

- ZEITSCHRIFT Der DEUTSCHEN MORGEN LANDISCHEN GESELLSCHAFT, Stumme, H, Einzelnes, 68 Band, Kraus Reprint Ltd. Nendeln, 1968.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

Abstract

IBN NUBATA AL FARIQI: AS AN ORATOR

By

Omar Mahmoud Mohammad Dasan

Supervised by

Prof. Dr. Abdul Jalil Abdul Muhdi

This study aimed at realizing the following objectives, knowing the period in which the Orator Ibn Nubata lived (during the earliest years of the third decade of the fourth century until 374 A.H) and its effects on his speeches.

The study was planned on the readings of his "Diwan" and with a full focus on the related biographical, historical, literary references.

This research consists of four chapters: The first one discusses the biography of the orator.

The second chapter I made a study in which I documented all the information related to the Diwan of manuscripts, interpretations, editions and translations.

The third chapter deals with the different subjects of his speeches, e.g. the valour, religion, and moralities.

The fourth chapter covers an artistic study in which I shed some light on the orator techniques. and the figurative language.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit